892.708:R56mA V.5

رفاعي، أحمد فريد.

مكتبة القراءة والثقافة

892.708
R56mA
V.5

892.708
R56mA
v.5
c.1

الدكتور احمد فريد رفاعي
مدير ادارة المطبوعات المصرية

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

الوقت من ذهب

مكتبة القراءة والثقافة الأدبية للجيب

الهامش

Cat. May 1943

58662

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

إِنِّي رَأَيْتُ أَنَّهُ لَا يَكْتُبُ إِنْسَانٌ كِتَابًا
فِي يَوْمِهِ إِلَّا قَالَ فِي غَدِهِ: لَوْ غُيِّرَ هَذَا
لَكَانَ أَحْسَنَ، وَلَوْ زِيدَ كَذَا لَكَانَ يُسْتَحْسَنُ
وَلَوْ قُدِّمَ هَذَا لَكَانَ أَفْضَلَ، وَلَوْ تُرِكَ
هَذَا لَكَانَ أَجْمَلَ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْعِبَرِ،
وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِيلَاءِ النَّقْصِ عَلَى
جُمْلَةِ الْبَشَرِ.

الْعِمَادُ الْأَصْفَهَانِي

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وَبِهِ نَسْتَعِينُ

الهامش

المقدمة

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ، وَبَعْدُ ، فَهَذَا كِتَابُنَا الْخَامِسُ ، كِتَابُ الْهَامِشِ ، وَإِنَّنَا لَنَشْكُرُ لِلّٰهِ عَلَى أَنْ أَنْجَزْنَا لَكَ الْمَوْعُودَ . وَقَدَّمْنَاهُ لَكَ جَنًى شَهِيًّا قَرِيبَ الْمَنَالِ ، نَمِيرَ(١) السَّلْسَالِ ، وَبَسَطْنَا لَكَ فِيهِ طَرَفًا مُوجَزًا عَنِ الْفِكْرَةِ الْعَالَمِيَّةِ ، الْبَاحِثَةِ عَنِ الْعَظَمَةِ وَالنُّبُوغِ ، وَالنَّوَابِغِ وَالْعُظَمَاءِ ، وَاضِعِينَ بَيْنَ يَدَيْكَ نَظَرِيَّاتِ فَرِيقٍ مِنَ

(١) نمير : النمير الماء الصافى . والسلسال : العذب الجارى فى رفق

الْغَرْبِيِّينَ، وَآرَاءِهِمْ فِي تَحْدِيدِ الْعَظَمَةِ وَالنُّبُوغِ، وَهَلْ فِي الْوُجُودِ نَوَابِغُ وَعُظَمَاءُ، وَكَيْفَ نَعْرِفُهُمْ إِذَا كَانُوا مَوْجُودِينَ؟ وَأَيُّ الْعَوَامِلِ أَقْوَى أَثَرًا، وَأَعْظَمُ خَطَرًا فِي تَكْوِينِ الْعَظَمَةِ؟ أَهِيَ عَوَامِلُ الطَّبِيعَةِ الْبَحْتَةِ[1] وَالْمَوْهِبَةُ الْفِطْرِيَّةُ؟ أَوْ تَعَالِيمُ الدِّينِ، وَرِجَالُ الدِّينِ؟ ثُمَّ مَا هُوَ حَظُّ الثَّقَافَةِ وَالْأَدَبِ فِي ذَلِكَ التَّكْوِينِ؟ وَسَنَضَعُ بَيْنَ يَدَيْكَ، مَا قُوبِلَتْ بِهِ هَذِهِ النَّظَرِيَّاتُ مِنْ قُبُولٍ أَوْ رَدٍّ، وَتَسْلِيمٍ أَوْ نَقْدٍ، وَبِخَاصَّةٍ آرَاءَ الْفَيْلَسُوفِ الْأَمْرِيكِيِّ الْكَبِيرِ إِيمِرْسُونْ، الَّذِي كَشَفَ فِي بُحُوثِهِ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ نَوَاحِي الْعَظَمَةِ وَالنُّبُوغِ، كَانَتْ مِنْ قَبْلُ مُغْفَلَةً مِنَ الْبَاحِثِينَ، مُسْتَتِرَةً وَرَاءَ

(١) البحتة: الخالصة

مَظَاهِرِ الاِجْتِمَاعِ ، وَلَـكِنَّهُ وَصَلَ إِلَيْهَا وَحَلَّلَهَا ، كَمَا سَتَرَاهُ فِيمَا يَرِدُ عَلَيْكَ — إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى — ثُمَّ لَعَلَّكَ بَعْـدَ ذُكْرِكَ لِهَـذَا الَّذِى قَرَأْتَهُ وَاسْتَسَغْتَهُ[1] مِنْ هَذَا وَذَاكَ ، تَسْأَلُ اللهَ لَنَا التَّوْفِيقَ ، فَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ أَنْ نَتَقَدَّمَ إِلَى جَمَاعَةِ الْقُرَّاءِ عَامَّةً ، وَطَبَقَاتِ الْـكُتَّابِ مِنْهُمْ خَاصَّةً ، أُولِى الْبَصَرِ بِالنَّقْدِ وَالتَّمْحِيصِ ، لاَ مُعْتَذِرِينَ عَنْ وَاجِبٍ أَغْفَلْنَاهُ ، وَلاَ عَنْ مَجْهُودٍ ادَّخَرْنَاهُ ، وَإِنَّمَا نَتَقَدَّمُ إِلَى هَؤُلاَءِ جَمِيعاً بِأَمْرٍ وَاحِدٍ يَعْتَرِفُ بِهِ كُلُّ إِنْسَانٍ مَهْمَا عَلَتْ[2] كَعْبُهُ ، وَطَالَ بَاعُهُ ، وَاتَّسَعَ اطِّلاَعُهُ ، ذَلِكَ هُوَ الْقُصُورُ عَنْ بُلُوغِ الْـكَمَالِ ، الَّذِى يَلْزَمُ الْإِنْسَانَ

(١) استسغته : تفهمته بسهولة (٢) علت كعبه : أى سمت ثقافته فهو كناية

مِنْ حَيْثُ هُوَ إِنْسَانٌ ، مَنْ تَلَمَّسَ فِيهِ النَّقْصَ مِنْ أَيَّةِ نَاحِيَةٍ وَجَدَهُ ، لِأَنَّ الَّذِى اسْتَأْثَرَ بِالْكَمَالِ هُوَ الَّذِى تَفَرَّدَ بِالْكَمَالِ . وَإِنِّى ، لِهَذَا وَلِهَذَا وَحْدَهُ ، مُعْتَرِفٌ بِقِصَرِ بَاعِى ، وَقُصُورِ ذِرَاعِى فِيمَا قَدَّمْتُهُ لَكَ — خَالِصًا مُخْلِصًا — مِنْ إِصْلَاحٍ وَتَشْذِيبٍ ، وَثَقَافَةٍ وَتَهْذِيبٍ ، وَإِنِّى مَا زِلْتُ أُكَرِّرُ لَكَ[1] قَوْلَ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ :

كلمة يحيى ابن خالد

« لَا يَزَالُ الرَّجُلُ فِى فُسْحَةٍ مِنْ عَقْلِهِ مَا لَمْ يَقُلْ شِعْرًا ، أَوْ يُصَنِّفْ كِتَابًا ، وَقَدْ كَتَبَ جَعْفَرُ ابْنُ يَحْيَى إِلَى بَعْضِ عُمَّالِهِ ، وَقَدْ وَقَفَ عَلَى سَهْوٍ فِى كِتَابٍ وَرَدَ مِنْهُ : اتَّخِذْ كَاتِبًا مُنْصِفًا لِكُتُبِكَ .

(١) راجع كتاب معجم الأدباء صفحة ٩ من الجزء الأول

فَإِنَّ الْمُؤَلِّفَ تَنَازَعُهُ أُمُورٌ ، وَتَعْتَوِرُهُ خُرُوقٌ ، تَشْغَلُ قَلْبَهُ ، وَتَشْعَبُ[1] فِكْرَهُ ، مِنْ كَلَامٍ يَنْسُقُهُ[2] وَتَأْلِيفٍ يَنْظِمُهُ[3] ، وَمَعْنًى يَتَعَلَّقُ بِهِ يَشْرَحُهُ ، وَحُجَّةٍ يُوَضِّحُهَا . وَالْمُتَصَفِّحُ لِلْكِتَابِ أَبْصَرُ بِمَوَاضِعِ الْخَلَلِ مِنْ مُبْتَدِئٍ تَأْلِيفِهِ . وَأَنَا فَقَدِ اعْتَرَفْتُ بِقُصُورِي فِيمَا اعْتَمَدْتُ عَنِ الْغَايَةِ ، وَتَقْصِيرِي عَنْ الِانْتِهَاءِ إِلَى النِّهَايَةِ . فَأَسْأَلُ النَّاظِرَ فِيهِ أَلَّا يَعْتَمِدَ الْعَنَتَ[4] ، وَلَا يَقْصِدَ قَصْدَ مَنْ إِذَا رَأَى حَسَنًا سَتَرَهُ ، وَعَيْبًا أَظْهَرَهُ ، وَلْيَتَأَمَّلْهُ بِعَيْنِ الْإِنْصَافِ ، لَا الِانْحِرَافِ ، فَمَنْ طَلَبَ عَيْبًا وَجَدَّ

(١) تشعب : من باب قطع . تفرّق (٢) ينسقه : من باب نصر يعطف بعضه على بعض (٣) ينظمه : من باب ضرب يجمعه ويؤلفه
(٤) العنت : محركة . المشقة

وَجَدَ ، وَمَنِ افْتَقَدَ[١] زَلَلَ أَخِيهِ بِعَيْنِ الرِّضَا ، فَقَدْ فَقَدَ ، فَرَحِمَ اللهُ امْرَأً قَهَرَ هَوَاهُ ، وَأَطَاعَ الْإِنْصَافَ وَنَوَاهُ ، وَعَذَرَنَا فِي خَطَإٍ إِنْ كَانَ مِنَّا ، وَزَلَلٍ إِنْ صَدَرَ عَنَّا ، فَالْكَمَالُ مُحَالٌ ، لِغَيْرِ ذِي الْجَلَالِ ، فَالْمَرْءُ غَيْرُ مَعْصُومٍ ، وَالنِّسْيَانُ فِي الْإِنْسَانِ غَيْرُ مَعْدُومٍ ، وَإِنْ عَجَزَ عَنِ الاِعْتِذَارِ عَنَّا وَالتَّصْوِيبِ ، فَقَدْ عَلِمَ أَنَّ كُلَّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبٌ ، فَإِنَّا وَإِنْ أَخْطَأْنَا فِي مَوَاضِعَ يَسِيرَةٍ ، فَقَدْ أَصَبْنَا فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، فَمَا عَلِمْنَا فِيمَنْ تَقَدَّمَنَا وَأَمَّنَا مِنَ الْأَئِمَّةِ الْقُدَمَاءِ ، إِلَّا وَقَدْ نُظِمَ فِي سِلْكِ أَهْلِ الزَّلَلِ ، وَأُخِذَ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنَ الْخَطَلِ ، وَهُمْ[٢] هُمْ ، فَكَيْفَ بِنَا مَعَ

(١) افتقد الشيء : طلبه عن غيبته . وفقد الشيء . غاب عنه وعدمه

(٢) هم هم : توكيد . كناية عن كثرة علمهم وسعة اطلاعهم .

قُصُورِنَا وَاقْتِصَارِنَا وَصَرْفِ جُلِّ زَمَانِنَا فِى نَهْمَةِ[١] الدُّنْيَا . وَطَلَبِ الْمَعَاشِ ، وَنُمُوِّ الرِّيَاشِ ، الَّذِى مُرَادُنَا مِنْهُ صِيَانَةُ الْعِرْضِ ، وَبَقَاءُ مَاءِ الْوَجْهِ لَدَى الْعَرْضِ »

وَإِنِّى لَأَسْتَلْهِمُ الْوَاحِدَ الْأَحَدَ ، الْحَىَّ الصَّمَدَ ، سَدَادَهُ الْمُفَرِّقَ بَيْنَ خَلَجَةِ[٢] الشَّكِّ الْمُرْدِى ، وَالضَّلَالِ الْمُودِى ، وَوَهَجِ الْيَقِينِ الْهَادِى ، وَنُورِ الْحَقِّ الْحَادِى ، بِمَا يَمْحُو ظُلْمَةَ الضَّلَالِ ، وَيُسْطِعُ الرَّاجِحَ مِنَ الْمَقَالِ ، وَيُسَهِّلُ صَعْبَ الْمَنَالِ ، بِمُوَافَاتِنَا بِحُسْنِ الْخِصَالِ ، وَسَنِىِّ الْفِعَالِ ، وَمَحَامِدِ الرِّجَالِ ، بِمَنِّهِ وَفَضْلِهِ ، وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ أَوَّلاً وَآخِراً .

احمد فريد رفاعى

دار المأمون فى { أول محرم ١٣٥٥ / ٢٤ مارس ١٩٣٦

(١) نهمة الدنيا : حاجتها والشهوة فيها (٢) خلجة الشك : ما يختلج الصدور من الحيرة

لَمَحَاتٌ عَنِ الْعَظَمَةِ وَالنُّبُوغِ

وَفَضْلُ النَّوَابِغِ عَلَى الْعَالَمِ

* * *

النوابغ والعظماء

الْإِيمَانُ بِالْعُظَمَاءِ طَبِيعِيٌّ ، لَا عَجَبَ وَلَا غَرَابَةَ فِيهِ ، وَلَوْ أَنَّ رُفَقَاءَ طُفُولَتِنَا ، وَلِدَاتِ[1] صِبَانَا ، وَخُلَطَاءَنَا[2] فِي حَدَاثَتِنَا[3] ، اسْتَحَالُوا[4] عَلَى الدَّهْرِ عُظَمَاءَ ، وَسَاعَدَتْهُمُ الْأَقْدَارُ ، فَآضُوا[5] نَوَابِغَ يُشَارُ إِلَيْهِمْ بِالْبَنَانِ ، لَمَا عَجِبْنَا لِهَذَا وَلَا دَهِشْنَا ، بَلْ إِنَّ جَمِيعَ أَسَاطِيرِ[6] الْأَوَّلِينَ ، لَمَلْأَى — زَاخِرَاتٌ بِسِيَرِ أَنْصَافِ الْآلِهَةِ[7] ، وَسْطَ أَرْوَاحٍ مِنَ الشِّعْرِ ، وَزِينَةٍ

(١) لِدات جمع لِدة . وهو الذى من سنك (٢) خلطاءنا جمع خليط . المرافق والمشارك (٣) فى حداثتنا : فى أول أمرنا
(٤) استحالوا : صاروا (٥) آضوا : صاروا (٦) أساطير الأولين : كتبهم (٧) أنصاف الآلهة : العباقرة

مِنَ الْخَيَالِ ، وَمُسْعِدٍ مِنَ الظُّرُوفِ ، وَآيَاتٍ بَارِزَاتٍ مِنَ الْعَبْقَرِيَّةِ وَالنُّبُوغِ ، وَفِي خُرَافَاتِ « أَمْجُونَامَا[١] »، أَكَلَ النَّاسُ التُّرَابَ فَاسْتَعْذَبُوهُ[٢] ، وَطَعِمُوا الثَّرَى[٣] فَوَجَدُوهُ لَذًّا حُلْوًا هَنِيئًا[٤] .

يُخَيَّلُ إِلَيْنَا أَنَّ الطَّبِيعَةَ إِنَّمَا وُجِدَتْ لِكُلِّ رَفِيعٍ وَعَالٍ ، وَجَلِيلٍ وَفَائِقٍ ، وَأَنَّ الدُّنْيَا لَقَائِمَةٌ بِفَضْلِ الْأَخْيَارِ[٥] وَالصَّالِحِينَ ، فَهُمُ الَّذِينَ يُحِيلُونَ[٦] الْأَرْضَ طَيِّبَةَ الْمُقَامِ[٧] ، هَنِيَّةَ الْمُسْتَقَرِّ[٨] ، مُطْمَئِنَّةَ[٩] الْجَنَابِ . وَالَّذِينَ عَاشَرُوا الْأَخْيَارَ وَخَالَطُوهُمْ ، وَجَدُوا الْحَيَاةَ رَغْدَةً ، فَرِحَةً شَهِيَّةَ الْغِذَاءِ .

(١) أمجونامَا : اسم فيلسوف فى العصور القديمة (٢) استعذبوه : استطابوه واستساغوه (٣) الثرى : التراب (٤) الهنىء : السائغ (٥) الأخيار : الكثيرو الخير (٦) يحيلون : يصيرون (٧) المُقام : مكان الاقامة (٨) المستقر : موضع الاستقرار (٩) المطمئنة الجناب : الهادئة الساكنة

إِنَّ الْحَيَاةَ لَتَحْلُو وَتُسْتَطَابُ لِإِيمَانِنَا بِوُجُودِ الْأَخْيَارِ فِيهَا، وَالْأَطْهَارِ وَالصَّالِحِينَ، وَنَحْنُ بَنِي الدُّنْيَا نَزَّاعُونَ[١] بِالْحَقِيقَةِ أَوْ بِالْخَيَالِ، أَوْ بِالرِّضَى بِالْحَاضِرِ الْوَاقِعِ، أَوْ بِتَصَوُّرِ الْمَثَلِ الْعَالِي وَالْكَمَالِ، إِلَى الْعَيْشِ مَعَ مَنْ هُمْ أَسْمَى[٢] شَأْنًا مِنَّا، وَبِالْمُقَامِ بِجَانِبِ أَخْيَارِنَا وَأَفَاضِلِنَا، وَالْعُظَمَاءِ فِينَا، حَتَّى لَنُسَمِّيَ أَطْفَالَنَا بِأَسْمَائِهِمْ، وَنُطْلِقَ عَلَى دِيَارِنَا وَأَرَاضِينَا أَلْقَابَهُمْ[٣]. بَلْ إِنَّ أَسْمَاءَهُمْ لَتَنْدَمِجُ[٤] فِي اللُّغَةِ، وَيَجْرِي عَلَيْهَا التَّصْرِيفُ[٥] وَالنَّحْتُ[٦] — وَالِاشْتِقَاقُ[٧]. وَإِنَّ مُخَلَّفَاتِهِمْ

(١) نزاعون : ميالون (٢) أسمى : أرفع (٣) الألقاب جمع لقب : وهو ما أشعر برفعة المسمى أوضعته (٤) لتندمج: لتدخل (٥) التصريف: التغيير (٦) النحت : الأخذ والتركيب . «كالبسملة» فى بسم الله الرحمن الرحيم . (٧) الاشتقاق : أخذ كلمة من أخرى

وَآثَارَهُمْ وَصُوَرَهُمْ، لَمَحْفُوظَةٌ وَمُقْتَنَاةٌ، وَمُزَيِّنَاتٌ دُورَنَا، وَجُدُرَ حُجُرَاتِنَا، وَإِنَّ أَحْدَاثَ[1] الْيَوْمِ وَظُرُوفَهُ، وَأَحَادِيثَهُ وَمَجْرَاهُ، لَتُذَكِّرُنَا بِأَقَاصِيصِهِمْ[2]، وَتُورِدُ عَلَى خَوَاطِرِنَا ذِكْرَيَاتِهِمْ وَنَوَادِرِهِمْ، وَطَرَائِفَ الْأَخْبَارِ عَنْ حَيَاتِهِمْ.

* * *

أماني الشباب

إِنَّ الْبَحْثَ عَنِ الْعَظِيمِ، هُوَ حُلْمُ الشَّبَابِ، وَأُمْنِيَّةُ[3] الصِّبَا، وَهُوَ كَذَلِكَ مَشْغَلَةُ الرُّجُولَةِ، وَمُرْتَادُهَا[4] وَمُنْتَجَعُهَا، وَإِنَّا لَنَجُوبُ[5] الْأَقْطَارَ، وَنَذْرَعُ الْأَرْضَ، وَنَسِيحُ[6] فِي الْأَمْصَارِ، وَنَضْرِبُ فِي

(١) أحداث جمع حدث . الأمر العظيم (٢) أقاصيص جمع أقصوصة وهى ما يروى عنهم . طرائف جمع طريفة : وهى المستحسن النادر (٣) الأمنية : البغية وما يتمنى (٤) مرتادها : مكان الارتياد . والارتياد : الطلب والتفقد (٥) لنجوب : لنقطع (٦) نسيح : نسير

الآفاقِ، لِنَجِدَ آثارَهُ، وَنَشْهَدَ فِعالَهُ، أَوْ إِذا أَعْوَزَتْنا وَلَمْ نَسْتَطِعْ لَهَا طَلَباً، قَنَعْنا بِمُتْعَةِ لَمْحَةٍ مِنْهُ، وَنَظْرَةٍ سَرِيعَةٍ خاطِفَةٍ إِلَيْهِ. وَتَمْلِيَةِ الْعَيْنِ فِي لَمْعَةِ الْبَرْقِ مِنْ وَجْهِهِ وَصَفْحَتِهِ، وَلَكِنَّا فِي مُلْتَمَسِنا وَبَحْثِنا، قَدْ يُلْهِينا طَلَبُ الْعَيْشِ، أَوْ تَصْرِفُنا هَمَاهِمُ[1] الْحَياةِ، وَدَوَرانُ عَجَلَةِ الْحَظِّ وَالْقَدَرِ، وَالْتِماسُ الْمالِ وَالثَّراءِ[2].

وَإِنَّكَ لَتَقُولُ: إِنَّ الْإِنْكليزَ لَعَمَلِيُّونَ، وَإِنَّ الْأَلْمانَ لَكُرَماءُ مَسامِيحُ[3]، وَإِنَّ الْمُناخَ فِي بَلَنْسِيَةَ مِنَ الْأَنْدَلُسِ لَطَيِّبٌ صَحْوٌ، وَإِنَّ فِي جِبالِ كَذا مَناجِمَ الذَّهَبِ تَطْلُبُ الْمُحْتَفِرِينَ ... نَعَمْ وَايْمُ اللهِ،

(١) هماهم الحياة: شواغلها (٢) الثراء: الغنى (٣) مساميح جمع مسماح: وهو كثير الجود والعطاء

وَلَـكِنْ لاَ أَجُوبُ الْأَمْصَارَ ، وَلاَ أَضْرِبُ فِي الْأَرْضِ بِعَصَا التَّسْيَارِ[١] ، لِأَلْقَى الْكِرَامَ ، وَأَقَعَ عَلَى الْمَسَامِيحِ ، وَأُصِيبَ السَّرَوَاتِ وَالْأَغْنِيَاءَ ، وَلاَ لِأَشْهَدَ السَّمَاءَ صَحْوًا ، وَالْأُفُقَ مُشْرِقًا ، وَالْأَهْوِيَةَ طَيِّبَةً عَلاَئِلَ[٢] . وَسَبَائِكَ الْإِبْرِيزِ[٣] وَافِرَةً كَثِيرَةً ، وَلَـكِنِّي أَلْتَمِسُ شَيْئًا وَاحِدًا ، وَهُوَ لِقَاءُ الْعُظَمَاءِ ، وَالْوُقُوعُ عَلَى أُولِي الْفَضْلِ وَالْخَيْرِ ، بَلْ لَوْ أَنَّ مَغْنَاطِيسًا[٤] أَوْ إِبْرَةً أَوْ بُوصْلَةً ، تَدُلُّنِي عَلَى مَوَاضِعِ كُلِّ عَظِيمٍ ، الْعَظَمَةَ الْحَقِيقِيَّةَ ، وَتَهْدِي خُطَايَ إِلَى مَكَانِ كُلِّ نَابِغَةٍ ، وَأَخِي فَضْلٍ ، وَيَسَارٍ نَفْسِيٍّ ،

(١) التسيار بفتح التاء مصدر بمعنى السير (٢) علائل جمع عليلة
(٣) الابريز : الذهب الخالص (٤) المغناطيس : معدن فيه قوة تجذب الحديد وبعض المعادن .

وَمَزَايَا طَيِّبَاتٍ نَادِرَاتٍ ، لَنَزَلْتُ عَنْ كُلِّ مَا أَمْلِكُ ، وَبَضَضْتُ[١] بِآخِرِ مَا احْرِزُ[٢] ، وَبِعْتُ كُلَّ مَا عِنْدِى ، لِكَىْ أَشْتَرِىَ تِلْكَ الْإِبْرَةَ الْمَغْنَاطِيسِيَّةَ ، وَأَرْكَبَ الطَّرِيقَ إِلَى مَوَاطِنِ الْعَظَمَةِ مِنَ السَّاعَةِ ، غَيْرَ مُسْتَأْنٍ وَلَا مُتَمَهِّلٍ . . .

* * *

العظماء فى أجيالهم

إِنَّ فَضْلَ الْعُظَمَاءِ لَيُضْفِى[٣] عَلَى الْجِيلِ كُلِّهِ ، وَيَشْمَلُ الْأُفُقَ بِجُمْلَتِهِ ، وَيَغْمُرُ الْوَسَطَ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ . وَإِنَّ الْعِلْمَ بِأَنَّ فِى الْمَدِينَةِ رَجُلًا اخْتَرَعَ طَرِيقًا حَدِيدِيًّا ، لَيَرْفَعُ مِنْ شَأْنِ أَهْلِهَا جَمِيعًا ، وَيَنْشُرُ فَضْلَهُمْ عَامَّةً ، عَلَى حِينَ لَا فَضْلَ وَلَا شَانَ وَلَا قِيمَةَ وَلَا قَدْرَ لِبَلَدٍ كَثِيرِ السُّكَّانِ ، مُزْدَحِمٍ بِالْأَهْلِ

(١) بضضت: جدت وأعطيت (٢) ما أحرز: أدخر (٣) ليضفى: ليزيد

وَالْأَنَاسِيِّ[١] ، إِذَا هُمْ كَانُوا نَكِرَاتٍ خَامِلِينَ ، وَصِغَاراً أَقْزَامًا[٢] ضِئَالَ الْأَقْدَارِ ، بَلْ إِنَّهُمْ لَيَرُوحُونَ[٣] وَهُمْ كَذَلِكَ[٤] أَشْبَهُ شَيْءٍ بِقُرَى النَّمْلِ ، وَجُيُوشِ الذُّبَابِ ، وَأَسْرَابِ الْهَوَامِّ[٥] ، كُلَّمَا تَكَاثَرُوا ، كَانَ الشَّرُّ فِي التَّكَاثُرِ ، وَكُلَّمَا نَمَوْا كَانَ السُّوءُ فِي النَّمَاءِ .

* * *

الدين والعظماء

إِنَّ الدِّينَ الَّذِي نُؤْمِنُ بِهِ ، يَأْمُرُنَا بِحُبِّ الْعُظَمَاءِ ، وَإِعْزَازِ أُولِي الْأَمْرِ مِنَّا ، وَالْكِبَارِ الْهُدَاةِ فِينَا . وَأَمَّا الْآلِهَةُ فِي الْخُرَافَاتِ وَالْأَسَاطِيرِ ، فَهُمْ فِي عَالَمِنَا الْحَدِيثِ عُظَمَاؤُنَا وَكُبَرَاؤُنَا ، وَنَوَابِغُنَا فِي ضِيَاءٍ جَدِيدٍ ، وَصُوَرٍ مُحْدَثَةٍ ، وَنَحْنُ إِنَّمَا نُفْرِغُ[٦] جَمِيعَ آنِيَتِنَا وَأَوْعِيَتِنَا

(١) الأناسى جمع إنسان (٢) أقزام : جمع قزم : وهو الصغير الجسم
(٣) يروحون : يصيرون (٤) كذلك : أى على حالتهم المتقدمة
(٥) الهوام : الحشرات (٦) نفرغ : نصبُّ

فِى قَالَبٍ فَذٍّ[١] وَاحِدٍ . فَإِنَّ الْيَهُودِيَّةَ وَالْمَسِيحِيَّةَ وَالْبُوذِيَّةَ ، وَالدِّيَانَةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ ، هِىَ جَمِيعًا سَوَاءٌ فِى بِنَاءِ الْعَقْلِ الْبَشَرِىِّ ، وَسَيْرِ نَشْأَتِهِ وَتَكْوِينِهِ . وَإِنَّ الطَّالِبَ الَّذِى يَلْتَمِسُ[٢] دِرَاسَةَ التَّارِيخِ ، لَأَشْبَهُ شَىْءٍ بِرَجُلٍ مُتَنَقِّلٍ فِى جَوَانِبِ مَتْجَرٍ[٣] لِلثِّيَابِ ، أَوْ حَانُوتٍ لِبَيْعِ الْفُرُشِ وَالْبُسُطِ ، فَإِنَّهُ لَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ قَدِ اقْتَنَى طَرِيفًا ، وَابْتَاعَ[٤] جَدِيدًا ، وَأَصَابَ مُبْتَكَرًا[٥] ، وَظَفِرَ بِمُسْتَحْدَثٍ ، مَعَ أَنَّهُ لَوْ ذَهَبَ إِلَى الْمَصْنَعِ الَّذِى يَصْطَنِعُ[٦] تِلْكَ السِّلَعَ الْقُشُبَ[٧] ، لَوَجَدَ أَنَّ ثَوْبَهُ الَّذِى فَرِحَ بِهِ ، وَظَنَّ أَنَّهُ الْجَدِيدُ الْمُبْتَكَرُ الْمُبْتَدَعُ ،

(١) الفذ : الفرد الذى لا نظير له (٢) يلتمس : يطلب
(٣) متجر : محل التجارة (٤) ابتاع : اشترى (٥) المبتكر : المخترع
(٦) يصطنع : يصنع (٧) القشب : جمع قشيب : وهو الجديد

لَمْ يَكُنْ سِوَى تَقْلِيدٍ وَاحْتِذَاءٍ ، بَلْ تَكْرَارٍ لِلصُّوَرِ وَالشُّكُولِ وَالتَّهَاوِيلِ ، الْمَنْقُوشَةِ عَلَى جُدْرَانِ الْأَهْرَامِ فِي طَيْبَةَ الْقَدِيمَةِ .

إِنَّ دِينَنَا أَوْ إِيمَانَنَا بِاللهِ ، هُوَ أَرْوَعُ[1] تَطْهِيرٍ لِلْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ ، وَأَسْمَى تَنْقِيَةٍ وَأَرْفَعُ تَصْفِيَةٍ ، وَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْسَ فِي مَيْسُورِهِ وَلَا فِي وُسْعِهِ ، وَلَا فِي مَقْدُورِهِ ، أَنْ يُصَوِّرَ أَوْ يَصْطَنِعَ أَوْ يُفَكِّرَ فِي شَيْءٍ غَيْرِ الْإِنْسَانِ ، وَإِنَّهُ لَيَعْتَقِدُ أَنَّ الْعَنَاصِرَ كُلَّهَا مُنْبَعِثَةٌ مِنْ فِكْرِهِ ، رَاجِعَةٌ فِي أَصْلِهَا إِلَى وُجْدَانِهِ وَعَقْلِهِ ، بَلْ إِنَّ فَلْسَفَتَنَا ، إِنَّمَا هِيَ الَّتِي تَجْمَعُ الْجَوْهَرَ الْأَعْظَمَ أَوْ تُوَزِّعُهُ ، وَتَهْتَدِي إِلَيْهِ فِي الْخَلِيقَةِ مُنْحَصِرًا ، أَوْ مُنْتَشِرًا عَلَى السَّوَاءِ .

(١) أروع من الروعة : وهى الجلال والعظمة

* * *

مدارج الثقافة

وَإِذَا نَحْنُ الْآنَ انْتَقَلْنَا إِلَى الْبَحْثِ فِي إِفْضَالِ بَعْضِنَا عَلَى بَعْضٍ . وَمَزَايَا النَّاسِ عَلَى النَّاسِ ، وَحُدُودِ هَذَا الْإِفْضَالِ ، وَمُنْحَصَرِ هَذِهِ الْمَزَايَا ، فَلْنَحْذَرْ خَطَرَ الدِّرَاسَاتِ الْحَدِيثَةِ ، وَلْنَبْدَأْ مِنَ الْأَقَلِّ وَالْأَصْغَرِ . قَبْلَ أَنْ نَبْحَثَ عَنِ الْأَرْفَعِ وَالْأَسْمَى ، بَلْ يَنْبَغِي أَلَّا نَخْتَلِفَ فِي أَمْرِ الْحُبِّ ، أَوْ نُنْكِرَ وُجُودَ الْغَيْرِ ، وَلَسْتُ أَدْرِي — وَأَيْمُ اللهِ — مَاذَا كَانَ مُمْكِناً أَنْ يَحْدُثَ لَنَا ، وَمَاذَا كَانَ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَصِيرُنَا ، إِذَا لَمْ تَسِرْ بِنَا الْحَيَاةُ كَمَا سَارَتْ ، وَلَمْ تَقْسِمْنَا طَرَائِقَ[1] وَطَبَقَاتٍ[2] ، وَلَمْ تَجْعَلْ كُلاً مِنَّا عَوْناً[3] لِسِوَاهُ ،

(١) طرائق جمع طريقة . أى فرقا (٢) طبقات جمع طبقة : وهى المرتبة (٣) « أى معينا »

وَسِوَاهُ بِحَاجَةٍ إِلَيْهِ ، وَإِنِّى لَأَسْتَطِيعُ الشَّىْءَ لِعَوْنِ غَيْرِى ، وَأَعْجِزُ عَنْهُ بِمُفْرَدِى ، وَأَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَ لَكَ ، مَا لَيْسَ فِى اسْتِطَاعَتِى أَنْ أَقُولَهُ أَوَّلًا لِنَفْسِى ، فَإِنَّ النَّاسَ وَاللهِ أَشْبَهُ شَىْءٍ بِعَدَسَاتٍ[1] بِلَّوْرِيَّةٍ نَقْرَأُ مِنْ خِلَالِهَا خَوَاطِرَنَا ، وَنَشْهَدُ صُوَرَ أَحْلَامِنَا[2] وَأَفْكَارَنَا ، وَكُلُّ امْرِىءٍ يَلْتَمِسُ عِنْدَ سِوَاهُ الصِّفَاتِ وَالْخِلَّاتِ ، وَالْمَيْزَاتِ الَّتِى لَيْسَتْ عِنْدَهُ . وَكُلَّمَا كَانَتْ طَبِيعَةُ الْمَرْءِ قَوِيَّةً ، كَانَ الْمُنْبَعِثُ مِنْهَا وَالْمُنْعَكِسُ عَنْهَا قَوِيًّا مِثْلَهَا ، فَلْنَلْتَمِسْ أَصْفَى الصِّفَةِ ، وَأَنْقَى الْمَزِيَّةِ ، وَلْنَدَعِ الْأَخْيَارَ

(١) عدسات مجاهر زجاجية تستعمل فى تكبير الأشياء أو تقريبها . وبلورية مأخوذة من البلور (٢) أحلامنا : عقولنا

الْمَأْلُوفِينَ ، وَالْأَفَاضِلَ الْاُعْتِيَادِيِّينَ جَانِباً ، فَإِنَّ أَكْبَرَ الْفَارِقِ بَيْنَ النَّاسِ ، هُوَ فِي قِيَامِ كُلِّ امْرِئٍ بِشَأْنِهِ ، وَأَدَائِهِ لِمَا هُوَ مُيَسَّرٌ لَهُ ، وَالْإِنْسَانُ هُوَ ذَلِكَ النَّبَاتُ الطَّيِّبُ ، الَّذِي يَنْمُو مِنَ الدَّاخِلِ كَالنَّخِيلِ ، وَشَأْنُ كُلِّ امْرِئٍ سَهْلٌ عَلَيْهِ ، مَيْسُورٌ لَهُ ، وَقَدْ يَكُونُ مُسْتَحِيلاً عَلَى سِوَاهُ ، إِذْ مَا أَسْهَلَ عَلَى السُّكَّرِ أَنْ يَكُونَ حُلْواً ، وَعَلَى الْمِلْحِ أَنْ يَكُونَ أُجَاجًا مُرًّا ، وَإِنَّا لَنَتْعَبُ وَنَكِدُّ وَنَجْتَهِدُ لِنُوقِعَ وَنَحْتَبِلَ[1] وَنَقْتَنِصَ مَا هُوَ مِنْ ذَاتِهِ وَاقِعٌ فِي يَدِنَا ، مُسْتَسْلِمٌ لَنَا ، هَيِّنٌ مِنْ نَفْسِهِ عَلَيْنَا ، وَلَكِنِّي أُعِدُّهُ عَظِيماً — ذَلِكَ الَّذِي يَسْكُنُ أُفُقاً

(١) ونحتبل : نأخذ الصيد بالحبال « كالشبكة »

مِنَ الْفِكْرِ أَسْمَى مِنْ أُفُقِنَا ، وَيَحْتَلُّ مَقَامًا عَلِيًّا يَصْعَدُ النَّاسُ إِلَيْهِ مُجْهِدِينَ مَكْدُودِينَ[1] ، لَا يَكَادُونَ يَبْلُغُونَهُ فِيهِ ، أَوْ يَتَلَاقَوْنَ بِهِ عِنْدَهُ . وَإِنَّهُ لَيَكْفِي أَنْ يَفْتَحَ عَيْنَيْهِ لِيَرَى الْأَشْيَاءَ عَلَى حَقَائِقِهَا ، بَلْ مُجَهَّرَةً مُكَبَّرَةً لِتَبْدُوَ[2] لَهُ مِنْهَا الدَّقَائِقُ وَالْجُزْئِيَّاتُ وَالتَّفَاصِيلُ ، عَلَى حِينِ يَذْهَبُ النَّاسُ يُكِدُّونَ الْخَوَاطِرَ ، وَيُتْعِبُونَ الْعُقُولَ وَالْقَرَائِحَ فِي الْمُحَاوَلَاتِ ، وَتَصْحِيحِ الْغَلَطَاتِ ، وَتَكْرَارِ التَّجْرِبَاتِ ، وَيَرْقُبُونَ بِعَيْنِ الْيَقَظَةِ مَظَانَّ[3] الشُّبُهَاتِ ، وَيَلْتَمِسُونَ مَوَاضِعَ الْأَوْهَامِ ، وَمَسَالِكَ الْخَطَإِ وَالضَّلَالِ

(١) مكدودين : متعبين (٢) لتبدو : لتظهر (٣) مظان الشبهات أماكنها .

لِيَتَنَكَّبُوهَا[١] ، أَوْ يَخْلُصُوا نَجِيًّا مِنْ دُرُوبِهَا[٢] الْمُتَشَعِّبَةِ ، وَمَتَاهَاتِهَا[٣] الْبَعِيدَةِ .

* * *

مهمة العظيم

الْعَظِيمُ لاَ يَتَكَلَّفُ لَنَا شَاقًّا مِنَ الْأَمْرِ ، وَلاَ عَسِيراً مِنَ الْمُحَاوَلَةِ ، وَلاَ يَؤُودُهُ[٤] أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ يُزَكِّيَنَا[٥] أَوْ يُعَلِّمَنَا ، لِأَنَّ ذَلِكَ شَأْنُهُ ، وَهُوَ عَلَيْهِ هَيِّنٌ ، وَهَلْ تَحْتَاجُ الْغَادَةُ الْحَسْنَاءُ إِلَى الْكَدِّ وَالْجَهْدِ لِتَبْدُوَ بِحُسْنِهَا عَلَى أَعْيُنِنَا ، وَتَطْبَعَ صُورَتَهَا الْبَاهِرَةَ الْجَمِيلَةَ عَلَى أَبْصَارِنَا ؟ ؟

وَلَكِنْ أَيُّ فَضْلٍ هِيَ مُسْدِيَتُهُ[٦] إِلَيْنَا بِهَذَا ، وَأَيُّ صَنِيعٍ[٧] هِيَ مُؤَدِّيَتُهُ لَنَا ؟ ؟

(١) ليتنكبوها : ليحيدوا ويعرضوا عنها (٢) من دروبها : طرقها
(٣) متاهات : جمع متاهة . وهى المفازة (٤) يؤوده : يثقله
(٥) يزكينا: ينمينا ويطهرنا (٦) مسديته: مؤديته (٧) الصنيع: المعروف

فَإِذَا وَعَيْتَ ذَلِكَ ، فَاعْلَمْ أَنَّ الْعَظِيمَ النَّفْسِ ، الْحَكِيمَ الرُّوحِ ، أَكْثَرُ مِنْ هَذَا الَّذِى تَتَكَلَّفُهُ الْعَادَةُ الْفَاتِنَةُ ، لِتَحْمِلَ صِفَتَهَا إِلَيْنَا ، وَتَجْعَلَ مَزَايَاهَا تَنْتَقِلُ إِلَيْنَا ، وَتُشْعِرَنَا بِسَجَايَاهَا[1] وَخَطَرِهَا وَمَكَانِهَا ، وَمَا لَدَيْهَا ، وَكُلُّ امْرِىءٍ أَفْضَلُ شَىْءٍ لَدَيْهِ أَسْهَلُهُ ، وَأَحْسَنُ مَا فِيهِ أَيْسَرُهُ وَأَبْعَدُهُ مِنَ الْكُلْفَةِ ، وَأَنْآهُ[2] عَنِ الْحَاجَةِ إِلَى الْمُحَاوَلَةِ ، وَمَا لاَ جَهْدَ فِيهِ وَلاَ اصْطِنَاعَ وَسَائِلَ ، وَلاَ اسْتِعَانَةَ بِأَسَالِيبَ — هُوَ الْعَظِيمُ الْأَثَرِ ، الْكَبِيرُ السُّلْطَانِ عَلَى النُّفُوسِ وَالْأَرْوَاحِ وَالْأَذْهَانِ ، وَمَا الْعَظِيمُ إِلاَّ عَظِيمٌ مِنَ الْفِطْرَةِ وَالطَّبِيعَةِ وَالتَّكْوِينِ ، بَلْ إِنَّ الْعَظِيمَ هُوَ الَّذِى —

(١) السجايا جمع سجية : ومعى الطبيعة والخلق (٢) أبعده

لاَ يُذَكِّرُنَا بِغَيْرِهِ ، وَلاَ يُشْعِرُنَا يَوْماً بِالْحَاجَةِ إِلَى سِوَاهُ .

وَلَكِنْ يَنْبَغِى أَنْ يَكُونَ الْعَظِيمُ يَمُتُّ[1] إِلَيْنَا بِصِلَةٍ ، وَيَرْتَبِطُ بِنَا بِقُرْبَةٍ أَوْ لُحْمَةٍ ، وَتَجِدُ حَيَاتُنَا عِنْدَهُ تَأْوِيلاً لِمَعَانِيهَا ، وَتَفْسِيراً لِمَغْزَاهَا ، وَكَشْفاً لِأَسْرَارِهَا ، وَتَعْبِيراً عَنْ غَايَتِهَا وَغَرَضِهَا ، وَلَيْسَ كُلُّ إِنْسَانٍ قَدِيرًا عَلَى أَنْ يُؤَدِّىَ إِلَى النَّاسِ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ ، وَمَا لَدَيْهِ مِنَ الْمَعْرِفَةِ ، وَلَكِنَّ هُنَاكَ أُنَاسًا هُمْ بِشَخْصِيَّاتِهِمْ وَفِعَالِهِمْ ، الْأَجْوِبَةُ عَلَى الْأَسْئِلَةِ الْمُحَيِّرَةِ لَنَا ، وَالْحُلُولُ الْبَادِهَةُ[2] لِلْأَلْغَازِ وَالْمُعَمَّيَاتِ[3]

(١) يمت : ينتسب ويتصل (٢) البادهة : التى لا تحتاج الى تفكير والألغاز جمع لغز : وهو من الكلام ما كان ملتبسا مشكلا (٣) المعميات من الكلام : ما غمض معناه وخفى

الَّتِي تَضِلُّ فِيهَا أَذْهَانُنَا ، وَهُمْ تَفَاسِيرُ الْحَيَاةِ وَشُرُوحُهَا ، وَأَدِلَّتُهَا وَهُدَاتُهَا ، وَقَدْ يَكُونُ فِي النَّاسِ أَفْرَادٌ أَفْذَاذٌ يَلُوحُونَ كَأَنَّهُمُ احْتِمَالَاتٌ حَسَنَةٌ ، أَوْ رَجَاءٌ طَيِّبٌ فِي الْغَدِ ، وَمُمْكِنَاتٌ صَالِحَةٌ ، وَلَكِنَّهُمْ ضُعَفَاءُ الْحَوْلِ بِالنِّسْبَةِ لِأَنْفُسِهِمْ ، وَلِعُصُورِهِمْ وَأَجْيَالِهِمْ ، إِذْ لَعَلَّهُمْ مَلْهَاةُ[١] غَرَائِزَ خَفِيَّةٍ ، وَفُكَاهَةُ قِرَانٍ[٢] لَا تَتَّصِلُ بِالْأَرْضِ وَلَا عَلَاقَةَ لَهَا بِعَالَمِنَا الْمَحْسُوسِ ، فَهُمْ لَا يَسُدُّونَ ثُغُورًا[٣] فِي حَيَاتِنَا ، وَلَا يَتَحَدَّثُونَ عَنْ شُعُورِنَا ، وَلَا يَفُونَ بِحَاجَاتِنَا ، وَإِنَّ هَؤُلَاءِ لَيْسُوا بِالْعُظَمَاءِ الَّذِينَ نُرِيدُهُمْ ، وَإِنَّمَا الْعُظَمَاءُ هُمُ الَّذِينَ

(١) ملهاة غرائز : أى مكانها (٢) قران : أى الكواكب علوية ذات تأثير خاص فى العالم الأرضى (٣) لا يملئون فراغاً

أَدْنَى مَنْ يَكُونُونَ إِلَيْنَا وَهُمْ أَبَدًا مِنَّا قَرِيبٌ ، وَإِنَّا لَنَعْرِفُهُمْ بِمُجَرَّدِ رُؤْيَتِهِمْ ، وَنَتَبَيَّنُهُمْ مِنْ أَوَّلِ نَظْرَةٍ إِلَيْهِمْ ، وَإِنَّهُمْ لَيَجِيئُونَ إِلَيْنَا ، لِأَنَّنَا نَنْتَظِرُ مَجِيئَهُمْ . وَنَتَرَقَّبُ ظُهُورَهُمْ ، فَإِذَا جَاءُوا أَخَذُوا مِنَّا أَمَاكِنَهُمْ ، وَاحْتَلُّوا لَدَيْنَا مَوَاضِعَهُمْ كَأَنَّمَا كَانُوا مِنَّا عَلَى مَوْعِدٍ مَضْرُوبٍ .

إِنَّ كُلَّ مَا هُوَ خَيْرٌ وَصَالِحٌ ، هُوَ كَذَلِكَ كَبِيرُ الْأَثَرِ ، مَحْبُوبٌ مُحْدِثٌ ، خَالِقٌ مُنْشِئٌ ، بَارِزُ الْوُجُودِ . وَهُوَ يَجِدُ مَكَانَهُ ، وَيَفْسَحُ لِمَنْزِلِهِ ، وَيُهَيِّئُ لِمُقَامِهِ . وَيَصْطَنِعُ[1] الْأَعْوَانَ وَالْحُلَفَاءَ ، وَالتُّفَاحَةُ الصَّالِحَةُ السَّلِيمَةُ تُنْبِتُ بُذُوراً ، وَأَمَّا

(١) يصطنع الخ : يتخذهم أنصاراً وعونة .

الْفَاسِدَةُ فَلاَ تُخْرِجُ شَيْئاً ، وَمَتَى كَانَ الْمَرْءُ فِى مَوْضِعِهِ ، كَانَ الطَّيِّبَ الصَّالِحَ ، وَالْخَصِيبَ الْمُمْرِعَ[1] ، وَالسَّاحِرَ الْمِغْنَاطِيسِىَّ ، وَالْغَازِىَ النُّفُوسَ بِقَاهِرِ غَايَتِهِ ، وَعَظِيمِ مَقْصِدِهِ وَبُغْيَتِهِ ، وَإِنَّ النَّهْرَ لَيَصْطَنِعُ ضِفَافَهُ ، وَالْجَدْوَلَ الْفَيَّاضَ لَيُوجِدُ مَجْرَاهُ وَعِدْوَتَيْهِ[1] ، وَكَذَلِكَ كُلُّ فِكْرَةٍ صَالِحَةٍ طَبِيعِيَّةٍ تَخْلُقُ مَجَارِيَهَا وَأَقْنِيَتَهَا ، وَتُرَعَهَا وَجَدَاوِلَهَا ، وَهِى الْمُرَحَّبُ بِهَا ، الْمَفْرُوحُ بِمَجِيئِهَا ، الْمُعْتَزُّ مَتْجَرُهَا ، وَإِنَّ لَهَا لَحَصَاداً حَسَناً ، وَمَعَاهِدَ طَيِّبَةً ، وَهِىَ الْأَسْلِحَةُ الَّتِى يُذَادُ[2] بِهَا ، وَهِىَ الْمُوجِدَةُ[3] الْمُفَسِّرِينَ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ بَيَانَهَا وَشَرْحَهَا ، وَالذَّادَةَ الْمُكَافِحِينَ عَنْهَا وَمِنْ أَجْلِهَا ، كَمَا

(١) الكثير العشب ناضره (٢) عدوتيه : شاطئيه (٣) يذاد بها : يدافع بها (٤) الموجدة : المحدثة والمنشئة .

أَنَّ الرَّسَّامَ الْمَطْبُوعَ[1]، وَالْمُصَوِّرَ الْحَاذِقَ، إِنَّمَا يَتَّخِذُ الْكَوْكَبَ الْأَرْضِيَّ كُلَّهُ قَاعِدَةً لِتَمَاثِيلِهِ، وَمَسْنَداً لِتَصْوِيرِهِ، وَسَبِيلاً إِلَى إِخْرَاجِ أَحْسَنِ تَهَاوِيلِهِ وَصُوَرِهِ، أَمَّا الْأَفَّاقُ الْجَوَّالَةُ الْمُشَعْوِذُ، فَلَا يَجِدُ بَعْدَ السِّنِينَ الطِّوَالِ فِي ذَرْعِ الْأَرْضِ، وَالتَّقَلُّبِ فِي الدُّنْيَا وَالِاحْتِيَالِ لِلْعَيْشِ أَعْجَبَ الْحِيَلِ، غَيْرَ نَعْلِهِ، وَقَدْ بَلِيَ، وَحِذَاءَهُ وَقَدْ خَلَقَ، وَأَصْبَحَ يَطْلُبُ الْخَاصِفِينَ[2]، وَيَسْأَلُ الْأَسَاكِفَةَ!

* * *

نظرنا الى العظماء

وَقَدْ أَلِفْنَا فِي أَحَادِيثِنَا وَسَمَرِنَا وَمَأْلُوفِ كَلَامِنَا، أَنْ نَعْتَبِرَ نَاحِيَتَيْنِ لِفَضْلِ الْعُظَمَاءِ، وَوَجْهَيْنِ مِنْ

(١) المطبوع: الذى لا يتكلف. (٢) الخاصفين: جمع خاصف: وهو الذى يطبق النعل على النعل ويخرزها بالمخصف وهو مخرز الاسكاف.

أَوْجُهِ النَّفْعِ ، نَسْتَمِدُّهُ مِنْ أَخْيَارِنَا ، وَنَوَابِغِنَا وَكِبَارِنَا ، وَهُمَا الْفَائِدَةُ الْأَدَبِيَّةُ أَوِ الْمَعْنَوِيَّةُ ، وَالْفَائِدَةُ الْمَحْسَّةُ أَوِ الْمَادِّيَّةُ ، وَإِنَّ النَّفْعَ الْمُبَاشِرَ لَحَرِيٌّ[١] بِبَعْثِ الْإِيمَانِ سَرِيعاً فِي نُفُوسِنَا بِالْعُظَمَاءِ وَأَفْضَالِهِمْ ، إِذَا مَا كَانَ نَفْعاً لَنَا فِي الصِّحَّةِ أَوِ الشَّبَابِ ، أَوْ فِي الْحَوَاسِّ وَالشَّهَوَاتِ ، أَوْ فِي الطِّبِّ وَالسِّحْرِ وَالتَّنْجِيمِ ، أَوِ النُّبُوَّةِ وَالْكِهَانَةِ ، وَعِلْمِ الْغَيْبِ وَالْغَدِ الْمَجْهُولِ . وَإِنَّ الصَّبِيَّ الْحَدَثَ[٢] لَيَعْتَقِدُ أَنَّ فِي النَّاسِ مَنْ يَبِيعُهُ الْحِكْمَةَ[٣] ، وَيُلَقِّنُهُ الْمَعْرِفَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ[٤] . وَإِنَّ الْكَنَائِسَ — أَيِ الْأَدْيَانَ — لَتَعْتَقِدُ أَنَّ الْفَضْلَ

(١) لحرى : لجدير . (٢) الحدث : الناشىء الصغير .
(٣) الحكمة : الهداية الى الصواب (٤) فصل الخطاب : الفصل بين الحق والباطل .

يُعَارُ[1] ، وَالْخَيْرَ يُعْدِى ، وَالْمَوَاهِبَ تُكْتَسَبُ ، وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ هُوَ كَمَا قُلْتُ : النَّبَاتُ الطَّيِّبُ الَّذِى يَنْمُو مِنْ دَاخِلِهِ ، وَيَزْكُو مِنْ جَوْفِهِ ، وَيَطِيبُ وَيَتَرَعْرَعُ مِنْ ذَاتِهِ وَأَعْمَاقِهِ ، وَمَا التَّرْبِيَةُ وَالتَّعْلِيمُ وَالتَّأْدِيبُ غَيْرُ وَسَائِلَ لِكَشْفِ طَبِيعَتِهِ ، وَنَشْرِ أَطْوَاءِ[2] خَلِيقَتِهِ ، وَبَسْطِ مَحْجُوبِ دَخِيلَتِهِ . وَإِنَّ الْعَوْنَ الَّذِى نَسْتَمِدُّهُ مِنَ الْغَيْرِ ، هُوَ فِى الْحَقِّ آلِىٌّ ، وَفِى الْوَاقِعِ مِيكَانِيكِىٌّ ، إِذَا هُوَ قُورِنَ بِمَا تَفْعَلُهُ الطَّبِيعَةُ ذَاتُهَا فِى كَشْفِ مَسْتُورِنَا ، وَإِبْرَازِ خَفَايَا طِبَاعِنَا ، وَإِظْهَارِ مُحْتَجَبِ اسْتِعْدَادِنَا . وَمَا يُكْتَسَبُ مِنَ الْمَعْرِفَةِ حَسَنٌ مُمْتِعٌ بَاقِى الْأَثَرِ ، وَالْأَخْلَاقُ الطَّيِّبَةُ هِىَ أَبَدًا

(١) يعار : يملك على سبيل العارية . (٢) ونشر أطواء الخ : أى ما كمن من أخلاقه وغرائزه .

مَرْكَزِيَّةٌ[١]، تَمْتَدُّ مِنَ النَّفْسِ إِلَى الْخَارِجِ، وَتَنْبَعِثُ[٢] مِنَ الرُّوحِ إِلَى مَا حَوْلَهَا، كَالْخَطِّ الْمَأْخُوذِ مِنْ نُقْطَةِ الدَّائِرَةِ. وَالْإِثْمُ[٣] وَالْفُسُوقُ وَالْعِصْيَانُ، هِيَ الْمُنَافِيَةُ لِشَرِيعَةِ الْكَوْنِ، وَنِظَامِ الْوُجُودِ، وَمَا خِدْمَةُ غَيْرِنَا إِلَّا خِدْمَةُ أَنْفُسِنَا فِي الْحَقِيقَةِ وَالْوَاقِعِ. وَإِذَا لَمْ يَتَّصِلِ الْإِنْسَانُ بِالنَّاسِ، وَالْبَشَرِيُّ بِالْبَشَرِ، فَهَلْ يَتَّصِلُ بِالسَّمٰوَاتِ؟ وَيَرْتَبِطُ بِالْعَوَالِمِ؟ وَيُقِيمُ الْعَلَاقَاتِ مَعَ الْآفَاقِ وَالْكَوَاكِبِ وَطَبَقَاتِ الْفَضَاءِ؟؟

وَلَكِنَّ الْخِدْمَةَ غَيْرَ الْمُبَاشِرَةِ، أَوِ الْفَائِدَةَ غَيْرَ الْمُحَسَّةِ، هِيَ الَّتِي تُنْتَقَصُ أَبَدًا مِنْ قِيمَتِهَا، أَوْ يُصَغِّرُ

(١) مركزية نسبة إلى المركز: وهو وسط الدائرة. والمراد أنها فطرية خلقية. (٢) تنبعث: ترسل وتنفرق. (٣) الاثم: ما استحق فاعله العقاب عليه.

مِنْ شَأْنِهَا وَفَضْلِهَا ، وَإِنْ كَانَ لِلنَّاسِ صِفَةُ النِّيَابَةِ عَنْ سِوَاهُمْ ، وَفِي الطَّبِيعَةِ قِيَامُ الْمِثْلِ عَنْ نَظِيرِهِ . وَقَدْ رَأَى « بِهْمِنْ » و « سويدينبرج » أَنَّ لِلْأَشْيَاءِ أَمْثِلَةً وَنَمَاذِجَ تَدُلُّ عَلَيْهَا ، وَتَنِمُّ عَنْ صِفَتِهَا ، كَمَا أَنَّ لِلنَّاسِ أَفْرَادًا هُمُ النُّوَّابُ عَنِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْمُمَثِّلُونَ وَالْعَنَاوِينُ .

* * *

المخترعون والطبيعة

وَكَمَا تُحِيلُ النَّبَاتَاتُ الْمَعَادِنَ إِلَى طَعَامٍ لِلْحَيَوَانِ ، كَذَلِكَ يُحِيلُ كُلُّ رَجُلٍ مِنَّا بَعْضَ الْمَوَادِّ الْخَالِصَةِ فِي الطَّبِيعَةِ ، إِلَى مَا يُفِيدُ الْبَشَرَ ، وَيُجْدِي عَلَيْهِمْ وَيَنْفَعُهُمْ ، وَمُخْتَرِعُو النَّارِ ، وَالْكَهْرُبَاءِ ، وَالْمَغْنَاطِيسِيَّةِ ، وَالْحَدِيدِ ، وَالرَّصَاصِ ، وَالزُّجَاجِ ، وَالتِّيلِ ، وَالْحَرِيرِ ،

وَالْقُطْنِ ، وَصُنَّاعِ الْعُدَدِ وَالْأَدَوَاتِ ، وَمُحْدِثُو نَظَرِيَّاتِ الْكَسْرِ الْأَعْشَارِيِّ ، وَالْهَنْدَسَةِ وَالْحِسَابِ ، وَالْمُعَادَلَاتِ الْجَبْرِيَّةِ ، وَالْمُوسِيقِيُّونَ وَعُلَمَاءُ الْأَنْغَامِ ، وَالْأَصْوَاتِ وَالْأَلْحَانِ كُلُّ أُولَئِكَ مِنْ نَوَاحِيهِمُ الْمُخْتَلِفَةِ ، وَوُجُوهِهِمُ الْمُتَعَدِّدَةِ ، مَهَّادُو[1] السُّبُلِ ، وَكَاشِفُو الطَّرِيقِ وَسْطَ مَتَاهَاتِ الْحَيَاةِ ، وَخِلَالَ مَجَاهِلِ[2] الدُّنْيَا وَمَسَالِكِهَا الْمُضَلِّلَةِ ، إِذْ لِكُلِّ إِنْسَانٍ نُزُوعٌ[3] خَفِيٌّ يَرْبِطُهُ بِبَعْضِ نَوَاحِي الطَّبِيعَةِ ، لِيَكُونَ هُوَ عَامِلَهَا ، وَالْمُفَسِّرَ لِعَمَلِهَا ، وَالشَّارِحَ لِعَجَائِبِهَا ، وَأَسْرَارِهَا ، فَكَانَ مِنْ ذَلِكَ « لينياسُ »

(١) مهادو الخ : كثيرو التذليل والتسهيل للطرق (٢) مجاهل . جمع مجهل : وهو المفازة التى لا أعلام بها ليهتدى السائر فيها .
(٣) نزوع : ميل

لِلنَّبَاتَاتِ ، « وهيوبُر » لِلنَّحْلِ « وفزايزُ » لِحَشِيشَةِ الْبَحْرِ ، « وَفان مونزُ » لِلْكُمَّثْرَى وَالْإِجَّاصِ[1] و « والتون » لِلذَّرَّةِ[2] وَالْجَوْهَرِ الْفَرْدِ[3] . « وإقليدِسُ » لِلْخُطُوطِ . « وتيوطن » لِلْمَدِّ وَالْجَزْرِ .

* * *

الأنسان والطبيعة

الْإِنْسَانُ مَرْكَزُ الطَّبِيعَةِ ، يُرْسِلُ خُيُوطًا مِنْهَا إِلَى كُلِّ شَيْءٍ ، سَائِلٍ وَجَامِدٍ ، مَادِّيٍّ[4] وَعُنْصُرِيٍّ[5] ، مَحْسُوسٍ وَغَيْرِ مُحَسٍّ ، وَإِنَّ الْأَرْضَ لَتَدُورُ ، وَإِنَّ كُلَّ حَجَرٍ وَلَبِنَةٍ ، لَيَأْتِي إِلَى مَرْكَزِ الدَّائِرَةِ ، وَكَذَلِكَ

(١) التفاح أو نوع منه (٢) الذرة واحدة الذر : وهو صغار النمل ، و يقال لكل جزء من أجزاء الهباء التى تنبث فى الهواء ذرة .
(٣) الجوهر الفرد : هو الجزء الذى لا يتجزأ . أى لا يقبل الانقسام .
(٤) المادى نسبة إلى المادة : وهى التى يحصل الشىء معها بالقوة .
(٥) العنصرى نسبة إلى العنصر : وهو الجسم البسيط .

كُلُّ عُضْوٍ ، وَكُلُّ حِمْضٍ ، وَكُلُّ تَبلُورٍ وَكُلُّ حَبَّةٍ مِنْ تُرَابٍ ، أَوْ نُقْطَةٍ مِنْ غُبَارٍ ، ذَاتُ صِلَةٍ بِالْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ ، وَإِنَّهَا لَتَنْتَظِرُ طَوِيلاً ، وَتَرْتَقِبُ مَلِيًّا ، وَلَكِنَّ وُرُودَهَا يَأْتِي لاَ مَحَالَةَ ، وَحِينَهَا يَحِينُ ، مَا فِي ذَلِكَ شَكٌّ وَلاَ رَيْبٌ ، وَلِكُلِّ نَبَاتٍ طُفَيْلِيَّاتُهُ[1] ، وَلِكُلِّ مَخْلُوقٍ فِي الدُّنَى[2] عَشِقُهُ وَشَاعِرُهُ ، وَقَدْ أَنْصَفَتِ[3] الطَّبِيعَةُ الْبُخَارَ وَالْحَدِيدَ ، وَالْخَشَبَ وَالْفَحْمَ ، وَالْحَجَرَ وَالْيُودِينَ ، وَالْحِنْطَةَ وَالْقُطْنَ ، وَلَكِنْ مَا أَقَلَّ الْمَوَادَّ الَّتِي يَنْتَفِعُ بِهَا أَهْلُ الْفُنُونِ إِلَى الْيَوْمِ ، بِجَانِبِ مَا لَمْ يُسْتَخْدَمْ بَعْدُ ، مِنْ مَوَادِّ الطَّبِيعَةِ ، وَمَا تَحْوِي مِنْ وَسَائِلَ ، وَأَدَوَاتٍ وَأَشْيَاءَ ؟ ! وَإِنَّ كَثِيراً مِنْ

(١) ما يتغذى على حساب غيره من نباب آخر كالهالوك فى القمح وغيره
(٢) فى الدنى : فى الدنيا (٣) أى أظهرت ما كان كامناً فيها من الآثار التى استخدمت فى سعادة البشرية

ذَلِكَ لَا يَزَالُ خَفِيًّا ، وَإِنَّ مِنْهُ لَمَا فَتِئَ[1] مُحْتَجِبًا لَمْ يَظْهَرْ بَعْدُ ، وَلَمْ يَنْكَشِفْ لِلْإِنْسَانِ ! وَكَأَنَّمَا كُلُّ شَيْءٍ كَانَ يَنْتَظِرُ دَوْرَهُ ، وَيَرْتَقِبُ ارْتِقَابَ الْأَمِيرَةِ الْحَسْنَاءِ ، فِي نَوَادِرِ الْجَانِّ ، وَأَسَاطِيرِ الْمَرَدَةِ ، وَالْأَرْوَاحِ ، وَأَقَاصِيصِ الْأَشْبَاحِ ، حَتَّى يَأْتِيَ الْإِنْسَانُ الْمُنْقِذُ ، وَيَقْدُمَ الْبَطَلُ الْكَاشِفُ ! وَكُلُّ شَيْءٍ تُرْفَعُ الْحُجُبُ عَنْهُ ، يَنْبَعِثُ خَارِجًا مِنْ خَبَايَاهُ ، وَأَلْفَافِهِ وَسُدُولِهِ ، لِيَظْهَرَ لِلْإِنْسَانِ ، وَيَتَقَدَّمَ يَطْلُبُ الْانْتِفَاعَ بِهِ ، وَالْعَمَلَ عَلَى اسْتِخْدَامِهِ .

* * *

المنافع الأولية

وَإِذَا نَحْنُ حَصَرْنَا وَجْهَ الِاسْتِفَادَةِ[2] فِي الْمَنَافِعِ

(١) لما فتىء الخ : أى لا يزال مستوراً (٢) الاستفادة : طلب الفائدة

الْأَوَّلِيَّةِ رَأَيْنَا جَمَالًا رَزِينًا[١] رَائِعًا ، يَتَّصِلُ بِمَمْلَكَةِ النَّبَاتِ وَالْمَعَادِنِ ، وَهِيَ الْمَمْلَكَةُ الَّتِي تَلُوحُ[٢] فِي أَرْفَعِ الظُّرُوفِ فِتْنَةَ[٣] الطَّبِيعَةِ ، وَسِحْرَهَا الرَّهِيبِ ، إِذْ مَا أَسْطَعَ بَرِيقَ الرُّمْحِ الْعَسَّالِ[٤] ، وَالسَّيْفِ الْمَصْقُولِ[٥] ، وَالْبَتَّارِ[٦] الْحَدِيدِ النَّصْلِ ، وَمَا أَجَلَّ فِعْلَ الْجَاذِبِيَّةِ وَالطَّبِيعَةِ ، وَبِنَاءَ الزَّوَايَا الْهَنْدَسِيَّةِ ، وَإِنَّ الضَّوْءَ وَالظُّلْمَةَ ، وَالْحَرَارَةَ وَالْبُرُودَةَ ، وَالْجُوعَ وَالشِّبَعَ ، وَالْحُلْوَ وَالْمُرَّ ، وَالْجَامِدَ وَالْمَائِعَ ، وَالْبُخَارَ وَالْغَازَ . . . كُلُّ أُولَئِكَ تُحِيطُ بِنَا فِي لَذَّاتٍ حُلْوَةٍ ، وَمَسَرَّاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ ، وَمُتَعٍ حِسَانٍ . وَهِيَ

(١) رزينا رائعاً : ثابتا عظيماً هائلا (٢) تلوح : تظهر
(٣) منصوب على الحال (٤) العسال : الذى يهتز ليناً
(٥) المفصول : المجلو (٦) البتار الكثير القطع .

فِي تَنَازُعِهَا الْمَحْبُوبَ ، وَتَخَاصُمِهَا الْمَقْبُولَ ، وَتَضَادِّهَا الطَّبِيعِيِّ ، مَلْهَاةُ الْحَيَاةِ وَنَعِيمُهَا ، وَمَسَرَّةُ الْعَيْشِ وَمَبَاهِجُهُ.

وَلَكِنَّا : نُرِيدُ أَيْضًا الْمَنَافِعَ الْعُلْيَا ، وَالضُّرُوبَ السَّامِيَةَ مِنَ الِاسْتِفَادَاتِ ، وَلَا يَزَالُ الْعِلْمُ الْحَدِيثُ ، بِحَاجَةٍ إِلَى شَيْءٍ كَثِيرٍ ، حَتَّى يُصْبِحَ إِنْسَانِيًّا ، وَيَسْتَحِيلَ بَشَرِيًّا ، فَإِنَّ جَدْوَلَ اللُّوغَارِيتْمَاتِ شَيْءٌ ، وَلَكِنَّ أَثَرَهُ فِي عُلُومِ النَّبَاتِ ، وَالْمُوسِيقَى وَالْمَرْئِيَّاتِ ، وَالْهَنْدَسَةِ وَالْبِنَاءِ ، شَيْءٌ آخَرُ ، وَإِنَّ هَذِهِ جَمِيعًا ، لَتَمْتَزِجُ بِالْحَيَاةِ ، إِذَا هِيَ اتَّصَلَتْ بِالْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ ، وَالْإِرَادَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، وَحِينَئِذٍ تَعُودُ فَتَبْدُو بِكُلِّ مَنَافِعِهَا ، وَخَوَاصِّهَا وَمَزَايَاهَا ، فِي الْحَدِيثِ ، وَالْخُلُقِ ، وَالسِّيَاسَةِ.

وَلَكِنَّ ذَلِكَ يَأْتِي فِيمَا بَعْدُ ، وَإِنَّمَا نَحْنُ

نَتَحَدَّثُ عَنْهَا مِنْ حَيْثُ مَعْرِفَتُنَا بِهَا ، فِى آفَاقِهَا ، وَمُضْطَرَبِهَا[١] وَدَائِرَتِهَا ، وَالْوَجْهِ الَّذِى تَفْتِنُنَا مِنْهُ ، وَالنَّاحِيَةِ الَّتِى تَجْتَذِبُ بِهَا عَقْلَ الْعَبْقَرِىِّ ، الَّذِى يَتَوَفَّرُ عَلَى شَىْءٍ مِنْهَا بِدَرْسِهِ وَبِبَحْثِهِ ، وَيَتَقَصَّاهُ[٢] طِيلَةَ حَيَاتِهِ ، حَتَّى لَيَنْدَمِجُ فِيهِ بِكُلِّيَّتِهِ ، وَيُصْبِحُ الْكَاشِفُ وَالْمَكْشُوفُ سَوَاءً .

* * *

النواحى الروحية للعادة

إِنَّ لِكُلِّ شَىْءٍ مَادِّىٍّ جَانِباً سُمُوِّيًّا[٣] ، وَلَهُ تَحَوُّلُهُ عَنْ طَرِيقِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَانْتِقَالُهُ إِلَى الدَّائِرَةِ الرُّوحِيَّةِ ، الَّتِى يَعْمَلُ فِيهَا ، وَيَبْدُو ضِمْنَهَا ، وَفِى أُفُقِهَا الْمُنَاسِبِ لَهَا ، ثَابِتاً بَاقِيَاً ، خَالِياً لَا يَفْنَى ، وَلَا يَنْعَدِمُ ،

(١) ومضطربها : مكان اضطرابها وتحركها (٢) يتقصاه : يتتبعه ويتفقده (٣) نسبة إلى السمو وهو العلو

كَكلٍّ الْأَشْيَاءِ ، وَكَافَّةِ مَظَاهِرِ الْمَادَّةِ ، وَإِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ ، وَإِلَى هَـذَا التَّحَوُّلِ ، وَإِلَى هَذَا الِانْتِقَالِ ، تَصْعَدُ الْأَشْيَاءُ جَمِيعاً ، وَتَسْمُو كَافَّةً ، فِي غَيْرِ انْقِطَاعٍ ، بَلْ بِاسْتِمْرَارٍ دَائِمٍ ، لَا يَكُفُّ[1] وَلَا يَفْتُرُ ، أَلَمْ تَرَ إِلَى الْأَبْخِرَةِ كَيْفَ تَتَجَمَّعُ ، مُصْعِدَةً[2] فِي جَوِّ السَّمَاءِ ، مُسْتَحِيلَةً وَدْقاً[3] صَيِّباً ، وَإِلَى الْمُرَكَّبِ الْكِيمَائِيِّ ، أَوِ الْغِذَاءِ ، كَيْفَ يَصِلُ إِلَى النَّبَاتِ فَيَنْمُو وَيَزْكُو ، وَإِلَى الْحَيَوَانِ فَيَدِبُّ وَيَمْشِي ، وَإِلَى الْإِنْسَانِ فَيُفَكِّرُ وَيَتَأَمَّلُ ؟ ؟

وَلَـكِنْ أَلَيْسَتْ الدَّائِرَةُ الِانْتِخَابِيَّةُ ، هِيَ الَّتِي تُقَرِّرُ نَائِبَهَا ، وَتُعَيِّنُ فِي النَّدْوَةِ مُمَثِّلَهَا ، وَلَـكِنَّهُ

(١) لايكف : لا يمتنع . ولا يفتر : لا يتوانى . (٢) مصعدة : أى صاعدة . (٣) الودق : المطر . والصيب : الكثير .

لَيْسَ بِنَائِبٍ وَلاَ مُمَثِّلٍ لَهَا فَحَسْبُ ، وَإِنَّمَا هُوَ شَرِيكٌ مَعَهَا ، وَمُقَاسِمٌ لَهَا ، وَمُشَاطِرٌ فِى ارْتِبَاطِهِ بِهَا ، وَلَيْسَ يَعْرِفُ الْمِثْلَ غَيْرُ الْمِثْلِ ، وَلاَ يَفْهَمُ الشَّبِيهَ غَيْرُ الشَّبِيهِ ، وَلاَ النَّظِيرَ إِلاَّ النَّظِيرُ ، وَمَا يَعْرِفُ الْمُمَثِّلُ أَوِ النَّائِبُ عَنْ قَوْمِهِ أَمْرَهُمْ ، إِلاَّ لِأَنَّهُ مِنْهُمْ ، وَوَاحِدٌ مِنْ آحَادِهِمْ ، وَشَرِيكٌ فِى شُعُورِهِمْ ، فَقَدْ خَرَجَ مِنَ الطَّبِيعَةِ أَوْ مِنْ كَوْنِهِ جُزْءًا مِنْ نِيَابَتِهِ ، وَشَطْرًا مِنْ كِيَانِ تَمْثِيلِهِ ، كَمَا يَعْرِفُ الْكُلُورِينُ الْحَىُّ ، خَوَاصَّ الْكُلُورِينِ عَامَّةً ، وَكَمَا يَفْهَمُ الزَّنْكُ الْحَىُّ ، كُلَّ مَعَانِى الزَّنْكِ وَمَزَايَاهُ ، وَإِنَّ خَوَاصَّ نَوْعِهِ ، هِىَ الَّتِى تُصَرِّفُهُ وَتُقَرِّرُ سَيْرَ حَيَاتِهِ ، وَتُعَيِّنُ وَظَائِفَهُ ، وَوُجُوهَ الِانْتِفَاعِ بِهِ ، وَإِنَّهُ لَيَنْشُرُ مَطْوِىَّ

مَزَايَاهَا ، وَمَجْهُولَ خَوَاصِّهَا ، لِأَنَّهَا هِيَ الَّتِي رُكِّبَ مِنْهَا ، وَتَأَلَّفَ مِنْ مَجْمُوعِهَا ، وَاتِّحَادِهَا .

* * *

أصل الانسان

خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ تُرَابٍ ، فَهُوَ لَا يَنْسَى أَصْلَهُ ، وَكُلُّ مَا لَا يَزَالُ جَامِدًا خَالِيًا مِنَ الْحَيَاةِ ، سَيَتَكَلَّمُ يَوْمًا ، وَيَعْقِلُ وَيُفَكِّرُ ، وَسَيَظْهَرُ الْمَسْتُورُ مِنَ الطَّبِيعَةِ يَوْمًا ، فَيَتَحَدَّثُ عَنْ قِصَّتِهِ ، وَيُفْشِي سِرَّهُ وَخَبِيئَتَهُ ، وَيُعْلِنُ مَطَاوِيَ[1] مَزَايَاهُ وَصِفَاتِهِ ، بَلْ هَلْ أَقُولُ : إِنَّ جِبَالَ الْيَشَبِ[2]، سَتَتَحَوَّلُ يَوْمًا ، فَتُكَوِّنُ عَدَدًا لَا يُحْصَى مِنَ الْمُتَحَدِّثِينَ عَنْهَا ، وَالْعُلَمَاءِ الْكَاشِفِينَ لِأَسْرَارِهَا ؟ وَهَلْ أَقُولُ : إِنَّ

(١) مطاوى : خبايا وخفايا خواصه ومميزاته (٢) ويسمى اليشم أيضاً : حجر قريب من الزبرجد لكنه أصفى منه — فارسى

الْمَعْمَلَ الْجَوِّيَّ وَتَحَالِيلَهُ ، وَأَسْرَارَ كِيمْيَائِهِ ، سَتُخْرِجُ لَنَا عَلَى الزَّمَنِ كُشَّافاً جُدُداً ، وَبَحَّاثِينَ آخَرِينَ ، وَكِيمْيَائِيِّينَ لاَ انْقِطَاعَ لِمَوَاكِبِهِمْ ، فِي سَيْرِ الدَّهْرِ وَالسِّنِينَ ؟ ؟ .

كَذَلِكَ نَجْلِسُ بِجَانِبِ الْمَوْقِدَةِ ، وَنُمْسِكُ بِقُطْبَيِ الْأَرْضِ ، وَهَذِهِ الْقُدْرَةُ الْعَامَّةُ ، أَوْ هَذَا الْحُضُورُ الشَّامِلُ لِلْحَيَاةِ ، الْغَامِرُ الْعَالَمَ مِنَّا نَحْنُ بَنِي الدُّنْيَا ، لَيْسَ إِلاَّ تَخْيِيلاً ، وَتَشْبِيهاً وَتَمْثِيلاً ، وَمِنْ هُنَا مَوْضِعُ قُصُورِنَا ، وَمَحَلُّ عَجْزِنَا وَبَلاَهَتِنَا ، فَإِنَّمَا نَحْنُ بِحَاجَةٍ إِلَى أَلْفِ رَأْسٍ ، بَلْ لَيْتَ لَنَا أَلْفَ بَدَنٍ ، وَأَلْفَ عَيْنٍ ، وَأَلْفَ هَيْكَلٍ[1] ، حَتَّى

(١) أى جثمان وجسم

نَسْتَطِيعَ أَنْ نَحْتَفِلَ بِجِبَالِ الدُّنْيَا ، وَرَوْعَةِ[١] الطَّبِيعَةِ ، فِي حَيْثُمَا[٢] تَكُونُ ، وَأَيًّا مَا تَظْهَرُ ، وَفِي أَيِّ صُورَةٍ تَتَمَثَّلُ ؟

وَلَكِنْ هَلْ هَذَا فِي الْحَقِّ خَيَالٌ مُجَرَّدٌ ، وَمَحْضُ تَوَهُّمٍ وَتَصَوُّرٍ ؟ ؟ نَحْنُ - وَايْمُ اللهِ - إِنَّمَا نَتَكَاثَرُ بِالنُّوَّابِ عَنَّا ، وَنَزْدَادُ بِمَنْ نَتَمَثَّلُ فِيهِمْ ، وَنَقْتَبِسُ مِنْ عَمَلِهِمْ ، وَنَنْتَفِعُ بِثَمَرَاتِ جُهْدِهِمْ ، بَلْ كُلُّ سَفِينَةٍ تَذْهَبُ إِلَى أَمْرِيكَا ، إِنَّمَا تَأْخُذُ طَرِيقَهَا مِنْ خَرِيطَةِ « كولوبس » ، وَكُلُّ قِصَّةٍ إِنْ هِيَ إِلَّا مَدِينَةُ « هُومِيرُوسَ » ، وَكُلُّ نَجَّارٍ يَمْسَحُ الْخَشَبَ بِفَارَتِهِ ،

(١) روعة الطبيعة : جمالها . (٢) فى حيثما الخ : أى فى أى مكان تكون . وفى أى موضع

إِنَّمَا هوَ مُسْتَعِيرٌ عَبْقَرِيَّةَ[١] مُخْتَرِعٍ مَجْهُولٍ ، وَصَانِعٍ ذَهَبَ وَلَمْ يُذْكَرْ .

وَإِنَّ الْحَيَاةَ لَمُكْتَنِفَةٌ[٢] مِنْ جَمِيعِ أَقْطَارِهَا ، بِفَلَكٍ مِنَ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ ، هِيَ مِنْ فَضْلِ رِجَالٍ هَلَكُوا وَمَاتُوا ، وَانْتَهَوْا لِيَضَعُوا نُورًا إِلَى أَنْوَارِ سَمَائِنَا ، وَضِيَاءً إِلَى ضِيَاءِ أُفُقِنَا ، وَكُلُّ مُهَنْدِسٍ ، وَسِمْسَارٍ ، وَقَاضٍ ، وَطَبِيبٍ ، وَفَيْلَسُوفٍ ، وَفَقِيهٍ ، بَلْ كُلُّ إِنْسَانٍ أُوتِيَ حَظًّا مِنَ الْعِلْمِ ، إِنْ هُوَ إِلَّا مُسَاهِمٌ فِي صُنْعِ خَرِيطَةِ حَيَاتِنَا ، بِجَمِيعِ أَبْعَادِهَا ، وَخُطُوطِ طُولِهَا وَعَرْضِهَا ، وَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْمُعَبِّدِينَ[٣] لِطَرِيقِ الْحَيَاةِ ، وَالسَّالِكِينَ بِنَا مُخْتَلِفَ الْآفَاقِ ،

(١) العبقرية : النبوغ (٢) لمكتنفة : لمحاطة (٣) المعبدين : الممهدين

هُمُ الَّذِينَ يُغْنُونَ حَيَاتَنَا ، وَيَمْلَأُونَ عَيْشَنَا مَبَاهِجَ ، وَأَطَايِبَ وَمَنَافِعَ ، وَإِنَّا لَمُطَالَبُونَ بِمَدِّ نِطَاقِ الْحَيَاةِ ، وَتَوْسِيعِ حُدُودِهَا ، وَتَكْثِيرِ عَلَاقَاتِهَا وَصِلَاتِهَا ، وَإِنَّا لَنَكْسِبُ بِالْكَشْفِ مِنْ خَاصِّيَّةٍ جَدِيدَةٍ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ الْقَدِيمَةِ ، عِدْلَ[1] مَا نَكْسِبُ مِنْ كَشْفِ كَوْكَبٍ جَدِيدٍ فِي السَّمَاءِ .

وَلَكِنَّا فِي الْوَاقِعِ ، قَلِيلًا مَا نَشْعُرُ بِقِيمَةِ هَذِهِ الْمَنَافِعِ الْمَادِّيَّةِ الَّتِي نَتَلَقَّاهَا ، وَنَادِراً مَا نُحِسُّ بِأَقْدَارِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ، الشَّبِيهَةِ بِالْمَادِّيَّةِ الَّتِي نُمْنَحُهَا ، وَكَانَ أَوْلَى بِنَا أَلَّا نَكُونَ مِعَداً[2] فَحَسْبُ ، وَبُطُوناً ، وَلَوْ صَعِدْنَا دَرَجَةً وَاحِدَةً فَوْقَ هَذَا ، لَكُنَّا خَيْراً مِمَّا

(١) العدل : المثل والنظير . (٢) معداً : جمع معدة وهى معروفة .

نَحْنُ إِحْسَاسًا ، وَأَرْقَى مِمَّا نَحْنُ شُعُوراً ، وَإِنَّ النَّشَاطَ لَشَدِيدُ الْعَدْوَى ، فَلَوْ نَظَرْنَا إِلَى مَا يَنْظُرُ غَيْرُنَا إِلَيْهِ ، وَتَطَلَّعْنَا إِلَى مَا يَتَطَلَّعُ سِوَانَا نَحْوَهُ ، وَتَحَدَّثْنَا وَانْدَمَجْنَا فِيمَا يَنْدَمِجُونَ فِيهِ ، لَاسْتَطَعْنَا أَنْ نُدْرِكَ الْفِتْنَةَ[1] الَّتِي أَدْرَكَتْهُمْ ، وَالْجَمَالَ الَّذِي اسْتَبَاهُمْ[2] ، وَالْجَلَالَ الَّذِي أَخَذَ بِأَعْيُنِهِمْ وَحَوَاسِّهِمْ ، وَقَدْ قَالَ نَابُولْيُونُ : يَنْبَغِي أَلَّا تُكْثِرُوا مِنْ مُدَاوَمَةِ الْقِتَالِ مَعَ عَدُوٍّ وَاحِدٍ بِعَيْنِهِ ، وَإِلَّا عَلَّمْتُمُوهُ كُلَّ فُنُونِ قِتَالِكُمْ ، وَلَقَّنْتُمُوهُ سَائِرَ أَسَالِيبِ حَرْبِكُمْ .

وَلَوْ أَكْثَرْنَا الْحَدِيثَ مَعَ رَجُلٍ قَوِيِّ الْعَقْلِ ، خَصِيبِ[3] الْفِكْرِ ، لَاكْتَسَبْنَا مِنْهُ سَرِيعاً ، النُّزُوعَ

(١) المراد بالفتنة : ما يفتتن به (٢) استباهم : بهرهم وسلب عقولهم .
(٣) خصيب الفكر : جيده

إِلَى النَّظَرِ إِلَى الْأَشْيَاءِ بِمِثْلِ نَظَرِهِ ، بَلْ لَأَمْكَنَنَا أَنْ نَسْتَبِقَ تَفْكِيرَهُ ، وَنَعْرِفَ وَجْهَ نَظَرِهِ ، قَبْلَ أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ نَاظِرُهُ .

* * *

تأثر الفكر والعاطفة

وَأَكْبَرُ مَا يَنْفَعُ النَّاسَ مِنَ النَّاسِ مَا اسْتَمَدُّوهُ[1] مِنْ طَرِيقِ الْفِكْرِ ، وَسَبِيلِ الْعَاطِفَةِ ، وَمَا خَلَا ذَلِكَ مِنْ وُجُوهِ الِانْتِفَاعِ ، أَحْسَبُهُ مُجَرَّدَ ظَاهِرٍ كَاذِبٍ ، وَنَفْعٍ سَطْحِيٍّ ، فَأَنْتَ إِذْ تَبِيعُنِي خُبْزاً وَوَقُوداً ، أُحِسُّ أَنَّنِي بِنَقْدِي إِيَّاكَ ثَمَنَ مَا بِعْتَنِي ، قَدْ أَبْرَأْتَنِي مِمَّا لَكَ ، وَوَفَيْتُكَ حَقَّكَ كَامِلاً ، وَلَكِنْ مَا أَخَذْتُهُ مِنْكَ ، تَارِكِي آخِرَ الْأَمْرِ كَمَا

(١) ما استمدوه : ما أخذوه

وَجَدَنِى ، لاَ أَحْسَنَ وَلاَ أَسْوَأَ ، وَلاَ خَيْرًا مِمَّا كُنْتُ ، وَلاَ شَرًّا مِمَّا كُنْتُ ، أَمَّا النَّفْعُ الإِيجَابِىُّ[1] ، وَالْخَيْرُ الطَّيِّبُ الْمَحْسُوسُ ، وَالْفَائِدَةُ الْمَشْعُورُ حَقًّا بِهَا ، فَذَلِكُمْ هُوَ مَا يُجْدِى عَلَى آخِذِهِ ، مِنْ نَاحِيَةِ عَقْلِهِ وَحِسِّهِ ، وَنَفْسِهِ وَخَلِيقَتِهِ .

وَإِنَّهُ لَيَنْبَعِثُ مِنْكَ ، سَوَاءٌ أَرَدْتَ أَمْ لَمْ تُرِدْ ، فَيَنْفَعُنِى ، وَيُجْدِى عَلَىَّ أَنَا الَّذِى لَمْ أَخْطُرْ بِبَالِكَ ، وَلَمْ أَرِدْ يَوْمًا عَلَى خَاطِرِكَ ، وَلَمْ أَقَعْ فِى تَصَوُّرِكَ وَوُجْدَانِكَ ، وَلَسْتُ أَسْمَعُ عَنْ قُوَّةٍ مَّا فِى شَخْصٍ مَا ، أَوْ مَزِيَّةٍ مِنَ الْمَزَايَا ، عِنْدَ فَرْدٍ مِنَ الأَفْرَادِ ، وَبَرَاعَةٍ مُعَيَّنَةٍ فِى شَىْءٍ مُعَيَّنٍ عِنْدَ إِنْسَانٍ مُعَيَّنٍ ، إِلاَّ

(١) الايجابى : الذى فيه عمل والسلبى ما لا عمل فيه

اهْتَزَّتْ[١] نَفْسِي لَهُ، وَتَطَلَّعَتْ عَيْنِي لِلِقَائِهِ وَهَفَتْ[٢] رُوحِي نَحْوَهُ، وَإِنَّا لَنَتَحَمَّسُ وَنَتَأَثَّرُ بِكُلِّ مَا نَسْمَعُهُ، أَوْ نَعْرِفُهُ، عَنْ فَضْلِ غَيْرِنَا، وَقُوَّةِ سِوَانَا، وَإِنَّ كَلِمَةَ « سيسيل » فِي وَصْفِ « سير والستر دالى »، وَهِيَ : عَرَفْتُهُ أَقْدَرَ النَّاسِ عَلَى الْعَمَلِ فِي غَيْرِ كَلَالٍ، وَأَحْمَلَهُمْ لِمَتَاعِبِ الْجَهْدِ وَمَشَاقِّهِ. إِنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ، لَأَشْبَهُ شَيْءٍ بِالْمَسَّةِ الْكَهْرُبَائِيَّةِ، وَكَذَلِكَ تَصْوِيرَاتُ « كلارندن لهامدن » وَوَصْفُهُ لَهُ فِي قَوْلِهِ : « لَقَدْ كَانَ مِنَ الدَّأَبِ[٣] وَالْيَقَظَةِ، بِحَيْثُ لَا يُضْجِرُهُ جَهْدٌ مَهْمَا عَنُفَ[٤]، وَلَا يُضْنِيهِ[٥] عَمَلٌ مَهْمَا آدَ،

(١) اهتزت : طربت . (٢) هفت : حنت ومالت .
(٣) الدأب : الجد والمداومة على العمل (٤) عنف : اشتد
(٥) ولا يضنيه : لا يتعبه عمل مهما آد « أى أثقل »

وَأَنْقَضَ الظَّهْرَ ، وَكَانَ عَلَى صِفَاتٍ وَسَجَايَا ، وَخِلَالٍ لاَ يَتَغَلَّبُ عَلَيْهَا أَشَدُّ الذَّكَاءِ ، وَلاَ أَمْهَرُ الْخِدَعِ[١] ، وَكَانَ شُجَاعاً ، أُوتِيَ[٢] مِنَ الشَّجَاعَةِ أَنْسَبَهَا لِصِفَاتِهِ . وَأَخْلَقَهَا[٣] بِمَزَايَاهُ . وَكَذَلِكَ وَصْفُهُ « لفولكلاند » فِي قَوْلِهِ : لَقَدْ كَانَ مُسْتَهَاماً[٤] بِحُبِّ الْحَقِّ ، فَلاَ يُمَارِي[٥] فِي الْبَاطِلِ ، وَلاَ يَنْزِعُ[٦] إِلَى التَّغْرِيرِ ، وَلاَ يَدَعُ جَانِبَ الْحَقِّ ، « وَلَوْ جَازَ أَنْ يَسْرِقَ ، لَجَازَ أَنْ يَنْبُذَ الْحَقَّ » . . .

إِنَّ كَلِمَاتٍ كَهَذِهِ ، فِي نُعُوتِ الْعَظَمَةِ ، وَوَصْفِ الْخَلِيقَةِ الْمُعَذَّبَةِ ، لَتُثِيرُ[٧] فِينَا الْإِعْجَابَ ،

(١) الخدع : جمع الخدعة : ما يُخدع به (٢) أوتي : أعطى
(٣) أخلقها : أحقها وأجدرها (٤) مستهاماً : مشغوفاً
(٥) لا يمارى : لا يجادل (٦) لا ينزع : لا يميل
(٧) تثير : تبعث وتوقظ .

وَتُوقِدُ مِنَّا الْأَضَالِعَ[١]، وَأَطْوَاءَ[٢] الصُّدُورِ. وَلَا يَسَعُنَا إِذْ نَقْرَأُ كِتَابَ « فُلُوطَارْخُسَ[٣] » — بُلُوتَارْكَ — عَنْ حَيَاةِ الْعُظَمَاءِ وَتَرَاجِمِهِمْ أَنْ نَحْبِسَ حَمَاسَةَ قُلُوبِنَا، وَلَا أَنْ نَمْلِكَ فَوْرَةَ دِمَائِنَا، فِي أَعْرَاقِنَا، وَشَرَايِينِنَا.

وَإِنِّي لَأُحَبِّذُ قَوْلَ الْحَكِيمِ الصِّينِيِّ الْقَائِلِ: « إِنَّ الْحَكِيمَ هُوَ مُعَلِّمُ مِائَةِ جِيلٍ، وَيَوْمَ يَسْمَعُ الْجَاهِلُ حِكَمَ لولينيز، وَالْغَبِيُّ إِذَا سَمِعَهَا يَتَزَكَّى، وَالْمُتَرَدِّدُ يُغَادِرُ تَرَدُّدَهُ ».

* * *

حكمة التراجم

هَذِهِ هِيَ حِكْمَةُ وَضْعِ التَّرَاجِمِ لِلْعُظَمَاءِ، وَتَأْلِيفِ السِّيَرِ لِأَهْلِ النُّبُوغِ، بَلْ هَذَا فَضْلُهَا، وَأَثَرُهَا،

(١) الأضالع جمع ضلع (٢) أطواء الصدور: ثناياها
(٣) فيلسوف يوناني قديم وكذلك من بعده بلوتارك

وَمَغْزَاهَا الرَّفِيعُ ، وَلَكِنَّ تَأْثِيرَ الرَّاحِلِينَ ، وَالْمَوْتَى الذَّاهِبِينَ ، فِي نُفُوسِنَا مِنْ هَذِهِ النَّاحِيَةِ ، لَا يَعْدِلُ[1] أَثَرَ صَحْبِنَا وَرُفَقَائِنَا ، وَإِنْ كَانَتْ أَسْمَاؤُهُمْ ، لَنْ تَمْلُكَ قَدْرَ مَا مَلَكَتْ أَسْمَاءُ أُولَئِكَ فِي الذَّاكِرَاتِ ، إِذْ مَنْ هُوَ الَّذِي لَا أُفَكِّرُ فِيهِ ، وَلَا تَنْطَلِقُ نَفْسِي دَائِمًا إِلَيْهِ ؟ ؟ بِجَانِبِ أُولَئِكَ الَّذِينَ فِي كُلِّ عُزْلَتِنَا ، وَخَلَوَاتِنَا إِلَى نُفُوسِنَا ، يُغَذُّونَ أَرْوَاحَنَا ، وَيُلْهِمُونَ نُفُوسَنَا ، وَيَهِيجُونَ فِينَا أَسْمَى الْأَحَاسِيسِ .

إِنَّ فِي الْحُبِّ لَقُوَّةً تُعِينُ عَلَى اكْتِشَافِ مَصِيرِ الْمَحْبُوبِ ، أَكْثَرَ مِمَّا يَسْتَطِيعُ هُوَ أَنْ يَكْشِفَهُ ، بَلْ إِنَّ فِي الْحُبِّ ، لَمَا يُشَجِّعُ وَيَحْفِزُ[2] إِلَى الْبُطُولَةِ ،

(١) لا يعدل : لا يساوى . (٢) يحفز : يدفع .

وَجِسَامِ[١] الْفِعَالِ ، وَعَظَائِمِ الْأُمُورِ . وَهَلْ فِي الصَّدَاقَةِ مَا هُوَ أَسْمَى مِنْ جَاذِبِيَّتِهَا ، الرَّفِيعَةِ الْجَلِيلَةِ ، نَحْوَ كُلِّ مَا هُوَ فَضِيلَةٌ فِينَا ، وَمَكَارِمُ وَمَنَابِعُ إِحْسَانٍ ؟ ؟ . وَيَوْمَ يَقَعُ لَنَا ذَلِكَ ، لَا نَعُودُ نَحْتَقِرُ أَنْفُسَنَا ، أَوْ نَنْظُرُ نَظْرَةَ الْمُسْتَخِفِّ إِلَى قِيمَتِنَا ، وَأَقْدَارِنَا ، أَوْ نَرْتَخِصُ[٢] مِنْ شَأْنِ حَيَاتِنَا ، إِذْ نُصْبِحُ مُرْتَبِطِينَ بِغَرَضٍ فِي الْحَيَاةِ مُعَيَّنٍ ، وَمَقْصِدٍ فِي الْعَالَمِ مَحْدُودٍ ، فَلَا نَسْتَحْيِي مِنْ صِنَاعَةٍ أَوْ مُحْتَرَفٍ ، وَإِنْ كَانَ احْتِقَارُ الطُّرُقِ وَالْعَمَلِ هُوَ فِي دُنْيَا[٣] الْمِهَنِ .

---

(١) من إضافة الصفة إلى الموصوف . وكذلك ما بعده (٢) نرتخص : نعدها رخيصة (٣) أحقرها والمهن الحرف والصناعات . والمعنى المهن الدنيئة .

* * *

اكبار العظماء

وَفِي هَذَا الْبَابِ أَيْضًا ، يَدْخُلُ ذَلِكَ الِاحْتِرَامُ الْعَظِيمُ ، وَالْإِجْلَالُ الطَّاهِرُ ، السَّامِي الْخَالِصُ ، الَّذِي يُؤَدِّيهِ النَّاسُ جَمِيعًا عَلَى اخْتِلَافِ مَرْتَبَتِهِمْ ، وَتَبَايُنِ طَبَقَاتِهِمْ ، لِرَجُلِ السَّاعَةِ ، وَبَطَلِ الْعَصْرِ وَالْأَوَانِ ، مِنْ أَمْثَالِ : « كوريولىناس » « وجراكاس » فَنَازِلًا إِلَى « ربتْ » « ولافاييت » « وولنجتون » « وديبستر » « ولامارتين » . . . أَلَا تَسْمَعُ الْهُتَافَ الدَّاوِيَ فِي الشَّوَارِعِ ، وَالصِّيَاحَ الْمُنْفَجِرَ مِنْ أُلُوفِ الْحَنَاجِرِ ، فِي أَعْرَاضِ الطَّرِيقِ ؟ ؟

إِنَّ النَّاسَ لَيَزْدَحِمُونَ ، وَيَتَدَافَعُونَ بِالْمَنَاكِبِ ،

وَتَشْرَئِبُّ[١] مِنْهُمُ الْأَعْنَاقُ ، لِيُمَلُّوا[٢] الْأَبْصَارَ مِنْ شَخْصِ الْعَظِيمِ ، وَيَظْفَرُوا بِنَظْرَةٍ خَاطِفَةٍ[٣] إِلَيْهِ ، وَإِنَّهُمْ لَيَفْرَحُونَ بِهِ وَيُسَرُّونَ ، وَيَعْجَبُونَ بِقَدِّهِ[٤] الْمَدِيدِ ، وَرَأْسِهِ الرَّفِيعِ ، وَجِذْعِهِ الْبَاسِقِ[٥] ، وَطَلْعَتِهِ الْبَاهِرَةِ ، وَعَيْنَيْهِ الْحَدِيدَتَيْنِ[٦] ، وَكَتِفَيْهِ الْعَرِيضَيْنِ ، وَسِمَاتِهِ[٧] الرَّهِيبَةِ ، سِمَاتِ الْبَطَلِ الْعَظِيمِ ، ذِي الْقُوَّةِ الْهَائِلَةِ ، الَّتِي تُحَرِّكُ الْأَدَاةَ الضَّخْمَةَ ، وَالدُّولَابَ الْجَسِيمَ .

وَهَذَا السُّرُورُ الَّذِي يُدَاخِلُ النَّاسَ ، إِنَّمَا يَسْمُو وَيَزْدَادُ لِإِدْرَاكِ التَّعْبِيرِ الْكَامِلِ ، لِمَا نُحِسُّ نَحْنُ بِهِ ، وَنَعْجِزُ نَحْنُ عَنْ بَيَانِهِ ، وَالتَّصْوِيرِ الصَّادِقِ لِمَا يَخْتَلِجُ

(١) تشرئب : تتطلع (٢) ليملوا الخ : ليمتعوا
(٣) خاطفة : سريعة (٤) القد : القامة (٥) الباسق : الطويل
(٦) الحديدتين : الحادتين فى الابصار (٧) سمات : جمع سمة . وهى العلامة .

فِي مَشَاعِرِنَا ، وَلاَ نَقْدِرُ عَلَى تَصْوِيرِهِ . وَهَذَا هُوَ سِرُّ فَرَحِ الْقَارِئِ بِمَا يَقْرَأُهُ مِنْ كُتُبِ النَّوَابِغِ ، وَثِمَارِ تَفْكِيرِ الْعَبْقَرِيِّينَ ، فَلَيْسَ فِي كُتُبِهِمْ مَا يَحْجُبُونَ عَنِ النَّاسِ ، أَوْ يَكْتُمُونَ عَنِ الْبَشَرِ . بَلْ إِنَّ فِيهَا مِنَ النَّارِ الْمُتَأَجِّجَةِ[1] ، مَا يُحَرِّكُ الْجِبَالَ ، وَيُلْهِبُ[2] الصَّخْرَ ، وَيُسَعِّرُ الْجَلَامِيدَ . وَقَدْ يَكُونُ مِنْ صَحِيحِ التَّعْبِيرِ ، عَنْ قِيمَةِ شِكِسْبِيرَ وَفَضْلِهِ ، قَوْلُنَا : إِنَّهُ دُونَ سَائِرِ النَّاسِ ، كَانَ أَعْرَفَهُمْ بِاللُّغَةِ الْإِنْكِلِيزِيَّةِ ، وَأَمْلَكَ لِنَاحِيَتِهَا ، وَأَقْدَرَهُمْ عَلَى إِبْرَازِ فُنُونِهَا وَسِحْرِهَا ، وَإِنَّهُ يَلْعَبُ بِهَا كَمَا يَشَاءُ ، وَيَقُولُ بِهَا مَا يَنْبَغِي ، وَيَتَنَاوَلُهَا كَأَنَّهُ سَيِّدُهَا وَحْدَهُ ، لاَ شَرِيكَ لَهُ فِيهَا ،

(١) المتأججة : الملتهبة (٢) ويلهب الصخر : يشعله

وَلاَ مُقَاسِمَ وَلاَ نَظِيرَ . وَإِنَّ هَذِهِ الْيَنَابِيعَ الْمُتَفَجِّرَةَ ، وَالْمُفَاضَاتِ[1] الْمُتَدَفِّعَةَ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ أَعْمَاقِ الْمَشَاعِرِ ، وَأَغْوَارِ الْإِحْسَاسِ ، إِنْ هِيَ إِلَّا سِمَاتُ الصِّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ ، وَالْقُوَّةِ وَالْبِنْيَةِ الْمُكْتَمِلَةِ ، الْمُشَيَّدَةِ الْمَكِينَةِ ، النَّاطِحَةِ الْأُفُقَ ، وَإِنَّ اسْمَ « شِكِسْبِيرَ » ، لَيُوحِي إِلَى الذِّهْنِ ، حَسَنَاتٍ ذِهْنِيَّةً كَثِيرَةً ، وَأُخْرَى نَقِيَّةً سَامِيَةً ، رَفِيعَةَ الْمِقْدَارِ .

* * *

كاشفو المادة

إِنَّ كَاشِفِي قِيَمِ الْمَادَّةِ مِنَ الْمُخْتَرِعِينَ وَالْمُبْتَدِعِينَ ، لَيُنَزَّلُونَ مَنْزِلَةَ الطَّبَّاخِينَ وَالطُّهَاةِ ، وَالْحَلْوَائِيِّينَ ، يَوْمَ يَظْهَرُ كَاشِفُو قِيَمِ الْفِكْرِ ، وَمُسْتَحْدِثُو الْجَدِيدِ

(١) والمفاضات جمع مفاضة . المواضع التى يفيض منها الماء

مِنَ الرَّأْيِ، وَالْمُبْتَكَرِ مِنَ الْخَوَاطِرِ، فَإِنَّ الْعَبْقَرِيَّةَ هِيَ فِي التَّشْبِيهِ الْجُغْرَافِيِّ، الْمُصَوِّرِ لِأَقَالِيمِ الْأَحَاسِيسِ الرَّفِيعَةِ، وَآفَاقِ الْمَشَاعِرِ الَّتِي فَوْقَ مَأْلُوفِ الْوُجْدَانِ، بَلْ هِيَ الرَّاسِمَةُ لِخَرِيطَتِهَا، الْوَاصِفَةُ لِمُصَوِّرِهَا، الْمُرَتِّبَةُ لِتَقْوِيمِهَا، وَإِنَّهَا لَتَفْتَحُ أَمَامَ أَعْيُنِنَا أَقْطَاراً جَدِيدَةً مِنَ النَّشَاطِ، وَنَوَاحِيَ مِنَ الْفِكْرِ، تُطْفِئُ مَحَبَّتَنَا لِلْقَدِيمِ مِنْهَا، وَوُلُوعَنَا بِالتَّلِيدِ[1]، بَلْ إِنَّ هَذِهِ يَوْمَئِذٍ، لَيَلُوحُ لَنَا أَنَّهَا الْوَاقِعُ وَالْحَقِيقَةُ، وَأَنَّ مَا عَرَفْنَاهُ حَدِيثاً وَخَبَرْنَاهُ، إِنْ هُوَ بِالنِّسْبَةِ لَهَا، إِلَّا الظِّلُّ، وَالصُّورَةُ، وَالْخَيَالُ، وَالْمَعْرِضُ[2] الْحَسَنُ الطَّرِيفُ.

(١) التليد: القديم (٢) المعرض: مكان العرض. والطريف: الحديث. يقال «ما له طريف ولا تليد» أى ما عنده قديم ولا حديث.

* * *

وَنَحْنُ نَذْهَبُ إِلَى مَيْدَانِ الْأَلْعَابِ الرِّيَاضِيَّةِ ، وَحَوْضِ السِّبَاحَةِ ، لِنَشْهَدَ قُوَّةَ الْأَجْسَامِ ، وَجَمَالَ الْأَبْدَانِ ، وَشَبِيهُ بِالْمُتْعَةِ الَّتِي نَجِدُهَا فِي هَذَا الْمَشْهَدِ ، وَإِنْ كَانَتْ أَسْمَى ، وَأَرْفَعَ شَأْنًا وَقَدْرًا ، مُتْعَتُنَا بِرُؤْيَةِ الْعَمَلِ الذِّهْنِيِّ الْعَظِيمِ ، مِنْ كُلِّ نَوْعٍ وَصِنْفٍ ، وَلَوْنٍ ، كَمُدْهِشَاتِ الذَّاكِرَةِ ، وَعَجَائِبِ الْبَرَاعَةِ فِي الْحِسَابِ ، وَأَفَانِينِ الْمُخَيِّلَةِ ، كَأَنَّمَا نَحْنُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ، فِي مَيْدَانٍ رِيَاضِيٍّ آخَرَ . وَإِنْ كُنَّا لَا نَخْتَارُ الرِّجَالَ فِيهِ بِحَسَبِ قُوَّةِ أَبْدَانِهِمْ ، وَجَمَالِ قُدُودِهِمْ ، وَلَكِنَّهَا بِحَسَبِ قُوَّةِ أَذْهَانِهِمْ ، وَعَظَمَةِ أَلْبَابِهِمْ ، وَجَلَالِ تَفْكِيرِهِمْ ، وَنَحْكُمُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَصْدَقِ

كيف نختار العظماء ؟

سِمَاتِهِمْ ، وَأَصَحِّ طَوَابِعِهِمْ ، وَأَعْلَى مَا فِيهِمْ ، مِنْ مَوَاهِبَ وَمَلَكَاتٍ .

وَلَعَلَّ أَجَلَّ وَأَسْبَقَ هَذِهِ الْمَوَاهِبِ ، قَفَزَاتُ الْخَيَالِ وَطَفَرَاتُهُ[1] ، وَمَفَاتِنُهُ وَانْبِعَاثَاتُهُ ، فَإِذَا مَا تَيَقَّظَتْ هَذِهِ الْمُخَيِّلَةُ فِي الإِنْسَانِ ، بَدَا ، وَكَأَنَّهُ قَدْ زَادَ أَلْفَ مَرَّةٍ عَمَّا هُوَ فِي حَقِيقَتِهِ وَتَحَوَّلَ عَشْرَةَ أَمْثَالِ مَا كَانَ مِنْ قُوَّتِهِ ، لِأَنَّ الْمُخَيِّلَةَ النَّبَّاضَةَ ، الْمُفَكِّرَةَ الْمُصَوِّرَةَ لاَ تَقِفُ عِنْدَ حَدٍّ ، وَلاَ تَتَهَيَّبُ قُصُورًا ، وَلَكِنَّهَا الْجَرِيئَةُ الْمِقْدَامُ ، الْمُتَقَحِّمَةُ الزَّاحِفَةُ الْمُتَصَدِّرَةُ ، وَنَحْنُ قَدْ خُلِقْنَا قَابِلِينَ لِلتَّمَدُّدِ ، أَشْبَهَ شَيْءٍ بِالْغَازِ أَوْ دُخَانِ الْبَارُودِ . وَإِنَّ جُمْلَةً فِي

(١) طفراته جمع طفرة : وهى الوثبة فى ارتفاع

كِتَابٍ ، أَوْ كَلِمَةً عَارِضَةً فِي حَدِيثٍ ، لَكَافِيَةٌ ، لِكَيْ تُطْلِقَ مُخَيِّلَتَنَا مِنْ عِقَالِهَا ، وَتُرْسِلَهَا حُرَّةً مُنْبَعِثَةً ، مُرَفْرِفَةَ الْأَجْنِحَةِ فَلَا تَلْبَثُ رُءُوسُنَا أَنْ تَسْمُوَ إِلَى الْمَجَرَّةِ[1] ، وَإِنْ ظَلَّتْ أَقْدَامُنَا فَوْقَ الثَّرَى ، وَلَكِنَّ الْخَيْرَ فِي ذَلِكَ وَالنَّفْعَ وَاقِعٌ ، وَالْفَائِدَةَ مَأْتِيَّةٌ مُحَقَّقَةٌ ، لِأَنَّنَا أَحْرِيَاءُ بِهَذَا السُّمُوِّ ، خُلَقَاءُ بِهَذَا الْمُرْتَقَى ، وَسَاعَةَ نَجْتَازُ الْحُدُودَ ، وَنَعْبُرُ التُّخُومَ[2] ، لَنْ نَعُودَ الصِّغَارَ ، الضِّعَافَ الْأَدْعِيَاءَ ، كَمَا كُنَّا .

* * *

الادراكات التصورية

إِنَّ وَظَائِفَ الْعَقْلِ الْعُلْيَا ، مُتَحَالِفَةٌ مُرْتَبِطٌ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ ، حَتَّى لَيُشَاهَدُ عَادَةً عِنْدَ كَافَّةِ أَصْحَابِ

(١) المجرة : منطقة فى السماء قوامها نجوم كثيرة تسميها العامة درب التبانه
(٢) التخوم : الحدود

الْعُقُولِ الْجَبَّارَةِ ، وَكِبَارِ الْأَذْهَانِ ، أَنَّهُمْ لَا يَخْلُونَ مِنْ بَعْضِ النَّزَعَاتِ التَّصَوُّرِيَّةِ ، وَالْمَلَكَاتِ التَّخَيُّلِيَّةِ ، بَلْ إِنَّ ذَلِكَ لَيُشَاهَدُ أَيْضًا فِي كِبَارِ الرِّيَاضِيِّينَ ، وَعُلَمَاءِ الْحِسَابِ ، وَلَكِنَّهُ أَكْثَرُ مَا يَبْدُو خَاصَّةً عِنْدَ الْمُفَكِّرِينَ ، الَّذِينَ أُوتُوا مَلَكَةَ التَّفْكِيرِ ، وَنَزْعَةَ الْإِلْهَامِ[1] ، وَحِدَّةَ الْعُقُولِ ، وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الْمُفَكِّرِينَ يُجْدِي عَلَيْنَا ، وَيَنْفَعُنَا وَيُزَكِّينَا ، لِأَنَّهُ قَدِ اكْتَسَبَ مَلَكَةَ إِدْرَاكِ الْأَشْيَاءِ عَلَى حَقَائِقِهَا ، وَإِدْرَاكِهَا بِالتَّصَوُّرِ وَالْخَيَالِ ، وَأُوتِيَ الْمَقْدُرَةَ عَلَى تَصَوُّرِهَا بِالْعَقْلِ وَرَدِّهِ ، وَمَا كَانَتْ أَعْيُنُ « أَفْلَاطُونَ » و « شَكْسِبِيرَ » و « سِوِيدِنْبُرْج » و « جُوتَهْ » ،

(١) هو الخاطر الذى يهبط على النفس من غير سابقة تفكير .

لِتَغْمُضَ لَحْظَةً عَنْ هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ مِنَ الْإِدْرَاكِ ، أَوْ تَغْفُلَ عَنِ النَّظَرِ إِلَى أَثَرِ هَذَيْنِ النَّامُوسَيْنِ[1] فِي الْحَيَاةِ ، فَإِنَّ إِدْرَاكَهُمَا هُوَ أَثْبَتُ شَيْءٍ بِمِيزَانِ الْعَقْلِ وَانْسِجَامِهِ ، وَكَالْوَزْنِ فِي الشِّعْرِ وَرَوِيِّهِ . وَمَا كَانَتْ صِغَارُ الْعُقُولِ صِغَارًا ، إِلَّا لِعَجْزِهَا عَنْ هَذِهِ الرُّؤْيَةِ ، وَنَقْصِهَا وَقُصُورِهَا ، عَنْ هَذَا الْإِدْرَاكِ .

* * *

سلطان العظيم وخطره

وَلَكِنَّ هَذِهِ الْمَنَاعِمَ الْعَظِيمَةَ ، لَا تَزَالُ عُرْضَةً لِنُقْصَانِهَا ، وَهَذِهِ الْأَطْعِمَةَ الشَّهِيَّةَ الْفَاخِرَةَ ، قَدْ تُحْدِثُ الْبَشَمَ وَالتُّخْمَةَ وَالْكِظَّةَ ، فَإِنَّ فَرَحَنَا بِالْعَقْلِ الْعَظِيمِ ، وَإِجْلَالَنَا لِلذِّهْنِ الْجَبَّارِ ، قَدْ يَسْتَحِيلُ إِلَى عِبَادَةِ أَصْنَامٍ ، وَيَصِيرُ إِلَى وَثَنِيَّةٍ مُطْلَقَةٍ ، بِالنِّسْبَةِ

(١) الناموس : الشريعة والقانون

لِلْعَظِيمِ الْمُتَفَوِّقِ ، وَالْعَبْقَرِيِّ الْفَذِّ النَّادِرِ الْمِثَالِ ، وَأَوْضَحُ مَا يَبْدُو ذَلِكَ ، إِذَا كَانَ صَاحِبُ هَذَا الْعَقْلِ الْجَبَّارِ ، مُعَلِّمًا لِلنَّاسِ هَادِيًا ، صَاحِبَ طَرِيقَةٍ أَخَّاذَةٍ بِالْقُلُوبِ فِي الْإِمَامَةِ ، وَذَا أَسَالِيبَ قَوِيَّةٍ فِي الْقِيَادَةِ ، وَالزَّعَامَةِ ، وَالتَّعْلِيمِ ، فَإِنَّ سُلْطَانَ الْعَظِيمِ لَطَاغٍ ، وَأَثَرَ الْعَبْقَرِيِّ النَّابِغَةِ لَتَكْلِيفُ قَاسٍ ، وَاسْتِعْبَادٌ عَجِيبٌ ، وَيَكْفِي لِلتَّدْلِيلِ عَلَى هَذَا السُّلْطَانِ ، النَّافِذِ الْغَالِبِ الْمُسْتَعْبِدِ ، مَا رَأَيْنَا مِنْ تَعَالِيمَ « أَرِسْطُو[1] » ، أَوْ زَعَامَةِ « الْبَطَالِسَةِ » ، فِي عُلُومِ الْفَلَكِ وَأَسْرَارِ النُّجُومِ ، وَمَا أَحَسَّتْهُ الْإِنْسَانِيَّةُ مِنْ سُلْطَانِ « لدثر » ، و « بيكون » و « لوك » ، بَلْ مَا قَامَ مِنْ سُلْطَانِ الدِّينِ ، وَمَا نَلْمَسُهُ فِي تَارِيخِ الْكَهَنُوتِ[2] ،

(١) الفيلسوف اليوناني العظيم واستاذ الاسكندر المقدوني (٢) التعاليم المسيحية

وَالرِّيَاسَاتِ الرُّوحِيَّةِ ، وَأَصْحَابِ الْمَذَاهِبِ ، وَالْمِلَلِ ، وَالنِّحَلِ[١] الْمُتَعَدِّدَةِ ، هُوَ عَلَى مَا أَقُولُ شَاهِدٌ وَدَلِيلٌ .

وَا أَسَفَاهْ ! كُلُّ امْرِىءٍ لِهَذَا السُّلْطَانِ النَّافِذِ عَبْدٌ ، وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِهَذَا النُّفُوذِ فَرِيسَةٌ ، وَإِنَّ ضَعْفَ النَّاسِ وَقُصُورَهُمْ ، وَوَهَنَ إِرَادَتِهِمْ ، هِيَ أَبَداً الْمُغْرِيَةُ بِاكْتِسَابِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ ، وَالِاسْتِقْوَاءِ عَلَى ضَعْفِهِمْ ، وَاسْتِحْمَاقِ[٢] الْأَقْوِيَاءِ فِي امْتِلَاكِهِمْ وَقَهْرِهِمْ ، وَالِاسْتِبْدَادِ بِهِمْ . وَلَكِنَّ النُّبُوغَ السُّوقِيَّ ، هُوَ الَّذِي يَفْرَحُ وَيَهْنَأُ ، وَيَجِدُ لَذَّتَهُ وَشَهْوَتَهُ ، فِي الطَّمْسِ عَلَى أَبْصَارِ النَّاسِ وَتَقْيِيدِهِمْ ، وَشَدِّ وَثَاقِ نُفُوسِهِمْ إِلَيْهِ . أَمَّا الْعَبْقَرِيَّةُ الصَّحِيحَةُ ، أَمَّا النُّبُوغُ

(١) النحل : المذاهب (٢) عدهم حمق

الصَّادِقُ ، أَمَّا الْعَظَمَةُ الْحَقِيقِيَّةُ ، فَتِلْكَ هِيَ الَّتِي تَحْمِينَا مِنْ نَفْسِهَا ، وَتَقِينَا مِنْ ذَاتِهَا ، وَهِيَ الَّتِي تَهَبُنَا وَلاَ تَسْلُبُنَا وَالَّتِي تُعْطِينَا وَلاَ تُجَرِّدُنَا ، وَالَّتِي تُحَرِّرُنَا وَلاَ تُقَيِّدُنَا ، وَتَزِيدُنَا مَوَاهِبَ ، وَأَحَاسِيسَ ، وَمَشَاعِرَ ، وَلاَ تَنْقُصُنَا مِنْ أَنْفُسِنَا قَلِيلاً وَلاَ كَثِيرًا .

* * *

أثر المرشد العظيم

وَيَوْمَ يَظْهَرُ فِي قَرْيَتِنَا رَجُلٌ كَلِيمٌ[1] ، لاَ يَلْبَثُ أَنْ يُحْدِثَ فِي نُفُوسِ الَّذِينَ يَتَحَدَّثُونَ إِلَيْهِ ، وَيَتَّصِلُونَ بِهِ ، وَيَنْدَمِجُونَ فِيهِ ، شُعُورًا جَدِيدًا ، بِأَنَّهُمْ قَدِ ازْدَادُوا شَيْئًا كَثِيرًا ، عَمَّا كَانُوا مِنْ قَبْلِ ظُهُورِهِ . فَقَدْ عَلَّمَهُمْ كَيْفَ يَفْتَحُونَ أَعْيُنَهُمْ ، عَلَى أَمْرٍ لَمْ يَكُنْ لِيَكْشِفُوهُ ، لَوْلاَ هِدَايَتُهُ ، وَيُبْصِرُونَ أَشْيَاءَ ،

(١) كليم : فصيح

لَمْ يَكُونُوا مِنْ قَبْلُ لَهَا يُبْصِرُونَ . بَلْ إِنَّهُ لَيُثِيرُ[١] فِي نُفُوسِنَا إِحْسَاسًا رَفِيعًا بِالْمُسَاوَاةِ ، وَإِنَّهُ لَيُهَدِّئُ مِنْ ثَائِرَاتِ وُجْدَانِنَا[٢] ، وَيُؤَكِّدُ لَنَا أَنَّنَا لَنْ نُخْدَعَ وَلَنْ نُغَرَّرَ بِنَا . وَيَوْمَئِذٍ يَرُوحُ كُلُّ فَرْدٍ فِينَا يُدْرِكُ خَوَافِيَ[٣] عَيْشِهِ ، وَضَمَانَ حَيَاتِهِ ، وَضَوَابِطَ نَفْسِهِ ، وَمَعَايِبَ ذَاتِهِ . فَأَمَّا الْأَغْنِيَاءُ : فَيَلْمَسُونَ أَغْلَاطَهُمْ ، وَيُدْرِكُونَ فَقْرَهُمُ الْحَقِيقِيَّ وَفَاقَتَهُمْ . وَأَمَّا الْفُقَرَاءُ : فَيُدْرِكُونَ مَنْجَاتَهُمْ مِنَ الْفُقَرَاءِ ، وَمَقَرَّهُمْ وَمَصَادِرَهُمْ ، وَمَوَارِدَهُمْ . وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ الْجُهَلَاءَ بِهَا ، وَالْمُعْدِمِينَ مِنْهَا ، وَالْمَحْرُومِينَ الْمُجَرَّدِينَ .

(١) يثير : يوقظ ويحيي (٢) الوجدان : الشعور والاحساس
(٣) خوافي عيشه : بواطنه

* * *

تطلع النفس الى الطريف

بَيْدَ[1] أَنَّ الطَّبِيعَةَ تُؤَدِّى ذَلِكَ كُلَّهُ فِى مُنَاسِبِ ظَرْفِهِ ، وَتُحْدِثُ ذَلِكَ جَمِيعَهُ فِى مُلَائِمِ حِينِهِ ، فَإِنَّ دَيْدَنَهَا[2] : هُوَ الْعَمَلُ بِالدَّوْرِ وَالتَّنَاوُبِ ، وَالْمَوَاقِيتِ ، وَمَحْدُودِ الْأَحَايِينِ ، وَإِنَّ النَّفْسَ لَتَضْجَرُ بِالسَّادَةِ عَلَيْهَا ، وَتَبْرَمُ بِمُتَمَلِّكِيهَا . وَيَأْتِى يَوْمٌ عَلَيْهَا ، تَزْهَدُ فِى الْمُتَحَكِّمِينَ فِيهَا وَمَوَالِيهَا ، فَتَلْتَهِفُ عَلَى جَدِيدٍ ، وَتَتَطَلَّعُ إِلَى طَرِيفٍ ، وَتَلْتَمِسُ تَغْيِيرًا ، وَتَبْتَغِى تَبْدِيلًا . وَلَقَدْ طَالَمَا رَأَيْنَا رَبَّاتِ الْبُيُوتِ ، مِنْ مَلَالٍ وَبَرَمٍ وَضَجَرٍ ، تَقُولُ عَنْ خَادِمٍ لَهَا — وَإِنْ كَانَتِ النَّافِعَةَ الصَّالِحَةَ — لَقَدْ طَالَ مُكْثُهَا بِدَارِنَا ، وَمَسَّنَا

(١) بيد : إلا (٢) الديدن : الدأب والعادة

مِنْهَا سَآمَةٌ[١] مُؤْلِمَةٌ . وَنَحْنُ جَمِيعاً نَاقِصُونَ ، نَعِيشُ أَبَدًا عَلَى النَّزَعَاتِ وَالنَّوَازِعِ ، وَالْمُيُولِ وَالْأَهْوَاءِ ، وَلَسْنَا كَمَالاً تَامًّا ، وَلَا شُعُورُنَا أَبَدًا بِالْمَوْفُورِ الْمُسْتَكْمَلِ السَّلِيمِ . وَنَحْنُ نَرُوحُ وَنَغْدُو ، وَنَلْمَسُ الشَّيْءَ وَنَدَعُهُ ، وَنَمُرُّ بِهِ ثُمَّ نُغَادِرُهُ ، وَنَأْخُذُ مِنَ الْأَشْيَاءِ الزَّبَدَ[٢] وَالسُّطُوحَ ، وَنَتَنَاوَلُ مِنْهَا مِقْدَارَ الظَّوَاهِرِ ، وَالْأَغْشِيَةِ وَالْقُشُورِ .

* * *

تعدد مظاهر النبوغ

التَّنَاوُبُ هُوَ نَامُوسُ الطَّبِيعَةِ وَقَانُونُهَا ، وَيَوْمَ تُزِيلُ الطَّبِيعَةُ رَجُلاً عَظِيماً مِنْ مَوْضِعِهِ ، وَتُزَحْزِحُهُ عَنْ مَكَانِهِ ، يَذْرَعُ[٣] النَّاسُ الْأُفُقَ بِأَبْصَارِهِمْ ،

(١) السامة : الملل (٢) الزبد : القشور (٣) ذرع الشيء قاسه بالذراع

تَطَلُّعًا إِلَى مَنْ يَخْلُفُهُ ، وَالْتِمَاسًا لِمَنْ يَلِيهِ ، وَلَكِنْ لاَ أَحَدَ يَأْتِي ، وَلاَ أَحَدَ هُوَ آتٍ ، فَقَدِ انْتَهَى نَوْعُهُ بِانْتِهَائِهِ ، وَانْقَرَضَ الصِّنْفُ بِذَهَابِهِ وَغِيَابِهِ ، وَلَكِنْ قَدْ يَظْهَرُ عَلَى إِثْرِهِ ، طِرَازٌ آخَرُ مِنَ النُّبُوغِ ، وَمَظْهَرٌ جَدِيدٌ مِنَ الرُّجُولَةِ ، وَمَنْ يَلْتَمِسُوا بَعْدَ « جفرسُنْ » مَثَلاً « جفرسُنْ » مِثْلَهُ ، أَوْ بَعْدَ « فرانكلين » ، « فرانكلين » عَلَى غِرَارِهِ[1] ، لاَ يَجِدُوهُ ، وَإِنَّمَا قَدْ يُصِيبُونَ مُخْتَرِعًا ، وَمُثَبِّتَةَ طُرُقٍ ، أَوْ عَالِمًا مِنْ عُلَمَاءِ الْأَسْمَاكِ ، أَوْ رَحَّالَةً صَيَّادًا أَخَا قَنَصٍ ، أَوْ قَائِدًا عَسْكَرِيًّا نِصْفَ هَمَجِيٍّ ، أَوْ نِصْفَ مُتَوَحِّشٍ ، وَهَكَذَا نَجِدُ دَائِمًا تَعْوِيضًا مِنْ نَوَابِغِنَا فِي

(١) غراره : شاكلته

النَّوْعِ الْخَشِنِ ، وَالطِّرَازِ الْجَافِّ ، وَلَكِنَّا مَعَ ذَلِكَ لاَ نَعْدَمُ تَعْزِيَةً عَنِ النَّوَابِغِ الْمُفَكِّرِينَ ، وَأَصْحَابِ الْمَوَاهِبِ الرَّفِيعَةِ ، وَالنُّبُوغَاتِ اللَّيِّنَةِ الرَّفِيعَةِ السَّامِيَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْقُوَّةَ الَّتِي نَجْتَنِيهَا مِنْهُمْ ، وَنَسْتَمِدُّهَا مِنْ نُبُوغِهِمْ ، لَيْسَتْ لَهُمْ فِي ذَاتِ أَنْفُسِهِمْ ، بَلْ هِيَ لِأَفْكَارِهِمْ وَآرَائِهِمْ ، وَنَحْنُ إِذْ نَغْتَبِطُ وَنَبْتَهِجُ بِالْأَفْكَارِ وَالْآرَاءِ ، لاَ نَرُوحُ مَدِينِينَ بِتِلْكَ الْغِبْطَةِ ، وَذَلِكَ الِابْتِهَاجِ « لِأَفْلاَطُونَ » صَاحِبِهَا ، أَوْ « شكسبير » رَبِّهَا ، أَوْ « جوته » مُلْهِمِهَا وَالْمُوحِي بِهَا ، وَلَكِنَّا مَدِينُونَ لِلْفِكْرَةِ الَّتِي كَانَ أَفْلاَطُونُ نَفْسُهُ أَيْضًا لَهَا مَدِيناً .

☆
☆ ☆

الهداة الأوائل

وَلاَ يَنْبَغِي لِي أَنْ أَنْسَى أَنَّ عَلَيْنَا أَيْضًا دَيْنًا خَاصًّا لِطَبَقَةٍ مُعَيَّنَةٍ بِالذَّاتِ ، فَإِنَّ الْحَيَاةَ مَرَاتِبُ وَدَرَجَاتٌ ، وَبَيْنَ كُلِّ مَرْتَبَةٍ مِنْ عُظَمَائِنَا وَنَوَابِغِنَا ، وَالْمَرْتَبَةِ التَّالِيَةِ ، مَسَافَاتٌ وَاسِعَةٌ ، وَرَحْبُ فَتَرَاتٍ ، وَقَدْ تَعَلَّقَتْ الْإِنْسَانِيَّةُ فِي جَمِيعِ الْأَجْيَالِ بِبِضْعَةِ رِجَالٍ كَانُوا ، إِمَّا بِسَبَبِ الْفِكْرَةِ الَّتِي جَاءُوا لِيُمَثِّلُوهَا ، أَو بِفَضْلِ سَعَةِ مَدَارِكِهِمْ ، وَبُعْدِ مَطَارِحِ[1] حِسِّهِمْ وَوُجْدَانِهِمْ ، الْخُلَقَاءِ[2] بِالْمَوَاضِعِ الَّتِي احْتَلُّوهَا كَمُشَرِّعِينَ ، وَزُعَمَاءَ ، وَقَادَةٍ ، وَهُدَاةٍ ، وَمُعَلِّمِينَ ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ : الَّذِينَ يُعَلِّمُونَنَا خَوَاصَّ الطَّبِيعَةِ وَمَبَادِئَهَا ،

(١) مطارح : مرامى ادراكهم البعيدة (٢) الخلقاء : الجديرين

وَيَكْشِفُونَ مَغَالِيقَ أَسْرَارِهَا وَمُعَمَّيَاتِهَا ، وَيُبِيحُونَ لَنَا التَّغَلْغُلَ[١] فِي جَوَاهِرِ الْأَشْيَاءِ ، وَيَقُودُونَنَا إِلَى الْكِيَانِ[٢] عَنْهَا وَالسِّرِّ وَاللُّبَابِ .

وَإِنَّا لَنَسِيحُ كُلَّ يَوْمٍ فِي نَهْرٍ مِنَ الْأَوْهَامِ ، وَالْأَخِيلَةِ وَالْخُدَعِ ، وَنَلْهُو بِتَشْيِيدِ مَغَانٍ[٣] وَقُصُورٍ فِي الْهَوَاءِ ، يَنْخَدِعُ بِهَا الَّذِينَ مِنْ حَوْلِنَا ، وَيَحْسَبُهَا الَّذِينَ يُصَدِّقُونَنَا قَوَائِمَ ، وَهِيَ لَيْسَتْ قَائِمَةً ، وَلَكِنَّ الْحَيَاةَ صِدْقٌ وَحَقَائِقُ ، وَجِدٌّ وَوَاقِعٌ ، وَنَحْنُ فِي فَتَرَاتِ الْجِدِّ ، وَالصَّحْوِ وَالتَّجَرُّدِ ، مِنَ الْخَيَالِ ، قَائِلُونَ لِأَنْفُسِنَا ، لِتَكُنْ هَذِهِ الْمَغَانِي

(١) التغلغل : التدخل (٢) الكيان : الحقيقة (٣) مغان : جمع مغنى : المكان المأهول بسكانه

وَالْقُصُورُ ، مَدَاخِلَ وَرَدَهَاتٍ[١] تَفَتَّحَتْ أَمَامَنَا ، لِنَجْتَازَهَا إِلَى الْحَقَائِقِ ، وَحَسْبُنَا أَنَّنَا لَهَوْنَا طَوِيلاً ، وَكُنَّا الْحُمْقَى الْمُغَفَّلِينَ أَكْثَرَ مِمَّا يَنْبَغِي .

وَيَوْمَئِذٍ نَعْرِفُ مَعَانِيَ اقْتِصَادِيَّاتِنَا ، وَسِيَاسَاتِنَا ، بَلْ أَعْطُونَا السِّرَّ وَالسِّفْرَ[٢] . وَإِذَ كَانَ النَّاسُ وَالْأَشْيَاءُ مُخْتَزَنَ[٣] مُوسِيقَى سَمَاوِيَّةٍ ، وَمَدَارِجَ أَنْغَامٍ إِلٰهِيَّةٍ ، فَدَعُونَا نَسْتَقْرِئُ[٤] الْأَوْتَارَ ، وَنَتَبَيَّنِ السُّلَّمَ وَالدَّرَجَ ، وَلَئِنْ كُنَّا قَدْ خُدِعْنَا فِي عُقُولِنَا ، فَلَقَدْ كَانَ لَنَا حُكَمَاءُ وَعُقَلَاءُ ، وَهُدَاةٌ عَاشُوا مِنْ أَجْلِنَا . وَمَا تَعَلَّمُوهُ وَعَرَفُوهُ وَكَشَفُوهُ ، إِنَّمَا تَعَلَّمُوهُ وَعَرَفُوهُ وَكَشَفُوهُ

(١) ردهات : فسحات بين الحجرات (٢) السفر : الكتاب الكبير الحجم (٣) مختزن : مخزن (٤) نستقرئ : نتتبع

لِأَجْلِنَا ، وَخَيْرِنَا وَنَفْعِنَا ، وَبِظُهُورِ كُلِّ عَقْلٍ جَدِيدٍ ، يَنْبَثِقُ(١) وَيَتَفَتَّحُ ، وَيَنْكَشِفُ مِنَ الطَّبِيعَةِ سِرٌّ جَدِيدٌ مِنْ أَسْرَارِهَا . وَلَنْ تُمْحَى التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ وَالْقُرْآنُ حَتَّى يُولَدَ آخِرُ رَجُلٍ عَظِيمٍ فِي الدُّنْيَا ، وَيَخْرُجَ إِلَى الْعَالَمِ .

العظماء والانسانية

إِنَّ هَؤُلَاءِ الْعُظَمَاءَ : هُمُ الَّذِينَ يُلَطِّفُونَ مِنْ هَذَيَانِ حَيَوَانِيَّتِنَا وَيَكْسِرُونَ مِنْ حِدَّةِ بُحْرَانِ(٢) بَهِيمِيَّتِنَا ، وَهُمُ الَّذِينَ يَرُدُّونَنَا مُتَدَبِّرِينَ مُتَعَقِّلِينَ ، وَيَقُودُونَنَا إِلَى غَايَاتٍ وَمَقَاصِدَ عُلْيَا ، وَيُكْسِبُونَنَا قُوَّاتٍ جَدِيدَةً لَمْ تَكُنْ لَنَا ، وَإِنَّ الْإِنْسَانِيَّةَ لَتَخُصُّ هَؤُلَاءِ بِأَكْبَرِ احْتِرَامِهَا ، وَتُحِلُّهُمْ فِي أَرْفَعِ الْمَوَاضِعِ

(١) ينبثق : يظهر (٢) البحران : التهيج والاختلال فى القوى المدركة

مِنْ تَقْدِيرِهَا ، وَإِجْلاَلِهَا . . . أَلَمْ تَرَ إِلَى أَكْثَرِ الْأَنْصَابِ[١] وَالتَّمَاثِيلِ ، وَالصُّوَرِ وَالتَّهَاوِيلِ[٢] ، وَالْأَلْوَاحِ وَالرُّسُومِ ، الَّتِي تَسْتَعِيدُ ذِكْرَيَاتِ نُبُوغِهِمْ ، وَتُثِيرُ[٣] هَوَاجِعَ[٤] سِيَرِهِمْ ، وَقِصَصَ عَبْقَرِيَّاتِهِمْ ، فِي كُلِّ مَدِينَةٍ وَقَرْيَةٍ ، وَدَارٍ ، وَسَفِينَةٍ وَجَارِيَةٍ[٥] .

إِنَّ أَشْبَاحَهُمْ[٦] لَتَرْتَفِعُ أَمَامَ أَبْصَارِنَا ، وَشُخُوصَهُمْ لَتَتَجَسَّمُ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِنَا إِخْوَتُنَا أُولَئِكَ : وَلَكِنْ أَعَزُّ مِمَّنْ هُمْ إِخْوَةٌ لَنَا ، بِالدَّمِ وَالْقُرْبَى ، وَاللُّحْمَةِ وَالرَّحِمِ ، وَإِنَّهُمْ لَيُطِلُّونَ عَلَيْنَا ، وَنَحْنُ عَلَى الْمَوَائِدِ مَصْفُوفُونَ ، وَإِنَّهُمْ لَيُشْرِفُونَ فَوْقَ مِهَادِنَا[٧] ، وَنَحْنُ

(١) الأنصاب : الأعلام (٢) التهاويل : الألوان المختلفة
(٣) تثير : توقظ (٤) هواجع : جمع هاجعة وهى النائمة الغافلة
(٥) الجارية : السفينة وما اليها (٦) أشباحهم : أشخاصهم وصورهم
(٧) مهاد : مضاجع النوم .

ضَاجِعُونَ ، وَإِنَّهُمْ لَيَنْظُرُونَ إِلَيْنَا فِي نَظَرَاتِ جَمَالٍ ، وَرِفْقٍ وَحَنَانٍ ، وَيَتَحَدَّثُونَ إِلَيْنَا فِي نَجْوَى[١] ، وَبِالرُّوحِ وَالْوُجْدَانِ .

* * *

فضل الفكر على العالم

— لِيَ اللهُ ! — كَيْفَ أُصَوِّرُ فَضْلَ الْفِكْرِ عَلَى الدُّنْيَا ؟ وَأَيْنَ لِي بِوَصْفٍ جَلِيلِ النَّفْعِ ، وَعَظِيمِ الْجَدْوَى[٢] ، وَكَبِيرِ الصَّنِيعِ[٣] ، الَّذِي يُسْدِيهِ الَّذِينَ يَكْشِفُونَ لَنَا عَنِ الْحَقَائِقِ الْخُلُقِيَّةِ ، وَالْمَعَانِي السَّامِيَةِ ، وَالْحِكْمَةِ الْعَالِيَةِ ؟ ؟ إِنِّي وَاللهِ لَمُتَبَرِّمٌ ضَجِرٌ طِيلَةَ حَيَاتِي بِتَعْرِيفَةِ الْأَسْعَارِ ، وَمَادِّيَّةِ الْعَيْشِ ، وَرَتِيبِ جَرَيَانِ الْأَيَّامِ ، وَمُزْهِدِ سَيْرِ السِّنِينَ ، فَلَوِ اشْتَغَلْتُ فِي حَدِيقَةِ دَارِي ، مُشَذِّبًا الشَّجَرَ ،

(١) النجوى : المسارة (٢) الجدوى: الفائدة (٣) الصنيع: المعروف

مُقَلِّماً الْأَمَالِيدَ[١] ، مُهَذِّباً الْأَفْرُعَ وَالْأَفْنَانَ ، لَوَجَدْتُ مُتْعَةً كَافِيَةً ، أَحْسَبُنِي مُسْتَطِيعاً أَنْ أُوَاصِلَهَا بِلاَ انْقِطَاعٍ ، وَلاَ أَكُفَّ عَنْهَا آخِرَ الْحَيَاةِ ، وَلَكِنِّي لاَ أَلْبَثُ أَنْ أُحِسَّ الْيَوْمَ قَدْ ذَهَبَ ، وَلَمْ أَصْنَعْ شَيْئاً ، فَأَذْهَبَ إِلَى « بُوسطن » أَوْ أَشْخَصَ[٢] إِلَى « نيويورك » ، وَأَرُوحَ أَغْدُو مَقْضِيًّا مَطَالِبِي مَعْنِيًّا بِمَشَاغِلِي وَهَمَاهِمِ[٣] عَيْشِي ، وَلَكِنَّ النَّهَارَ يَمْضِي قَبْلَ أَنْ أَظْفَرَ مِنْ عَمَلٍ فِيهِ يَنْفَعُ ، أَوْ خَيْرٍ مَحْسُوسٍ ، فَأَتَمَثَّلَ جِلْدَ الْحِمَارِ[٤] الَّذِي يُقَالُ : إِنَّ مَنْ يَقْتَعِدُهُ يَجِدُ مُتَمَنَّاهُ ، وَيُصِيبُ رَغْبَةَ نَفْسِهِ

(١) الأماليد : الأغصان اللينة الناعمة (٢) أشخص : أذهب
(٣) هماهم الحياة : مشاغلها . وهماهم العيش : متاعبه وآلامه .
(٤) أتمثل جلد الحمار : هذا المثل يضرب للتبلد .

وَمُشْتَهَاهُ ، وَلَكِنِّى أَذْكُرُ أَيْضًا : أَنَّ كُلَّ قِطْعَةٍ مِنْ ذَلِكَ الإِهَابِ ، تَذْهَبُ لِقَاءَ كُلِّ رَغْبَةٍ ، وَبِسَبِيلِ كُلِّ أُمْنِيَّةٍ ، فَلاَ يَبْقَى مِنْهُ شَىْءٌ يَصْلُحُ مُقْتَعَدًا ، فَأَذْهَبُ أَلْتَمِسُ مَجْمَعَ أَهْلِ الْخَيْرِ ، وَمُحَبِّى الإِحْسَانِ ، وَالْمَيَامِينَ[1] الْمُنَادِينَ إِلَى نَفْعِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَلَكِنِّى لاَ أَكَادُ أَجْلِسُ إِلَيْهِمْ ، حَتَّى أَتَطَلَّعَ بِنَاظِرِى إِلَى السَّاعَةِ الْمُعَلَّقَةِ فَوْقَ الْجِدَارِ ، مِنْ شِدَّةِ الْبَرَمِ ، وَطُولِ الضَّجَرِ ، وَكَلاَلِ[2] الْخَاطِرِ وَالرُّوحِ ، وَلَكِنْ لَوْ أَنَّ فِى الْجَمْعِ رَجُلاً ذَا نَفْسٍ سَمْحَةٍ ، رَفِيقَةٍ كَرِيمَةٍ ، يَعْرِفُ قَلِيلاً مِنْ نَوَادِرِ النَّاسِ ، وَطَرَفًا مِنْ أَخْبَارِ الأُمَمِ وَالْجَمَاعَاتِ ، وَشُذُورًا[3] مِنْ أَحْوَالِ الْبِلاَدِ

(١) الميامين : جمع ميمون وهو ذو اليمن والبركة (٢) كلال الخاطر : ضعف التفكير (٣) شذور : أجزاء

وَالآفَاقِ ، وَالْأَمْصَارِ وَالْأَقَالِيمِ ، وَيَشْرَحُ الْقَانُونَ الَّذِى يَسْرِى عَلَى هَذِهِ جَمِيعاً ، وَالنَّوَامِيسَ الطَّبِيعِيَّةَ الْمُسَيْطِرَةَ عَلَى الْعَوَالِمِ جُمْلَةً ، وَيُؤَكِّدُ لِى بِفُتُونِ حَدِيثِهِ ، وَطِيبِ سَمَرِهِ ، رُوحَ الْعَدْلِ السَّمَاوِىِّ . الَّذِى يَكْشِفُ خَدِيعَةَ كُلِّ خَدَّاعٍ وَأَكْذُوبَةَ كُلِّ كَذَّابٍ[1] أَشِرٍ ، وَمَذْقَ[2] كُلِّ مُمَاذِقٍ ، وَتَخْذُلُ كُلَّ أَنَانِىٍّ أَثِرٍ[3] ، وَتُوحِى إِلَى نَفْسِى حُرِّيَّتَهَا وَاسْتِقْلالَهَا ، فِى أَىِّ بَلَدٍ مِنَ الْبِلَادِ ، وَزَمَنٍ مِنَ الْأَزْمَانِ ، وَأَيَّةِ حَالَةٍ مِنَ الْحَالَاتِ . لَوْ أَنَّ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ ، تَوَانَى[4] لِى فِى حَدِيثِ ذَلِكَ الرَّجُلِ ، أَوْ تَهَيَّأَ لِى الِاسْتِمْتَاعُ بِهِ . إِذَنْ : لَنَسِيتُ الْوَقْتَ ، وَغَفَلْتُ

(١) أشر : بطر (٢) مذق المماذق : مداهنته وعدم اخلاصه
(٣) أنانى أثر : محب لنفسه دون سواه (٤) توانى : تهيأ

عَنِ السَّاعَةِ ، وَلَمْ أَعُدْ أَعْبَأُ بِالزَّمَنِ وَمَرِّهِ . وَإِذَنْ : لَتَحَلَّلْتُ مِنْ صِلَاتِي الْمَأْلُوفَةِ بِالنَّاسِ ، وَعَلَاقَتِي الْمُضْجِرَةِ بِالْجَمَاعَاتِ . وَإِذَنْ : لَشُفِيتُ مِنْ آلَامِي ، وَبَرَأْتُ مِنْ جِرَاحِي ، وَلَعُدْتُ مُخَلَّدًا بِفَضْلِ إِدْرَاكِي هَذِهِ الْمُتَعَ النَّفْسِيَّةَ ، وَظَفَرِي بِهَذِهِ الْحَسَنَاتِ الطَّاهِرَةِ ، النَّقِيَّةِ السَّامِيَةِ . بَلْ فِي هَذَا : فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ، وَلْيَتَزَاحَمِ الْمُتَزَاحِمُونَ ، أَغْنِيَاءُ وَفُقَرَاءُ عَلَى السَّوَاءِ .

* * *

التناحر على الحياة

وَلَكِنَّا نَعِيشُ فِي سُوقٍ ، حَيْثُ لَا نُصِيبُ غَيْرَ غِلَالٍ أَوْ حِنْطَةٍ ، أَوْ صُوفٍ أَوْ نَسِيجٍ ، أَوْ أَرْضٍ ، وَمَنْ يَأْخُذُ أَكْثَرَ ، إِنَّمَا يَدَعُ غَيْرَهُ يَأْخُذُ أَقَلَّ ، وَلَسْتُ أُصِيبُ خَيْرًا ، إِلَّا كَانَ بِجَانِبِهِ ضُرٌّ لِسِوَايَ .

وَمَا مِنْ أَحَدٍ هُوَ الْفَرِحُ الطَّرُوبُ ، الْمُبْتَهِجُ بِفَرَحِ أَخِيهِ وَطَرَبِهِ وَابْتِهَاجِهِ . وَمَا حَيَاتُنَا إِلَّا حَرْبٌ دَائِمَةٌ ، يُرَادُ مِنْهَا التَّفَوُّقُ بِالْأَذَى ، وَبِالشَّرِّ الِاسْتِعْلَاءُ . وَكُلُّ طِفْلٍ مِنَ الْجِنْسِ السَّكْسُونِيِّ ، يُؤَدَّبُ وَيُرَبَّى عَلَى الرَّغْبَةِ فِي أَنْ يَكُونَ الْأَوَّلَ ، وَيَرُوحَ فِي الْحَلْبَةِ[1] الْمُجَلِّيَ وَالسَّبَّاقَ . هَكَذَا هِيَ حَيَاتُنَا وَنِظَامُنَا ، وَإِنَّ الرَّجُلَ مِنَّا لَيَقِيسُ عَظَمَتَهُ ، وَخَطَرَ مِقْدَارِهِ ، وَبَعِيدَ شَأْوِهِ[2] بِمَبَالِغِ النَّدَامَاتِ وَالْآلَامِ ، وَالْحَسَدِ وَالْبَغْضَاءِ ، وَالْمُنَازَعَاتِ الَّتِي يُقَاسِيهَا مُنَافِسُوهُ ، وَالْأَقْرَانُ[3] .

* * *

مثار الاعجاب من العظماء

وَإِنِّي لَأَعْجَبُ بِالْعُظَمَاءِ عَلَى اخْتِلَافِ الْأَنْوَاعِ ، وَتَبَايُنِ الطَّبَقَاتِ ، الْعُظَمَاءِ الَّذِينَ يُقَرِّرُونَ الْحَقَائِقَ

(١) الحلبة الميدان (٢) الشأو : القدر (٣) الأقران: الأنداد والنظراء

سَوَاءٌ عِنْدِى فِى مَوَاضِعِ الْإِعْجَابِ . وَالْعُظَمَاءُ بِالْأَفْكَارِ وَالْآرَاءِ ، بَلْ أَنَا أُحِبُّ الْخُشُنَ مِنْهُمْ وَاللَّيِّنَ ، وَسِيَاطَ[1] اللهِ فِى الْأَرْضِ ، وَالْأَعِزَّةَ الرُّفَقَاءَ الْمُحَبَّبِينَ ، أُحِبُّ « الْقَيْصَرَ الْأَوَّلَ » ، وَ « شَارْلَ الْخَامِسَ عَاهِلَ[2] الْأَسْبَانِ » ، وَ « شَارْلَ الثَّانِىَ عَشَرَ مَلِكَ السُّوِيدِ » . وَأُحِبُّ « ريتشارد بلانتاجنت » و « نابليون نَابِغَةَ الْفَرَنْسِيِّينَ » . وَإِنِّى لَأَخْفِقُ إِعْجَابًا بِالرَّجُلِ الْكَافِى ، بِالرَّجُلِ الْكُفْءِ لِمَوْضِعِهِ ، الْمُنَاسِبِ لِمَكَانِهِ ، سَوَاءٌ أَكَانَ مِنَ الْقُوَّادِ وَالرَّبَّانِيَّةِ ، وَالنُّوَّابِ أَمِ الْوُزَرَاءِ . . . أُحِبُّ السَّيِّدَ الثَّابِتَ الْمُسْتَوِىَ عَلَى قَدَمٍ مِنْ حَدِيدٍ ، الْحَسَنَ الْمَنْبِتِ ، الْغَنِىَّ ، الْجَمِيلَ ، الْفَصِيحَ ، الْبَلِيغَ

(١) سياط : عذاب وهى جمع سوط (٢) العاهل : الملك.

النَّفَّاعَ الصَّالِحَ ، الْمُنَاحَ لِلْخَيْرِ ، الْمُجْتَذِبَ النَّاسَ جَمِيعًا بِسِحْرِهِ ، وَمُبِينِ سُلْطَانِهِ ، لِيَكُونُوا أَقْنِيَةً[1] وَفُرُوعًا وَرَوَافِدَ[2] لِقُوَّتِهِ وَنُفُوذِهِ . وَإِنَّ السَّيْفَ وَالْعَصَا ، أَوِ الْمَوَاهِبَ الْمُرْهَفَةَ كَالسَّيْفِ ، أَوِ الْمَتِينَةَ كَالْعَصَا ، هِيَ الَّتِي تُسَيِّرُ الْعَالَمَ ، وَتَسُوقُهُ وَتَقْتَادُهُ إِلَى الْأَمَامِ .

* * *

عنصر الاثار

وَلَكِنِّي : أَرَاهُ أَعْظَمَ وَأَجَلَّ وَأَرْوَعَ ، إِذَا هُوَ

روح العظمة

اسْتَطَاعَ أَنْ يُلْغِيَ نَفْسَهُ ، وَيُنْكِرَ ذَاتَهُ ، وَيَتَجَرَّدَ مِنْ أَثَرَتِهِ ، وَإِنَّ الْأَبْطَالَ جَمِيعًا لَكَذَلِكَ عِنْدِي ، إِنْ هُمْ أُشْرِبَتْ[3] نُفُوسُهُمْ هَذَا الْعُنْصُرَ ، وَأُفْعِمَتْ

(١) أقنية : جمع قناة وهى التى يسير فيها الماء لسقى الزرع (٢) روافد النهر : مستمداته وفروعه التى تمده بالماء (٣) أشربت نفوسهم : خالطت وامتزجت

قُلُوبُهُمْ بِهَذَا الرُّوحِ ، فَغَضُّوا النَّظَرَ عَنِ الْأَشْخَاصِ ، وَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لِصَوْتِ الْفَرْدِيَّةِ وَالذَّاتِيَّةِ ، وَأَذِنُوا لِهَذَا الْعَامِلِ ، السَّامِي الْعَظِيمِ الرَّفِيعِ ، الَّذِي يُحِلُّهُمْ أَرْفَعَ مَوْضِعٍ مِنْ أَنْفُسِنَا ، أَنْ يُبِيدَ[1] فِيهِمْ أَثَرَتَهُمْ ، فَيَكُونَ السُّلْطَانُ بِهِمْ عَظِيمًا ، وَصَاحِبُ السُّلْطَانِ لَيْسَ شَيْئًا مَذْكُوراً ، وَيَكُونَ النُّفُوذُ هُوَ الْمُسَيْطِرَ ، وَصَاحِبُ النُّفُوذِ غَيْرَ مُسَيْطِرٍ ، وَمَنْ يَكُنْ هَكَذَا شَأْنُهُ ، يَكُنْ مَلِكًا يَمْنَحُ الشَّعْبَ دُسْتُوراً ، أَوْ حَبْرًا[2] يُعَلِّمُ النَّاسَ وَيَعِظُهُمْ ، فِي مُسَاوَاةِ النُّفُوسِ وَالْأَرْوَاحِ ، أَوْ عَاهِلاً مَحْبُوباً تَتَفَانَى الدَّوْلَةُ فِيهِ

* * *

مزايا العامة

أَحْسَبُنِي تَرَامَى الْقَوْلُ بِي وَامْتَدَّتْ أَنْفَاسُ

(١) يبيد : يمحو (٢) الحبر : العالم

الْكَلاَمِ ، وَكُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أُعَيِّنَ عَلَى التَّحْدِيدِ وَجْهَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةَ وُجُوهٍ لِفَضْلِ الْعُظَمَاءِ وَبِرِّ النَّوَابِغِ وَصَلاَحِيَتِهِمْ وَإِجْدَائِهِمْ[١] عَلَى النَّاسِ . إِنَّ الطَّبِيعَةَ لاَ تَسْتَغْنِي يَوْماً عَنِ الْمُخَدِّرِ وَالْأَفْيُونِ ، فَحَيْثُ تُشَوِّهُ مَخْلُوقَاتُهَا بِعَاهَةٍ أَوْ نَقْصٍ أَوْ مَعَابٍ ، تَضَعُ بَلْسَمَهَا[٢] بِكَثْرَةٍ وَسَخَاءٍ عَلَى الْجُرُوحِ وَالنُّدُوبِ[٣] وَمَوَاضِعِ النَّقْصِ وَالآلاَمِ ، فَيَمْضِي الْمِسْكِينُ مُتَهَلِّلاً طَرُوباً[٤] فِي الْحَيَاةِ غَيْرَ شَاعِرٍ بِمَا أَصَابَهُ ، وَلاَ عَابِئٍ بِمَا انْتَابَهُ ، وَلاَ مُحِسٍّ النَّقْصَ أَوِ الْمَعَابَ[٥] الَّذِي فِيهِ ، وَلاَ قَادِرٍ عَلَى رُؤْيَةِ الدَّمَامَةِ ، أَوِ الشَّوْهَةِ[٦]

(١) إجداء : إحسان (٢) بلسم : دواء (٣) الندوب : آثار الجروح (٤) متهللا طروبا : فرحا (٥) المعاب : الذى يعيبه الناس (٦) الدمامة والشوهة : قبح المنظر .

الَّتِي تَعْرُوهُ ، وَإِنْ وَقَفَ النَّاسُ جَمِيعاً يُشِيرُونَ إِلَيْهَا بِالْأَنَامِلِ لَيْلَ نَهَارَ ، وَإِنَّ صِغَارَ النَّاسِ وَأَرَاذِلَهُمْ ، وَمَنْ لاَ فَضْلَ لَهُمْ ، وَالْأَشْقِيَاءَ وَالْأَشْرَارَ فِيهِمْ ، وَالَّذِينَ حَيَاتُهُمْ ضُرٌّ عَلَى الْمُجْتَمَعِ ، وَحَرْبٌ وَوَيْلٌ ، لَيَحْسَبُونَ أَنْفُسَهُمْ مَظْلُومِينَ فِي هَذَا الْعَالَمِ ، أَسْوَأَ النَّاسِ حُظُوظاً فِي الدُّنْيَا . وَلاَ يَنْفَكُّونَ أَبَداً فِي عَجَبٍ وَدَهْشَةٍ ، مِنْ جُحُودِ عَصْرِهِمْ لِفَضْلِهِمْ ، وَنُكْرَانِهِ لِأَقْدَارِهِمْ ، وَأَنَانِيَةِ جِيلِهِمْ وَأَثَرَتِهِمْ .

إِنَّ دُنْيَانَا هَذِهِ إِنَّمَا تَكْتَشِفُ خَافِيَ مَزَايَاهَا ، وَخَبِيءَ فَضَائِلِهَا ، لاَ فِي الْأَبْطَالِ وَحْدَهُمْ ، وَلاَ فِي الْأَخْيَارِ وَالْأَطْهَارِ دُونَ سِوَاهُمْ ، وَلَكِنْ فِي أَحَادِيثِ

الاعْتِيَادِيِّينَ وَمَجَامِعِهِمْ ، وَعَجَائِزِ النِّسَاءِ وَلَغَطِهِنَّ[١] ، وَكَلَامِ الْمَجَالِسِ وَضَوْضَائِهَا ، أَلَيْسَ مِنْ غَرِيبِ الْحِيلَةِ ، وَعَجِيبِ التَّدْبِيرِ ، أَنَّ اللهَ وَضَعَ فِي كُلِّ مَخْلُوقٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ ، رُوحًا مِنَ الْإِلْحَاحِ[٢] عَلَى الِاعْتِقَادِ ، وَالْجُمُودِ عَلَى الْفِكْرَةِ الْمُتَأَصِّلَةِ ، حَتَّى لَتُغْضِبُهُ الْإِثَارَةُ مِنَ السُّكُونِ ، وَيَسْتَنْفِرُهُ الدَّافِعُ إِلَى التَّغْيِيرِ وَالتَّبْدِيلِ ، وَأَنَّ هُنَاكَ الِاعْتِزَازَ بِالْفِكْرِ ، وَكِبْرِيَاءَ الرَّأْيِ ، وَهِيَ مُسْتَقِلَّةٌ عَنِ الْقُوَّةِ الْعَقْلِيَّةِ فِي ذَاتِهَا ، وَمَبْلَغِ الْمَوْهِبَةِ الذِّهْنِيَّةِ وَقِيمَتِهَا ، ذَلِكَ الِاعْتِزَازُ الَّذِي يُوحِي إِلَيْنَا الطُّمَأْنِينَةَ إِلَى أَنَّنَا عَلَى الْحَقِّ ، وَتِلْكَ الْكِبْرِيَاءُ الْفِكْرِيَّةُ الَّتِي تُكْسِبُنَا

(١) اللغط : الكلام الذى لا طائل تحته ولا فائدة فيه
(٢) الالحاح : كثرة السؤال

الثِّقَةَ وَالْيَقِينَ بِأَنَّنَا عَلَى الصَّوابِ ، وَإِنَّ أَوْهَنَ عَجُوزٍ عَظْماً ، وَأَضْعَفَ امْرَأَةٍ ذِهْناً ، بَلْ إِنَّ أَشَدَّ الْبُلْهِ[1] بَلاَهَةً ، وَأَكْثَرَ الْحُمْقَى حَمَاقَةً ، لاَ يَزَالاَنِ يَسْتَخْدِمَانِ بَقِيَّةَ مَا بَقِيَ لَهُمَا مِنْ شَرَارَةِ الإِدْرَاكِ ، وَآخِرَ مَا تُرِكَ لَهُمَا مِنْ مَلَكَةِ الشُّعُورِ ، وَلاَ يَزَالاَنِ يَفْرَحَانِ وَيَبْتَهِجَانِ ، وَيَعْتَزَّانِ بِانْتِصَارِ رَأْيِهِمَا ، وَفَوْزِ فِكْرِهِمَا ، عَلَى غَيْرِهِمَا مِنَ الْحُمْقَى ، وَالنُّوكَى[2] وَالْبُلْهِ وَالضُّعَفَاءِ ، وَمَا اخْتِلاَفُكَ مَعِي فِي الرَّأْيِ إِلاَّ مِقْيَاسُ الْحَمَاقَةِ عِنْدِي ، وَحَدُّ الْجَهْلِ ، وَمُنْعَكَسُ الْغَبَاءِ ، هَكَذَا جُبِلَ النَّاسُ جَمِيعاً ، لاَ يَشْعُرُ امْرُؤٌ بِخَطَئِهِ ، وَلاَ يُقِرُّ أَحَدٌ بِأَنَّهُ قَدْ جَانَبَ الصَّوَابَ ، وَلَكِنْ ،

(١) البله : جمع أبله وهو ضعيف العقل عاجز الرأى
(٢) النوك : جمع أنوك وهو الأحمق .

أَلَمْ يَكُنْ مِنَ الخَيْرِ : أَنْ يَتَّصِلَ هَذَا النُّزُوعُ[١] بِعُقُولِ الْبَشَرِ وَيُلَازِمَهَا وَيَخْتَلِطَ بِهَا اخْتِلَاطَ الْحُمْرَةِ بِالْمَوَادِّ الْأُخْرَى فِي الْبِنَاءِ وَامْتِزَاجَ « الْمِلَاطِ » — الأسمنت — بِهَا ، كَأَقْوَى لِحَامٍ وَأَفْضَلِ مِسَاكٍ ، وَأَثْبَتِ مُلْتَصَقٍ ؟ أَلَيْسَ فَرَحُ أَضْعَفِ النَّاسِ بِآرَائِهِمْ ، حَرِيًّا[٢] بِالْإِعْجَابِ ، حَقِيقًا بِالْحُبِّ وَالتَّقْدِيرِ ؟ ! أَلَا يَنْبَعِثُ مِنْهُ عَلَى الطَّرِيقِ رَجُلٌ يُمْسِكُ بِأَيْدِينَا ، وَيَدُلُّنَا عَلَى السَّبِيلِ ، وَيُعَرِّفُنَا إِلَى أَيْنَ نَذْهَبُ ؟ وَيُعِينُنَا مَعُونَةً لَا حَدَّ لَهَا ، وَلَا نِهَايَةَ تَنْتَهِي عِنْدَهَا ، فَلَوْلَا رَجُلٌ كَهَذَا ، لَوْلَا أَفْلَاطُونُ كَمِثَالٍ عَلَيْهِ ، لَكِدْنَا نَفْقِدُ إِيمَانَنَا ، فِي احْتِمَالِ

(١) النزوع : الميل والقصد (٢) حريا : جديراً .

ظُهُورِ كِتَابٍ مَعْقُولٍ ، وَمُصَنَّفٍ مَقْبُولٍ ، وَسِفْرٍ طَيِّبٍ ، وَإِنَّهُ لَيَلُوحُ لَنَا : أَنَّنَا لاَ نَبْغِي غَيْرَ بَطَلٍ وَاحِدٍ ، وَلاَ نَطْلُبُ إِلاَّ عَظِيمًا وَاحِداً ، وَلَكِنَّنَا مُضْطَرُّونَ فِي الْوَاقِعِ ، إِلَى أَنْ نَتَّصِلَ بِالْأَبْطَالِ ، وَنَمْتَزِجَ بِالْعُظَمَاءِ ، مَا دَامَتْ مَدَارِكُنَا مُتَعَدِّدَةَ النَّوَاحِي ، غَيْرَ مَحْدُودَةِ الْجِهَاتِ ، وَفِي حَضْرَةِ الْعُظَمَاءِ ، تَرُوحُ[1] أَفْكَارُنَا وَآدَابُنَا وَسُلُوكُنَا ، وَأَخْلَاقُنَا عَظِيمَةً مِثْلَهُمْ ، بَلْ لاَ نَلْبَثُ أَنْ نُصْبِحَ جَمِيعاً حُكَمَاءَ ، عُقَلَاءَ بِالشُّعُورِ وَالْإِدْرَاكِ ، وَإِنْ لَمْ نَكُنْ كَذَلِكَ قُوَّةً وَنَشَاطاً وَفِعْلاً ، وَلَيْسَ يَحْتَاجُ الْأَمْرُ إِلَى أَكْثَرَ مِنْ حَكِيمٍ وَاحِدٍ ، أَوْ رَجُلٍ عَاقِلٍ ، بَادِهِ[2] الْعَقْلِ

(١) تروح : تصير (٢) باده العقل : يفهم الأمر بغير تفكير لقوة عقله

فِي الْجَمَاعَةِ الْوَاحِدَةِ ، لِيَكُونَ الْكُلُّ عُقَلاَءَ حُكَمَاءَ ، إِذْ لَشَدَّ مَا تَسْرِي الْعَدْوَى ، وَسَرْعَانَ مَا يَكُونُ الاِقْتِدَاءُ وَالاِكْتِسَابُ .

* * *

تراث الجيل في الفرد

الْعُظَمَاءُ هُمْ إِذَنْ : الَّذِينَ يُطَهِّرُونَ أَنْفُسَنَا مِنَ الْأَثَرَةِ ، وَيَفْتَحُونَ أَعْيُنَنَا لِنُبْصِرَ غَيْرَنَا ، وَنَرَى أَعْمَالَهُمْ ، وَنَشْهَدَ أَفْضَالَهُمْ وَفِعَالَهُمْ ، وَلَكِنَّ هُنَاكَ شُرُورًا وَرَذَائِلَ ، وَحَمَاقَاتٍ وَأَغْلاَطًا ، مُلاَزِمَةً لِكُلِّ جَمَاعَةٍ ، وَكُلِّ عَصْرٍ ، وَكُلِّ جِيلٍ ، وَالنَّاسُ أَدْنَى شَبَهًا مِنْ مُعَاصِرِيهِمْ ، وَأَقْرَبُ صُورَةً إِلَى جِيلِهِمْ ، مِنْهُمْ إِلَى أَجْدَادِهِمْ وَأَسْلاَفِهِمْ ، وَأَكْثَرُ مَا يُلاَحَظُ هَذَا فِي الزَّوْجَيْنِ الشَّيْخَيْنِ ، أَوْ فِي الشَّخْصَيْنِ

اللَّذَيْنِ لَبِثَا طَوِيلاً مُشْتَرِكَيْنِ فِى الْحَيَاةِ ، مُتَقَاسِمَيْنِ الْعَيْشَ ، فَإِنَّهُمَا يُصْبِحَانِ عَلَى طُولِ الدَّهْرِ مُتَشَابِهَيْنِ مُتَمَاثِلَيْنِ ، وَلَوْ عَاشَا أَطْوَلَ مِنْ ذَلِكَ أَمَدًا[1] ، لَمَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نَعْرِفَ أَحَدَهُمَا ، إِذَا هُوَ افْتَرَقَ عَنْ صَاحِبِهِ ، أَوْ نَأَى[2] وَحْدَهُ عَنْ مُشَارِكِهِ .

إِنَّ الطَّبِيعَةَ لَتَكْرَهُ هَذِهِ الْخَوَاصَّ[3] ، وَتَمْقُتُ هَذِهِ الِانْدِمَاجَاتِ ، لِأَنَّهَا تُوشِكُ أَنْ تُفْرِغَ الْعَالَمَ كُلَّهُ فِى قَالَبٍ وَاحِدٍ ، وَتَصُبَّهُ فِى قِطْعَةٍ أَوْ كُتْلَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَلِذَلِكَ : لَا تَلْبَثُ الطَّبِيعَةُ أَنْ تُبَادِرَهَا بِالتَّفَكُّكِ ، وَتَعْمَلَ عَلَى انْفِصَامِ رَوَابِطِهَا[4] الْعَارِضَةِ .

وَلَكِنَّ هَذَا التَّمَاثُلَ مُسْتَمِرٌّ لَا يَنْقَطِعُ ، وَهَذَا

(١) الأمد : الزمن (٢) نأى : بعد (٣) الخواص : الصفات الخاصة (٤) انفصام روابطها : انحلال عقدها

التَّشَابُهَ قَائِمٌ لاَ يَكُفُّ ، بَيْنَ أَهْلِ الْبَلَدِ الْوَاحِدِ ، وَالطَّرِيقَةِ الْوَاحِدَةِ ، وَالْحِزْبِ السِّيَاسِيِّ الْوَاحِدِ . وَأَفْكَارُ الْعَصْرِ مُتَطَايِرَةٌ فِي الْفَضَاءِ ، تُعْدِي كُلَّ مَنْ يَنْشَقُّهَا[1] ، وَتَسْرِي إِلَى كَافَّةِ مَنْ يَتَنَفَّسُهَا ، وَلَوْ أَطْلَلْتَ عَلَى هَذِهِ الْمَدِينَةِ « نيويورك » مِنْ عَلُ ، أَوْ أَشْرَفْتَ عَلَى لُنْدُنَ مِنْ شَاهِقٍ ، أَوْ أَلْقَيْتَ مِنْ مُحَلَّقٍ[2] ، الْبَصَرَ عَلَى الْحَضَارَةِ الْغَرْبِيَّةِ ، لَلَاحَتْ لَكَ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْحَمَاقَاتِ ، وَحُزْمَةٌ مِنَ السَّخَفِ ، وَالْبَلَاهَةِ وَالْحُمْقِ ، وَنَحْنُ نَتَلَاقَى عَلَى تَوَاخٍ[3] وَوِفَاقٍ ، بَلْ نَحْنُ بِالْوُجُوهِ وَالطَّلَعَاتِ نَتَبَاسَمُ ، وَلَكِنَّا بِالْحَسَدِ وَالنَّفَسِ[4] ، وَالتَّزَاحُمِ وَالْغَيْرَةِ ، وَالْمُبَارَاةِ ،

(١) تعدى : تكسب . ينشقها : يشمها (٢) محلق البصر : أفقه
(٣) تواخ : تآخ (٤) النفس : المنافسة .

تَزِيدُ فِي جِنَّةِ[١] الْعَصْرِ، وَشِرَّةِ الْجِيلِ، وَحِدَّةِ الْحَيَاةِ، وَمَا يَمْنَعُ وَخَزَاتِ[٢] الضَّمِيرِ، غَيْرَ أَنَّنَا فِي الإِثْمِ وَالْخَطَإِ سَوَاءٌ، وَهَذِهِ الْمُعَاصَرَةُ هِيَ الْمَانِعُ، وَاشْتِرَاكُ الْمُعَاصِرِينَ فِي الْمَعَايِبِ وَالْجِنَايَاتِ هِيَ الْحَائِلُ، دُونَ النَّدَامَةِ وَتَبْكِيتِ[٣] الضَّمِيرِ.

* * *

أثر الخلطاء

وَلَكِنَّا أَيْضًا نُحِسُّ مِنَ السَّهْلِ وَالْهَيِّنِ، أَنْ نَكُونَ أَخْيَارًا وَعُقَلاَءَ، وَرَاشِدِينَ كَمُعَاصِرِينَا، وَرُفَقَائِنَا وَصَحْبِنَا وَخُلَطَائِنَا، فَنَحْنُ نَتَعَلَّمُ مِنْهُمْ مَا نُرِيدُ أَنْ نَعْلَمَهُ، بِلاَ جَهْدٍ وَلاَ مَتْعَبَةٍ[٤]، وَلاَ أَدْنَى تَكْلِيفٍ، بَلْ إِنَّهُ لَيَسْرِي إِلَيْنَا مِنْ مَسَامِّ جُلُودِنَا،

(١) جنة: جنون (٢) وخزات الضمير: آلامه (٣) تبكيت الضمير: تأنيبه (٤) متعبه: مصدر ميمى معناه التعب.

بَلْ إِنَّا لَنَلْتَقِطُهُ بِمُجَرَّدِ الْمُشَارَكَةِ فِي الشُّعُورِ ، أَوْ كَمَا تَرْقَى الزَّوْجُ إِلَى سُمُوِّ زَوْجِهَا ، وَمَزَايَاهُ الرَّفِيعَةِ ، وَمَكَارِمِ أَخْلَاقِهِ ، بِمَحْضِ[1] الِاتِّصَالِ .

* * *

أثر العظماء في حماية العامة

بَيْدَ أَنَّنَا نَقِفُ حَيْثُ يَقِفُونَ ، وَنَعْجِزُ عَنْ أَنْ نَتَقَدَّمَ وَحْدَنَا خُطْوَةً وَاحِدَةً ، وَإِنَّمَا الْعُظَمَاءُ أَوْ مَنْ تَجْعَلُهُمُ الطَّبِيعَةُ كَذَلِكَ هُدَاةً ، هُمُ الْمُنْقِذُونَ لَنَا مِنْ أَغْلَاطِ جِيلِنَا ، الْمُنَجُّونَ إِيَّانَا مِنْ مَعَايِبِنَا الْعَامَّةِ وَضِلَالَتِنَا ، بَلْ هُمُ الَّذِينَ يَحْمُونَنَا مِنْ مُعَاصِرِينَا ، وَهُمُ الْمُسْتَثْنَيَاتُ الَّتِي نَحْتَاجُ إِلَيْهَا ، وَالشَّوَاذُّ[2] الَّتِي نُرِيدُهَا ، لِأَنَّهُمُ الْعُنْصُرُ الْغَرِيبُ عَنَّا ، الَّذِي يُوفَدُ لِتَطْهِيرِنَا مِنْ مَسَاوِينَا[3] .

(١) محض الاتصال : خالصة (٢) الشواذ : النوادر
(٣) يوفد : يرسل . ومساوينا : سيئاتنا

وَهَكَذَا نَحْنُ نَتَغَذَّى عَلَى الْعَظَمَةِ ، وَنَسْتَمِدُّ مِنَ الْعَبْقَرِيَّةِ ، وَنُنْعِشُ أَرْوَاحَنَا وَنُزَكِّي نُفُوسَنَا ، مِنْ طُولِ الْمَلَالِ وَالسَّآمَةِ الَّتِي تَعْرُونَا[١] مِنَ الْحَدِيثِ إِلَى أَشْبَاهِنَا ، وَالِاخْتِلَاطِ بِأَمْثَالِنَا ، وَصَحْبِنَا وَقُرَنَائِنَا ، وَنَحْنُ نَسْمُو بِهُدَى الْعَظِيمِ ، وَنَتَزَكَّى بِإِمَامَتِهِ ، وَنَسِيرُ فِي إِثْرِ حِكْمَةِ قِيَادَتِهِ ، وَإِنَّ ظُهُورَ الْعَظِيمِ هُوَ — وَاللهِ — أَكْبَرُ تَعْوِيضٍ عَنِ الْمَلَايِينِ مِنَ الضُّعَفَاءِ ، وَالصِّغَارِ وَالْأَقْزَامِ[٢] .

كُلُّ أُمٍّ تَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ أَحَدُ أَبْنَائِهَا نَابِغَةً[٣] ، وَوَلَدٌ مِنْ وُلْدِهَا عَظِيماً عَبْقَرِيًّا ، وَلَوْ بَقِيَ كُلُّ

(١) تعرونا : تصيبنا (٢) الاقزام : القصار (٣) النابغة : البليغ الفطن

الْآخَرِينَ صِغَارًا ، ضِئَالاً فُسُولاً[١] خَامِلِينَ .

* * *

أخطار العظمة

عَلَى أَنَّ فِي ظُهُورِ الرَّجُلِ الْعَظِيمِ ، وَتَنَاهِي سُلْطَانِهِ ، وَتَرَامِي نُفُوذِهِ ، خَطَرًا جَدِيداً عَلَى النَّاسِ ، وَضَرِيبَةً فَادِحَةً[٢] ، لِأَنَّ جَاذِبِيَّتَهُ تَنْزِعُنَا مِنْ مَكَانِنَا ، وَتُزَحْزِحُنَا مِنْ مَوْضِعِنَا ، وَنَحْنُ مُصْبِحُونَ بِهِ ، مُجَرَّدِينَ مِنَ الْحَوْلِ ، أَصَاغِرَ مُنْتَحِرِينَ انْتِحَارًا أَدَبِيًّا ، ... وَلَكِنَّ النَّجَاةَ لَا تَفْتَأُ[٣] تُلْتَمَسُ ... هَا هُوَ ذَا فِي أَقْصَى الْأُفُقِ مَفْزَعُنَا[٤] ، وَعِنْدَهُ مَنْجَانَا ... هُنَالِكَ عُظَمَاءُ آخَرُونَ ، بِصِفَاتٍ وَمَزَايَا أُخْرَى ، وَلِكُلٍّ مِنْهُمْ مَحَاسِنُهُ وَمَفَاتِنُهُ ، وَنَحْنُ

(١) الفسل : الضعيف الذى لا فائدة فيه (٢) الفادحة : الثقيلة
(٣) لا تفتأ : لا تزال (٤) مفزعنا : ملجؤنا

النَّاسَ تَقْطِفُ جَنَى الشَّهْدِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ فِيهِمْ وَنَرْشِفُ أَفَاوِيقَ[١] كُلَّ عَظَمَةٍ مِنْ نَوْعِهَا ، وَنُبُوغٍ بِذَاتِهِ ، فَإِنَّ كُلَّ بَطَلٍ ، وَكُلَّ عَظِيمٍ ، لاَ يَلْبَثُ أَنْ يُصْبِحَ مُمِلاً مُتَبَرَّماً بِهِ ، وَيَنْقَلِبُ أَخِيراً مُسْئِماً مُجْتَوًى[٢] يَضِيقُ النَّاسُ بِهِ ، وَمَا نَحْسَبُ « فُولْتِيرَ » كَانَ سَيِّءَ الْقَلْبِ ، وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ : الْقَائِلُ فِي الْمَسِيحِ الْكَرِيمِ « أَرْجُوكُمْ أَلاَّ تَدْعُونِي أَسْمَعُ هَذَا الاِسْمَ مَرَّةً أُخْرَى » ! وَإِنَّهُمْ لَيَتَحَدَّثُونَ عَنْ فَضْلِ « جُورْجُ وَاشِنْطُن » وَصِفَاتِهِ وَمَزَايَاهُ ، فَيَنْبَرِي[٣] فَرْدٌ مِنْهُمْ صَائِحاً فِي سُخْطٍ « اللَّعْنَةُ عَلَى « وَاشِنْطُنْ » .... دَعُونَا مِنْ ذِكْرِهِ وَاتْرُكُونَا

(١) أفاويق : جمع فيقة : ما اجتمع فى الضرع بين الحلبتين
(٢) مجتوى : مبغضا مكروها (٣) ينبرى : يتصدى .

مِنْهُ » ! وَمَا أَسَاءَ « وَاشِنْطُن » وَقَدْ أَحْسَنَ ، وَلَكِنَّ ذَلِكَ هُوَ دِفَاعُ الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ عَنْ نَفْسِهَا ، بَلْ تِلْكَ هِيَ الْقُوَّةُ الْمَرْكَزِيَّةُ الطَّارِدَةُ ، تَتَخَلَّصُ مِنْ مُقَاوَمَتِهَا . وَنَحْنُ قَدْ جُبِلْنَا عَلَى أَنْ نُوَارِثَ رَجُلاً بِرَجُلٍ ، وَنَدَعَ حَيَاتَنَا الْعَامَّةَ قَائِمَةً عَلَى التَّوَازُنِ ، مُتَوَقِّفَةً عَلَى أَرَاجِيحِ[1] الْعُظَمَاءِ ، بَيْنَ عُلُوٍّ وَخَفْضٍ ، وَارْتِفَاعٍ وَانْحِدَارٍ .

* * *

حصانة العبقرية

بَيْدَ أَنَّ هُنَاكَ حَدًّا سَرِيعاً لِفَضْلِ الْعُظَمَاءِ وَوَجْهِ الِانْتِفَاعِ بِالْأَبْطَالِ ، وَذَلِكَ أَنَّ كُلَّ عَبْقَرِيٍّ فِي وِقَاءٍ وَحِمًى مِنْ عَبْقَرِيَّتِهِ ، وَنَحْنُ لَنْ نَسْتَطِيعَ أَنْ نَجِدَهُ كُلَّمَا أَرَدْنَاهُ ، وَإِنَّ جَاذِبِيَّتَهُ لَتُوهِمُنَا أَنَّهُ مِنَّا قَرِيبٌ ،

(١) أى عدم ثباتهم على حالة واحدة . وتراوحهم بين مختلف الصفات

وَعِنْدَ طَلَبِنَا إِذَا طَلَبْنَا ، وَلَكِنَّا لَا نَكَادُ نَدْنُو حَتَّى نُمْنَعَ ، وَكُلَّمَا اجْتَذَبَنَا إِلَيْهِ ، رُدِدْنَا عَنْهُ ، لِأَنَّ هُنَاكَ شَيْئًا غَيْرَ مَحْسُوسٍ ، وَلَا مَادِيٍّ مَلْمُوسٍ ، فِي الْخَيْرِ الَّذِي يُؤَدَّى لَنَا ، فَإِنَّ أَفْضَلَ مُكْتَشَفٍ ، إِنَّمَا اكْتَشَفَهُ كَاشِفُهُ لِنَفْسِهِ ، وَإِنَّهُ لَيَظَلُّ خَيَالِيًّا بَعِيداً مِنَ الْحَقِيقَةِ ، حَتَّى يُخْرِجَهُ النَّاسُ مُحَقَّقاً ، بَارِزاً قَائِماً ، كَأَنَّ اللهَ قَدْ كَسَا كُلَّ نَفْسٍ بِشَمْلَةٍ مِنْ مَزَايَا وَصِفَاتٍ ، وَقِدْرَانٍ وَمَوَاهِبَ ، لَا تَتَحَوَّلُ إِلَى غَيْرِهَا مِنَ النُّفُوسِ ، وَكَأَنَّمَا قَدْ أَرْسَلَهَا إِلَى هَذَا الْعَالَمِ ، لِكَيْ تَقْطَعَ جُزْءاً مُعَيَّناً مِنْ دَائِرَةِ الْخَلِيقَةِ ، وَمُحِيطِ الْحَيَاةِ ، وَكَأَنَّمَا قَدْ كَتَبَ اللهُ عَلَى تِلْكَ الْأَرْدِيَةِ[1]

(١) الأردية : جمع رداء وهو الكساء .

الْمُخْتَلِفَةِ ، الَّتِي خَلَعَهَا عَلَى نُفُوسِ الْعُظَمَاءِ ، وَأَرْوَاحِ الْأَبْطَالِ « غَيْرُ قَابِلَةٍ لِلتَّحْوِيلِ أَوْ مُخَصَّصَةٌ بِهَذِهِ السِّيَاحَةِ فَقَطْ » ! وَإِنَّ فِي اتِّصَالِ الْعُقُولِ لَخَدْعَةً ، لِأَنَّ بَيْنَهَا حُدُوداً خَفِيَّةً ، وَلَكِنَّهَا عَلَى خَفَائِهَا الْمُسْتَدِقِّ لَا تُعْبَرُ يَوْماً وَلَا تُجْتَازُ ، وَقَدْ يَكُونُ ثَمَّ نُزُوعٌ طَيِّبٌ نَحْوَ الِاتِّصَالِ ، وَجُنُوحٌ[1] خَفِيٌّ نَحْوَ الْأَخْذِ وَالْإِعْطَاءِ ، حَتَّى لَيُخْشَى أَنْ يُصْبِحَ كُلُّ عَظِيمٍ أَوْ عَبْقَرِيٍّ صُورَةً مِنَ الْآخَرِ ، وَنُسْخَةً مِنْ غِرَارِهِ ، وَلَكِنَّ قَانُونَ الذَّاتِيَّةِ ، يَأْبَى إِلَّا أَنْ يُحْدِثَ حَدَثَهُ ، وَيَعْمَلَ عَمَلَهُ ، وَيُبْرِزَ مُجْتَمَعَ قُوَّتِهِ ، فَأَظَلُّ أَنَا آخِرَ الدَّهْرِ أَنَا ، وَتَبْقَى أَنْتَ أَنْتَ . . .

(١) جنوح : ميل .

✡
✡ ✡

حماية الطبيعة للفرد

وَذَلِكَ لِأَنَّ الطَّبِيعَةَ تُرِيدُ أَنْ يَظَلَّ كُلُّ شَيْءٍ بِذَاتِهِ ، وَبَيْنَمَا يُحَاوِلُ كُلُّ فَرْدٍ أَنْ يَنْمُوَ وَيَبْرُزَ وَيَنْفَرِدَ . وَيُرِيدُ كُلُّ فَرْدٍ أَنْ يَفْرِضَ قَانُونَ شَخْصِهِ وَخَلِيقَتِهِ ، وَكِيَانِهِ وَحَيَاتِهِ ، عَلَى كُلِّ مَخْلُوقٍ سِوَاهُ ، إِذْ تَأْبَى الطَّبِيعَةُ إِلَّا أَنْ تَحْمِيَ كُلَّ فَرْدٍ مِنْ غَيْرِهِ ، وَتَقِيَ كُلَّ ذَاتٍ مِنْ ذَاتٍ . وَكُلُّ نَفْسٍ عَلَيْهَا مِنْ نَفْسِهَا حَافِظٌ . وَمَا أَجَلَّ الْقُوَّةَ الَّتِي يَتَّقِي الْأَفْرَادُ بِهَا الْأَفْرَادَ ، فِي عَالَمٍ لَيْسَ أَسْهَلَ فِيهِ مِنْ أَنْ يُصْبِحَ الْمُحْسِنُ فِيهِ مُسِيئًا ، وَالْخَيِّرُ شِرِّيرًا ، وَالطَّيِّبُ رَدِيئًا . وَذَلِكَ بِأَنْ يُلْقِيَ بِنَشَاطِهِ ، وَيَقْذِفَ بِمَوَاهِبِهِ فِي مَوَاضِعَ لَيْسَتْ لَهُ ، وَنَوَاحٍ لَمْ تُخْلَقْ لِمِثْلِهِ . بَلْ فِي عَالَمٍ

أَكْثَرُ مَا يَلُوحُ[١] فِيهِ الْأَطْفَالُ خَاضِعِينَ لِمَشِيئَةِ آبَائِهِمُ الْحُمْقَى ، وَأَكْثَرُ مَا يَبْدُو فِيهِ النَّاسُ فُضُولِيِّينَ[٢] ، أَوْغَالاً[٣] مُتَهَالِكِينَ عَلَى الِامْتِزَاجِ وَالِاخْتِلَاطِ . وَلَقَدْ أَصَبْنَا إِذْ تَصَوَّرْنَا لِلْأَطْفَالِ وَالْوِلْدَانِ ، مَلَائِكَ حَارِسِينَ ، فَمَا أَرْفَعَهُمْ فِي الْحَقِّ ، وَأَسْمَاهُمْ فِي مَنَعَتِهِمْ وَحَصَانَتِهِمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ، وَمِنَ السُّوقِيَّةِ ، وَمِنْ فَاسِدِ الْآرَاءِ ، وَعَقِيمِ الْخَوَاطِرِ وَالتَّصَوُّرَاتِ . إِنَّهُمْ لَيَسْكُبُونَ أَرْوَاحَهُمُ الْحُلْوَةَ الْعَذْبَةَ فِيمَا يَتَنَاوَلُونَهُ ، وَيُضْفُونَ[٤] بِجَمَالِهِمُ الرَّمْزَ عَلَى الْأَشْيَاءِ الَّتِي يَنْظُرُونَهَا . وَهُمْ مِنْ هَذَا كُلِّهِ فِي مَأْمَنٍ مِنَ الْمُؤَدِّبِينَ السَّيِّئِينَ الْأَشْقِيَاءِ ، الَّذِينَ

(١) يلوح : يظهر (٢) الفضولى : الذى يتعرض لما لا يعنيه .
(٣) الأوغال : الضعاف الأدنياء . ومتهالكين : متهافتين
(٤) يضفون : يزيدون ويكثرون .

نَتعرَّضُ نَحْنُ الْكِبارَ لِسُلْطَانِهِمْ ، وَنَخْضَعُ لِتَأْدِيبِهِمْ ، وَإِنَّا لَنَزْجُرُهُمْ وَنُؤَنِّبُهُمْ ، فَلَا يَلْبَثُونَ أَنْ يَعْتَادُوا زَجْرَنَا ، وَيَأْلَفُوا تَأْنِيبَنَا ، فَلَا يُلْقُوا بَالاً إِلَيْهِ ، وَلَا هُمْ عَائِبُوهُ ، وَإِنَّمَا يَكْتَسِبُونَ الِاعْتِمَادَ عَلَى النَّفْسِ ، وَالثِّقَةَ بِالذَّاتِ . وَإِذَا نَحْنُ دَلَّلْنَاهُمْ ، وَأَسْرَفْنَا فِي إِطْلَاقِهِمْ وَمَشِيئَتِهِمْ ، إِلَى حَدِّ الْحَمَاقَةِ ، وَالنَّزَوَانِ[1] ، تَعَلَّمُوا هُمُ الْحُدُودَ وَالزَّوَاجِرَ مِنْ نَوَاحٍ أُخْرَى وَوُجُوهٍ .

* * *

لامهانة في خدمة العظيم

عَلَى أَنَّهُ لَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى الْخَوْفِ مِنَ السُّلْطَانِ الْكَثِيرِ ، وَالنُّفُوذِ الْبَعِيدِ الْمَدَى . بَلْ يَصِحُّ لَنَا أَنْ نَثِقَ بِالْعَظِيمِ ، الثِّقَةَ السَّمْحَةَ الْكَرِيمَةَ ، لِنَخْدِمَ

(١) النزوان : السورة والحدة

الْعُظَمَاءَ . بَلْ لِنَتَبَذَّلَ أَنْفُسَنَا فِي خِدْمَتِهِمْ ، وَلاَ نَقُلْ هَذَا تَحْقِيرٌ لِذَوَاتِنَا وَامْتِهَانٌ[1] ، وَلاَ نَحْبِسُ[2] صَنِيعاً عَنْهُمْ نَحْنُ فِي مَيْسُورِنَا أَنْ نُسْدِيَهُ . بَلْ لِنَكُنْ لَهُمْ بِمَثَابَةِ الْأَذْرُعِ وَالسُّوقِ مِنَ الْجُسُومِ وَالْأَبْدَانِ ، وَلْنَكُنِ الْأَنْفَاسَ مِنَ الْأَفْوَاهِ . وَلْنَرُضْ أَثَرَتَنَا ، وَلْنُرَاوِدْ أَنَانِيَّتَنَا ، إِذْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْبَأُ بِهَذَا ، إِذَا هُوَ اكْتَسَبَ مَا هُوَ أَسْمَى مِنْ أَنَانِيَّتِهِ ، وَأَرْفَعُ وَأَنْبَلُ وَأَعْظَمُ ؟ ! وَلاَ يَنْبَغِي أَنْ يَرُدَّنَا عَنِ التَّعَلُّقِ بِهِمْ مَخَافَتُنَا أَنْ نَفْقِدَ شَخْصِيَّتَنَا ، وَنَفْنَى فِيهِمْ فَنَاءَ « بوزول فى جونسون » ، فَمَا أَسْهَلَ أَنْ يَرُوحَ الْإِخْلَاصُ أَعْظَمَ وَأَرْوَعَ مِنَ الْكِبْرِيَاءِ الْبَلِيدَةِ ، الَّتِي تُحَاوِلُ حِرَاسَةَ حُدُودِهَا . . . كُنْ إِنْسَاناً آخَرَ ، كُنْ

(١) امتهان : اهانة (٢) نحبس : نمنع . والصنيع : المعروف

غَيْرَ مَا أَنْتَ . . . كُنْ أَفْلاَطُونِيًّا ، وَلَا تَكُنْ رُوحًا ، بَلْ كُنْ مَسِيحِيًّا ، وَلَا تَكُنْ صَبِيعِيًّا ، بَلْ كَارْتِيزِيًّا ، وَلَا تَكُنْ شَاعِراً ، بَلْ شِكِسْبِيرِيًّا ، فَعَبَثًا تَقِفُ عَجَلَاتُ الْجُنُوحِ وَالنَّزَعَاتِ عَنِ الْمَسِيرِ ، وَلَنْ تَسْتَطِيعَ أَنْ تَبْقَى فِي مَوْضِعٍ بِعَيْنِهِ ، أَوْ عَلَى حَالَةٍ بِذَاتِهَا ، مَهْمَا اسْتَغْنَتْ بِكُلِّ قُوَى الْجُمُودِ وَالْخَوْفِ ، بَلْ بِسُلْطَانِ الْحُبِّ ذَاتِهِ . فَأَنْتَ أَبَدًا مُتَحَوِّلٌ ، مُتَحَوِّلٌ لَا يَنْقَطِعُ تَحَوُّلُكَ ، وَلَا يَكُفُّ[1] مَسِيرُكَ وَتَقَدُّمُكَ ، إِنَّ الْمِجْهَرَ « الْمِيكْرُسْكُوبَ » ، لَيُبَيِّنُ وَيَكْشِفُ عَلَقَةً[2] بَيْنَ الْجَرَاثِيمِ الدَّوَّامَةِ الْحَوَّامَةِ فِي الْمَاءِ ، وَإِذَا الْعَلَقَةُ لَا تَلْبَثُ أَنْ تَنْمُوَ وَتَبْدُوَ مُخَلَّقَةً ، إِذَا هِيَ

(١) يكف : يمتنع (٢) علقة : قطعة دم .

بَعْدَ قَلِيلٍ ، حَيَوَانَاتٌ كَامِلَاتٌ خِلْقَةً وَتَكْوِينًا ، وَكَذَلِكَ لَا يَكُفُّ هَذَا الِانْفِصَالُ الدَّائِمُ فِي عَالَمِ الْفِكْرِ ، كَمَا لَا يَنْقَطِعُ دَأْبُهُ فِي الْجَمَاعَاتِ ، وَإِنَّ الْأَطْفَالَ لَيَتَصَوَّرُونَ أَنَّهُمْ غَيْرُ مُسْتَطِيعِينَ يَوْمًا الِافْتِرَاقَ عَنْ آبَائِهِمْ ، وَلَكِنْ لَا يَلْبَثُ الِانْفِصَالُ أَنْ يَتِمَّ قَبْلَ أَنْ يَكُونُوا بِهِ شَاعِرِينَ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ يُحِسُّونَ اسْتِقْلَالَهُمْ ، وَيَتَبَيَّنُونَ أَنَّهُمْ قَدْ تَحَرَّرُوا مِنْ ذَلِكَ السُّلْطَانِ الْقَدِيمِ .

* * *

العظماء والشباب

وَلَكِنْ فِي قَوْلِنَا « الرِّجَالُ الْعُظَمَاءُ . . . أَلَيْسَ فِيهِ مَا يَغُضُّ[1] مِنْ أَقْدَارِنَا ، وَيَجْرَحُ كَرَامَتَنَا ، وَيُؤْذِي عِزَّتَنَا وَمَشَاعِرَنَا ؟ ! أَتَنْطَوِي هَذِهِ الْكَلِمَةُ

(١) يغض : ينقص .

عَلَى عِبَادَةٍ ، أَمْ عَلَى دِينٍ ، أَمْ هُوَ قَدَرٌ مَقْدُورٌ ، وَلَوْحٌ مَسْطُورٌ ؟ ! وَمَا مَصِيرُ الْفَضِيلَةِ إِذَنْ وَوُعُودُهَا ؟ ؟ وَالرَّجَاءُ فِي الْخَيْرِ وَثِمَارِهِ ؟ ؟ إِنَّ الشَّابَّ الْمُفَكِّرَ لَيَحْزَنُ وَيَأْسَفُ عَلَى مَا فِي الطَّبِيعَةِ مِنْ حَشْوٍ وَنَافِلٍ ، وَزَائِدٍ عَنِ الْحَاجَةِ ، وَتَافِهٍ[1] لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ ، وَإِنَّهُ لَيَقُولُ إِنَّ بَطَلَكُمْ لَكَرِيمٌ ، وَإِنَّ عَظِيمَكُمْ لَجَمِيلٌ ، وَإِنَّ عَبْقَرِيَّكُمُ الْفَذَّ[2] لَنَادِرٌ وَجَلِيلٌ ، وَلَكِنِ انْظُرُوا إِلَى الْفَرْدِ الِاعْتِيَادِيِّ الْمِسْكِينِ الضَّعِيفِ ، الَّذِي كُلُّ الْوَطَنِ عِنْدَهُ فِي عَجَلَةِ[3] يَدِهِ ، بَلِ انْظُرُوا إِلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ الْمُؤَلَّفَةِ

(١) التافه : الشيء الحقير (٢) الفذ : الفرد الذى لا نظير له
(٣) فى عجلة يده : أى فى قبضة يده وتحت تصرفه

مِنْ أَمْثَالِهِ ، وَالشَّعْبِ الْمُجْتَمِعِ مِنْ أَشْبَاهِهِ وَمَنْ عَلَى شَاكِلَتِهِ . . . لَيْتَ شِعْرِى . . . لِمَاذَا قُضِىَ مِنْ فَجْرِ التَّارِيخِ إِلَى الْيَوْمِ ، أَنْ يَكُونَ الْجَمَاهِيرُ وَالدَّهْمَاءُ[1] طَعَاماً لِلْبَارُودِ وَغِذَاءً لِلْقَذَائِفِ[2] ، وَمُقْتَطَعاً لِلسُّيُوفِ الْبَاتِرَةِ[3] .

إِنَّ فِى ذَلِكَ لَتَمْجِيداً لِبِضْعَةٍ مِنَ الزُّعَمَاءِ ، لِأَنَّهُمْ أُوتُوا الْعَاطِفَةَ وَالرَّأْىَ ، وَالْحُبَّ وَاحْتِرَامَ الذَّاتِ ، بَلْ هُمُ الَّذِينَ يُجْعَلُونَ إِلَى الْحَرْبِ وَالْمَوْتِ مُقَدَّسِينَ . . . وَلَكِنْ مَاذَا تَقُولُ فِى أُولَئِكَ الْمَسَاكِينِ وَالضَّحَايَا التُّعَسَاءِ[4] ، الَّذِينَ يَسْتَاجِرُونَهُمْ ، وَيُعِدُّونَهُمْ طَعَاماً لِلنَّارِ ، وَيَهِيجُونَ فِى أَعْمَاقِهِمُ النُّزُوعَ

(١) الدهماء : عامة الناس (٢) القذائف : المقذوفات النارية
(٣) الباترة : القاطعة (٤) التعساء جمع تعيس : وهو منكود الحظ سيئه

الْبَاسِمَ[١] ، إِلَى مُلَاقَاةِ الْمَوْتِ ؟ ! إِنَّ الْإِنْسَانَ وَاللهِ لَرَخِيصٌ ، وَإِنَّ حَيَاتَهُ لَتَافِهَةٌ ، زَهِيدَةُ السِّعْرِ ، هَذِهِ هِيَ الْمَأْسَاةُ ، وَهَذِهِ هِيَ الْفَاجِعَةُ[٢] الدَّائِمَةُ فِي غَيْرِ زَوَالٍ ، وَمِنَ الْخَسَارَةِ حَقًّا وَالْمُؤْلِمِ فِي الْوَاقِعِ ، أَنْ يَكُونَ غَيْرُنَا ضِئَالًا ، لِأَنَّنَا نَحْنُ ضِئَالٌ ، إِذْ لَا غِنَى[٣] لَنَا عَنْ إِقَامَةِ الْمُجْتَمَعِ ، وَتَأْلِيفِ كِيَانِ الْجَمَاعَاتِ .

* * *

مدرسة المجتمع

أَفَهَذَا هُوَ الرَّدُّ عَلَى قَوْلِنَا : إِنَّ الْمُجْتَمَعَ هُوَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِمَدْرَسَةٍ بَاسْتَالُوزِيَّةٍ ، كُلُّ مَنْ فِيهَا مُعَلِّمُونَ وَتَلَامِيذُ بِالتَّنَاوُبِ وَالْأَدْوَارِ ، وَإِنَّ النَّفْعَ لَمَيْسُورٌ ،

(١) التزوع الباسم : الميل مع السرور (٢) الفاجعة : المصيبة
(٣) لا غنى : أى لا بد

وَالْفَائِدَةَ حَاصِلَةٌ ، سَوَاءٌ بِمَا نَأْخُذُ ، وَمَا نُعْطِي وَمَا نَتَلَقَّى وَمَا نَحْنُ دَافِعُوهُ ، وَإِنَّ الَّذِينَ يَتَسَاوَوْنَ فِي مَبْلَغِ الْعِلْمِ ، وَيَتَشَابَهُونَ فِي جُمْلَةِ الْمَعْرِفَةِ ، لاَ يَطُولُ احْتِمَالُ بَعْضِهِمْ رِفْقَةَ الآخَرِينَ ، وَلَكِنْ وَكِّلْ بِأَحَدِهِمْ رَجُلاً ذَكِيًّا ، جَرَّبَ مَا لَمْ يُجَرِّبْهُ ، وَاخْتَبَرَ مِنَ الْحَيَاةِ مَا لاَ عِلْمَ لَهُ بِهِ ، فَكَأَنَّكَ أَطْلَقْتَ الْمَاءَ يَتَدَفَّقُ مِنَ الْبُحَيْرَةِ بِقَطْعِ مَجْرًى تَحْتَهَا ، وَاحْتِفَارِ قَنَاةٍ دُونَ مُسْتَوَاهَا ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَفَائِدَةً هَيِّنَةً فِي غَيْرِ جَهْدٍ ، وَمَنْفَعَةً مَكْفُولَةً بِغَيْرِ عَنَاءٍ ، وَإِنَّ كُلاًّ مِنْهُمَا يَوْمَئِذٍ لَيَسْتَطِيعُ تَصْوِيرَ خَاطِرِهِ لِنَفْسِهِ ، وَالتَّفْكِيرَ فِي خَلْوَةٍ بِمُفْرَدِهِ ، وَنَحْنُ مَا أَسْرَعَ مَا نَنْتَقِلُ فِي أَطْوَارِنَا الْخَاصَّةِ مِنْ حَالَةِ الاِسْتِغْنَاءِ وَالْعِزَّةِ ، إِلَى حَالَةِ

الاعْتِمَادِ ، وَالاسْتِضْعَافِ وَالْهَوَانِ[١] . فَإِذَا رَأَيْتَ فَرْداً لاَ يُرِيدُ إِطْلاَقاً أَنْ يَتَّخِذَ مَكَانَ الرِّيَاسَةِ ، وَإِنَّمَا يَظَلُّ أَبَدًا وَاقِفاً عَلَى سَاقَيْهِ ، مُسْتَوِياً عَلَى قَدَمَيْهِ ، لِيَخْدُمَ وَيَتْعَبَ وَيَكِدَّ ، فَاعْلَمْ أَنَّ السِّرَّ فِى ذَلِكَ : أَنَّنَا لاَ نَرَى الْجَمَاعَةَ ، وَلاَ نُلاَحِظُهَا الْفَتْرَةَ الْكَافِيَةَ ، الَّتِى تَسْتَغْرِقُهَا دَوْرَةُ التَّنَاوُبِ ، حَتَّى يَبْلُغَ كُلُّ امْرِىءٍ فِيهَا دَوْرَهُ حِينَ يُوَافِيهِ ، وَمَا نَحْنُ فِى قَوْلِنَا الْجَمَاهِيرَ وَالدَّهْمَاءَ ، وَالنَّوَاتِىَّ[٢] وَالاعْتِيَادِيِّينَ بِمُصِيبِينَ ، فَلَيْسَ فِى الْعَالَمِ دَهْمَاءُ وَلاَ اعْتِيَادِيُّونَ ، لِأَنَّ النَّاسَ جَمِيعاً يُصْبِحُونَ فِى نِهَايَةِ الْمَطَافِ[٣] أَشْبَاهاً وَأَمْثَالاً ، وَمُتَعَادِلِينَ فِى الْحُجُومِ وَالْأَقْدَارِ ، وَلاَ يَتَوَاتَى الْفَنُّ

(١) الهوان : الصغار والذل (٢) النواتى : الملاحون
(٣) المطاف : الطواف

الصَّادِقُ الصَّحِيحُ ، إِلاَّ بِالاقْتِنَاعِ بِأَنَّ لِكُلِّ نُبُوغٍ رِفْعَةَ قِيمَتِهِ ، وَإِلاَهِيَّةَ[1] عُنْصُرِهِ وَمِقْدَارِهِ ، وَجَوْهَرِهِ فِي نَاحِيَةٍ أُخْرَى مِنْ نَوَاحِيهِ . وَلِكُلِّ مَوْهِبَةٍ مَظْهَرُهَا وَجَلاَلُهَا فِي جِهَةٍ غَيْرِ الْجِهَةِ الظَّاهِرَةِ ، وَمَوْضِعٍ غَيْرِ الْمَوْضِعِ الْمَعْرُوفِ ، وَإِذَا كَانَ الْمَجَالُ الْفَسِيحُ لِلنُّبُوغِ ، وَالْمَيْدَانُ الْمُتَرَامِي لِلْعَظَمَةِ ، وَالْمُضْطَرَبُ الْوَاسِعُ لِلْبُطُولَةِ ، وَأَجْمَلُ الأَكَالِيلِ وَأَنْضَرُ[2] تِيجَانِ الْغَارِ لِكَافَّةِ الَّذِينَ اكْتَسَبُوهَا ، وَسَائِرِ الَّذِينَ ظَفِرُوا بِهَا ، فَإِنَّ السَّمَاءَ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ تَحْتَفِظُ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ بِمَجَالِهِ ، وَتُعِدُّ لِكُلِّ امْرِئٍ مَيْدَانَهُ الْمُنَاسِبَ ، وَمُضْطَرَبَهُ الْخَلِيقَ[3] بِهِ . وَكُلُّ إِنْسَانٍ

(١) الاهية عنصره : تقديس أصله (٢) أنضر التيجان : أحسنها وأجلها والغار : الجمع الكثير الناس (٣) الخليق : الجدير

قَلِقٌ هَائِجُ النَّفْسِ ، ضَجِرٌ مُتَحَفِّزٌ[١] ، حَتَّى يُؤَاتِيَهُ إِحْدَاثُ شُعَاعِهِ الْخَاصِّ فِي أُفُقِ الْحَيَاةِ ، وَحَتَّى يَشْهَدَ مَا هُوَ مُيَسَّرٌ لَهُ ، مُؤْتِيًا ثَمَرَتَهُ ، بَالِغًا أَوْجَهُ ، مُوفِيًا عَلَى نِهَايَتِهِ ، وَآخِرِ حُدُودِ نَبَالَتِهِ وَرِفْعَتِهِ .

* * *

رجال الساعة

إِنَّ أَبْطَالَ الْعَصْرِ ، وَرِجَالَ السَّاعَةِ ، هُمْ بِالنِّسْبِيَّةِ عُظَمَاءُ ، وَإِنَّ عَظَمَتَهُمْ لَأَسْرَعُ نُمُوًّا وَزَكَاوَةً مِنْ سِوَاهُمْ . بَلْ إِنَّهُمْ لَكَذَلِكَ فِي حَيْثُمَا تَكُونُ صِفَةٌ مِنَ الصِّفَاتِ ، وَفْقَ حَاجَةِ الْعَصْرِ ، وَمَطْلَبِ الْيَوْمِ ، وَمُقْتَضَى السَّاعَةِ . وَفِي حَيْثُمَا تَنْضَجُ الْمَوَاهِبُ فِي لَحَظَاتِ التَّوْفِيقِ ، وَآنَاءِ النَّجَاحِ . وَلِكُلِّ أَيَّامٍ مَطَالِبُ أُخْرَى مِنَ الصِّفَاتِ ، وَلِكُلِّ أَزْمِنَةٍ مُقْتَضَيَاتٌ

(١) متحفز : متهيء للوثوب

تُناسِبُهَا مِنَ الْمَزَايَا ، وَالْمَوَاهِبِ وَالنَّزَعَاتِ . وَقَدْ تَفُوتُ بَعْضُ الْأَشِعَّةِ وَالْأَضْوَاءِ نَظَرَ الْفَرْدِ الِاعْتِيَادِيِّ فَلَا يَرَاهَا ، وَتُجَاوِزُهُ فَلَا يَشْهَدُهَا ، لِأَنَّهَا تَحْتَاجُ إِلَى عَيْنٍ نَفَّاذَةٍ[1] لِتَكْشِفَهَا ، وَتَقْتَضِي بَصَرًا حَدِيدًا لِيَهْتَدِيَ إِلَيْهَا . وَاسْأَلُوا الرَّجُلَ الْعَظِيمَ هَلْ ثَمَّ[2] مَنْ هُمْ أَعْظَمُ مِنْهُ ، فَإِنَّ رُفَقَاءَهُ هُمْ كَذَلِكَ ، وَمَا هُمْ بِأَقَلَّ عَظَمَةً مِنْهُ . بَلْ إِنَّهُمْ لَأَسْمَى مِنْهُ فِيهَا ، وَأَكْبَرُ مِنْهُ نَصِيباً . وَلَكِنَّ الْمُجْتَمَعَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرَاهُمْ ، وَالنَّاسُ عَنْهُمْ حَسِيرُوا[3] الْأَبْصَارِ . وَمَا تَبْعَثُ الطَّبِيعَةُ يَوْمًا بِعَظِيمٍ إِلَى هَذِهِ الْأَرْضِ ، إِلَّا كَشَفَتْ لِنَفْسٍ أُخْرَى عَنْ سِرِّهِ ، وَخَبِيئَةِ حَقِيقَتِهِ .

(١) نفاذة : حادة (٢) ثم : اسم إشارة بمعنى هناك (٣) حسيروا الأبصار : كليلو النظر ضعفاؤه

✡
✡ ✡

السمو الحقيقي

وَفِي هَذَا الْبَحْثِ الَّذِي تَنَاوَلْنَاهُ ، تَنْبَعِثُ حَقِيقَةٌ جَلِيلَةٌ كَبِيرَةُ الشَّأْنِ ، وَهِيَ : إِنَّ السُّمُوَّ الْحَقِيقِيَّ هُوَ فِي الْحُبِّ ، وَسَيَأْتِي يَوْمٌ يُذْكَرُ فِيهِ نُبُوغُ الْقَرْنِ التَّاسِعَ عَشَرَ ، لِلتَّدْلِيلِ عَلَى وَحْشِيَّتِهِ وَخَلَائِهِ مِنَ الْحَضَارَةِ ، وَتَجَرُّدِهِ مِنَ السُّمُوِّ وَالرِّفْعَةِ وَالْإِحْسَانِ ، فَإِنَّ عَبْقَرِيَّةَ الْبَشَرِ ، هِيَ الْمَوْضُوعُ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي كُتِبَتْ تَرْجَمَتُهُ ، وَدُوِّنَتْ سِيرَتُهُ فِي تَارِيخِنَا . وَإِنَّ فِيهِ لَثُغُرَاتٍ كَثِيرَةً وَفَرَاغًا كَبِيراً ، مَضَى بِغَيْرِ سَدَادٍ . وَلَا يَزَالُ بِحَاجَةٍ إِلَى مَا يَمْلَأُ فَجَوَاتِهِ[1] ، وَيَسْتَوْفِي نَقْصَهُ . وَإِنَّ تَارِيخَ الْعَالَمِ لَتَغْلِبُ فِيهِ الْأَغْرَاضُ ،

(١) فجوات : فتحات

وَالْبَوَادِرُ[١] وَالْعَلَامَاتُ، أَكْثَرَ مِمَّا تَبْدُو فِيهِ الْحَقَائِقُ، وَالْجَوَاهِرُ، وَالِاسْتِكْمَالُ. وَإِنَّ الْحَيَاةَ لَمَعْرِضٌ، فَمَا مِنْ رَجُلٍ فِي كُلِّ مَوَاكِبِ[٢] الْعُظَمَاءِ، وَالْأَعْلَامِ وَالْأَبْطَالِ، هُوَ الْعَقْلُ الْكَامِلُ، وَالْعِرْفَانُ التَّامُّ، وَالضِّيَاءُ السَّاطِعُ، وَالنُّورُ اللَّامِعُ. بَلْ مَا مِنْ رَجُلٍ هُوَ الْجَوْهَرُ الَّذِي نَتَطَلَّعُ إِلَيْهِ، وَالْمَثَلُ الْأَعْلَى الَّذِي نَنْشُدُهُ[٣]. وَلَكِنَّهُ عَلَى أَكْثَرِ تَقْدِيرٍ لَيْسَ إِلَّا مَعْرِضًا، أَوْ أُنْمُوذَجًا، أَوْ قَرِيبًا مِمَّا كُنَّا نَنْتَظِرُهُ، أَوِ احْتِمَالًا فِي طَرِيقِ مَا نَبْحَثُ عَنْهُ، وَشُرُوعًا فِيمَا نَحْنُ مُلْتَمِسُوهُ. أَفَسَيَأْتِي يَوْمٌ يُتَاحُ[٤] لِلْإِنْسَانِيَّةِ فِيهِ أَنْ تَسْتَكْمِلَ الصُّورَةَ الرَّائِعَةَ الْعَظِيمَةَ، الَّتِي لَمْ تَكُنْ

(١) بوادر كل شيء: أوائله (٢) مواكب: محافل
(٣) ننشده: نطلبه (٤) يتاح: يهيأ

هَذِهِ الْجُزْئِيَّاتُ الْمُتَعَدِّدَةُ إِلَّا مَوَاضِعَ مِنْهَا، أَوْ نَوَاحِيَ فِيهَا، أَوْ نُقَطًا مُشَوِّهَةً لَهَا.

* * *

تاريخ العظماء

إِنَّ دِرَاسَةَ تَوَارِيخِ الْعُظَمَاءِ، تُؤَدِّي بِنَا إِلَى إِقْلِيمٍ عُنْصُرِيٍّ، وَنَاحِيَةٍ نَوْعِيَّةٍ، يَتَلَاشَى[1] فِيهَا الْفَرْدُ، وَلَا يَعُودُ عِنْدَهَا ظَاهِراً بَادِياً، بَلْ عِنْدَهَا يَتَلَاقَى الْعُظَمَاءُ جَمِيعاً مُتَسَاوِي الْقِمَمِ، وَتَقِفُ صُفُوفُهُمْ مُتَقَارِبِي الرُّؤُوسِ، مُتَعَادِلِي الْهَامِ، وَإِنَّمَا كُلُّ سِرِّ عَظَمَةِ الْعُظَمَاءِ أَوْ أَرْفَعِهِمْ عَظَمَةً، أَنَّ أَرْوَاحَهُمْ تَنْشُرُ نَفْسَهَا، وَتَتَمَدَّدُ وَتَسْرِي، وَتُذِيعُ وَتَنْبُتُ فِي غَيْرِهَا، وَإِنَّ الْمَوْهِبَةَ الْعَقْلِيَّةَ الْجَدِيدَةَ

(١) يتلاشى: يمحى

لَتَطُوفُ وَتَحُومُ[١] ، وَتَجُوبُ وَتَتَنَقَّلُ فِي دَوَائِرَ وَمُحِيطَاتٍ مُتَرَامِيَةٍ مِنْ نُقَطِ ابْتِدَائِهَا ، وَمَرْكَزِ أَصْلِهَا ، وَمُنْبَعِثِهَا وَنُشُوئِهَا ، فَتَنْتَشِرُ بِوَسَائِلَ مَجْهُولَةٍ ، وَتَعُمُّ وَتُعْلِنُ عَنْ ذَاتِهَا ، وَمَا أَوْثَقَ وَحْدَةَ الْعُقُولِ جَمِيعاً ، وَأَجْلاَهَا[٢] ظُهُوراً وَأَدَقَّهَا رَابِطَةً ، فَمَا يَتَّصِلُ بِأَحَدِهَا لاَ يَمْتَنِعُ عَنْ سَائِرِهَا ، وَأَيْنَمَا يَتَأَتَّى الظَّفَرُ بِبَعْضِ الْحَقِيقَةِ ، أَوْ بَعْضِ الْفَضْلِ وَالإِحْسَانِ فِي نَاحِيَةٍ مَا أَوْ دَائِرَةٍ بِذَاتِهَا ، تَعُمُّ الْفَائِدَةُ مَجْمُوعَةَ النُّفُوسِ ، وَيَسْرِي خَيْرُهَا إِلَى كَافَّةِ الأَرْوَاحِ .

* * *

إِنَّ عَبْقَرِيَّةَ الْبَشَرِ ، أَوْ عَظَمَةَ الإِنْسَانِيَّةِ هِيَ عظمة الانسانية

(١) تحوم : تدور (٢) أجلاها : أوضحها

أَحَقُّ مَوْضِعٍ بِالنَّظَرِ فِي مَجْمُوعَةِ التَّارِيخِ الْإِنْسَانِيِّ كُلِّهِ ، فَإِنَّ الصِّفَاتِ تَبْقَى ، وَالْأَفْرَادَ يَفْنَوْنَ وَيَتَلَاشَوْنَ ، وَكُلُّ مَوْهِبَةٍ فِي ذَاتِهَا ، تَعْمُرُ وَتَمْكُثُ ، وَإِنْ ذَهَبَ الَّذِي عَرَضَهَا وَظَهَرَتْ فِيهِ ، وَتَلَاشَى مِنْ هَذَا الْعَالَمِ ، وَمَرَّ فِي مَوَاكِبِ النُّبُوغِ ، حَتَّى غَابَ عَنِ الْبَصَرِ ، وَتَوَارَى بِالْحِجَابِ . بَلْ إِنَّ الصِّفَاتِ وَالْمَزَايَا ، لَتَبْقَى حَتَّى تَبْدُوَ عَلَى جَبِينٍ غَيْرِ ذَلِكَ الْجَبِينِ ، وَعَقْلٍ غَيْرِ ذَلِكَ الْعَقْلِ ، وَهَذَا هُوَ مَا شُوهِدَ فِي الْعَالَمِ ، وَجُرِّبَ فَلَا رَيْبَ فِيهِ ، وَلَا شَكَّ يُمَارِيهِ[1] ، وَإِنَّ الْأَوَانِيَ الَّتِي تَقْرَأُ عَلَيْهَا شَارَاتٍ مُقَدَّسَةً ، وَرُمُوزًا غَرَائِبَ ، قَدْ يَتَبَيَّنُ لَكَ

(١) يماريه : يعارضه .

بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهَا لَيْسَتْ سِوَى أَوْعِيَةٍ مِنْ مَأْلُوفِ الصَّلْصَالِ، وَشَائِعِ الْخَزَفِ[١]، وَلَكِنَّ رُوحَ الصُّوَرِ نَفْسِهَا هِيَ الْمُقَدَّسَةُ . وَقَدْ تَظَلُّ تَقْرَؤُهَا مُتَحَوِّلَةً مُتَنَقِّلَةً إِلَى جُدْرَانِ الْعَالَمِ وَحَوَائِطِهِ ، وَإِنَّ هُدَاتَنَا وَمُعَلِّمِينَا ، وَعُظَمَاءَنَا وَنَوَابِغَنَا ، لَيَظَلُّونَ فَتْرَةً مِنَ الدَّهْرِ يَخْدُمُونَنَا وَيُهَذِّبُونَنَا ، وَيُزَكُّونَنَا بِأَشْخَاصِهِمْ ، وَيُلُوحُونَ بِمَثَابَةِ أَعْلَامٍ ، وَشُخُوصٍ مَاثِلَةٍ[٢] عَلَى طَرِيقِ التَّقَدُّمِ ، أَشْبَهَ شَيْءٍ بِبَيَانِ الْأَمْيَالِ وَالْفَرَاسِخِ عَلَى جَوَانِبِ الطُّرُقِ الْحَدِيدِيَّةِ ، وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ رُسُلَ الْمَعْرِفَةِ ، وَأَقْيَالَ[٣] الْعِلْمِ ، وَمَصَابِيحَ الْهُدَى

(١) الخزف : الصينى (٢) ماثلة : قائمة (٣) أقيال : جمع قيل وهو الرئيس دون الملك

وَكَانَتْ شُخُوصُهُمْ وَقُدُودُهُمُ الرَّفِيعَةُ ، تَلْمِسُ السُّحُبَ ، وَتَذْهَبُ صُعُدًا بِرُؤُوسِهَا فِي السَّمَاءِ ، فَلَمَّا اقْتَرَبْنَا مِنْهُمْ رَأَيْنَاهُمْ عَلَى حَقَائِقِهِمْ ، وَأَبْصَرْنَا مَقَادِيرَ عُلُومِهِمْ وَثَقَافَاتِهِمْ ، وَحُدُودَ مَعْرِفَتِهِمْ ، وَإِذَا هُمْ يُسَلِّمُونَ مَوَاضِعَهُمْ لِعُظَمَاءَ آخَرِينَ ، وَيُخَلِّفُونَ أَمَاكِنَهُمْ لِنَوَابِغَ وَعَبَاقِرَةَ سِوَاهُمْ ، وَالْفَائِزُونَ الْفَائِزُونَ هُمُ الْقِلَّةُ الَّذِينَ تَبْقَى أَسَامِيهِمْ عَلَى أَوْجِهَا[1] عَالِيَاتٍ مُتَسَامِيَاتٍ ، نَعْجِزُ عَنْ مَعْرِفَتِهِمْ لِعَجْزِنَا عَنِ الدُّنُوِّ مِنْهُمْ ، وَالدَّلَفِ[2] إِلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَسْتَطِعِ الدَّهْرُ بِأَجْيَالِهِ وَأَحْقَابِهِ[3] الْمُتَلَاحِقَةِ ، وَلَا الرُّفَقَاءُ وَالْأَشْبَاهُ

(١) الأوج : الارتفاع (٢) الدلف : السراع
(٣) الأحقاب : السنين

وَالنُّظَرَاء، أَنْ يَسْلُبُوهُمْ شُعَاعًا[1] مِنْ أَشِعَّتِهِمُ السَّاطِعَةِ الَّتِي لاَ تَنْطَفِئُ يَوْمًا، وَلاَ تَغِيمُ وَلَا تَغِيبُ آخِرَ الْحَيَاةِ

وَلَكِنْ فِي النِّهَايَةِ سَنَكُفُّ عَنِ التَّطَلُّعِ فِي الْعُظَمَاءِ وَالنَّوَابِغِ إِلَى الْكَمَالِ، قَامِنِينَ[2] بِصِفَاتِهِمُ الْإِنْسَانِيَّةِ، رَاضِينَ عَنْ قِيَامِهِمْ، مُمَثِّلِينَ لِأَنْوَاعِهِمْ، نَائِبِينَ عَنْ صُنُوفِهِمْ، أَمْثِلَةً وَنَمَاذِجَ لِضُرُوبِهِمْ، وَفِرَقِهِمُ الْمُخْتَلِفَةِ.

* * *

أثر النبوغ

إِنَّ كُلَّ مَا يَتَّصِلُ بِالْفَرْدِ عَارِضٌ زَائِلٌ، مُفْتَرَضٌ مُؤَمَّلٌ كَالْفَرْدِ ذَاتِهِ، الْخَارِجِ مِنْ حُدُودِهِ إِلَى

(١) شعاعا: ضوءاً (٢) قامنين: جديرين متيقنين.

الدَّائِرَةِ الْعَامَّةِ ، وَالْوُجُودِ الْجَامِعِ الشَّامِلِ ، وَمَا أُتِيحَ لَنَا يَوْماً أَنْ نَبْلُغَ خَبَرَ مَا عِنْدَ النَّابِغَةِ ، وَلَا أَنْ نُصِيبَ أَقْصَى الِانْتِفَاعِ ، وَأَفْضَلَ الِاسْتِفَادَةِ بِهِ ، لِأَنَّنَا ظَلَلْنَا نَنْظُرُ إِلَيْهِ كَقُوَّةٍ جَدِيدَةٍ ، وَنَعُدُّهُ نَوْعاً طَرِيفاً مُبْتَكَراً مِنَ النُّبُوغِ ، مَعَ أَنَّهُ يَوْمَ يَكُفُّ عَنْ خِدْمَتِنَا وَنَفْعِنَا كَعِلَّةٍ وَسَبَبٍ ، يَبْتَدِئُ يَخْدُمُنَا وَيَنْفَعُنَا كَمَعْلُولٍ وَنَتِيجَةٍ ، وَيَوْمَئِذٍ يَبْدُو لَنَا أَوْسَعَ عَقْلًا ، وَأَفْسَحَ مَدَى ذَكَاءً ، وَأَكْبَرَ مَشِيئَةً وَإِرَادَةً ، بَلْ يَوْمَئِذٍ تَسْتَحِيلُ النَّفْسُ الْمُعْتِمَةُ[1] الْقَاتِمَةُ ، نَفْساً شَفَّافَةً يَخْطِفُ[2] عَلَيْهَا ضِيَاءُ اللهِ ، أَوِ الْمُنْشِئُ الْأَوَّلُ ، وَالْخَلَّاقُ الْعَظِيمُ .

(١) المعتمة : المظلمة . والقاتمة : الشديدة الظلمة (٢) يخطف: يمر سريعاً

عَلَى أَنَّنَا فِى حُدُودِ الْعِلْمِ الإِنْسَانِىِّ وَوَسَائِلِ الْبَشَرِيَّةِ الْمَحْدُودَةِ، يَصِحُّ لَنَا أَنْ نَقُولَ: إِنَّ الْعُظَمَاءَ إِنَّمَا يُوجَدُونَ وَيَظْهَرُونَ، لِكَىْ يُوجَدَ وَيَظْهَرَ مَنْ يَرُوحُونَ أَعْظَمَ مِنْهُمْ، فَإِنَّ نَامُوسَ الطَّبِيعَةِ إِنَّمَا يَعْمَلُ عَلَى التَّحْسِينِ وَالتَّرَقِّى، وَالتَّعْدِيلِ وَالتَّهْذِيبِ، فَمَنْ ذَا الَّذِى يُدْرِكُ إِلَى أَىِّ حَدٍّ يَصِلُ، وَمَنْ ذَا الَّذِى يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَ أَىَّ مَدًى هُوَ بَالِغٌ . ؟ ؟

* * *

محاربة الفوضى

وَمَا عَلَى الْإِنْسَانِ إِلاَّ أَنْ يُحَارِبَ الْفَوْضَى، وَيُنَظِّمَ الْحَيَاةَ، وَيُهَذِّبَ الدُّنْيَا، بَلْ إِنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَنْشُرَ فِى كُلِّ نَاحِيَةٍ وَفِى جَمِيعِ الْجِهَاتِ مِنْ حَوْلِهِ،

وَطِيلَةَ مَدَى حَيَاتِهِ ، بُذُورَ الْعِلْمِ وَالْعِرْفَانِ وَالْفَضِيلَةِ ، لِكَيْ يَسْتَحِيلَ الْمُنَاخُ وَالنَّبَاتُ ، وَالْحَيَوَانُ وَالإِنْسَانُ ، أَخَفَّ وَأَرْفَقَ وَأَلْيَنَ ، وَأَرَقَّ طِبَاعاً وَخَاصِّيَّةً وَمِزَاجًا ، وَهِيَ تَتَكَاثَرُ جَرَاثِيمَ الْحُبِّ ، وَيَنْمُو الْخَيْرُ وَالصَّلاَحُ ، وَيَتَوَالَدُ الْفَضْلُ وَالنَّفْعُ وَالْفَائِدَةُ ؟

* * *

وَإِنَّ سِيَاقَ الْحَدِيثِ يُلْزِمُنَا أَنْ نُطَالِعَكَ عَلَى رِسَالَةٍ ضَافِيَةٍ أُخْرَى .

رِسَالَةٌ أُخْرَى ضَافِيَةٌ[1]

فِي الرَّدِّ عَلَى إِيمِرْسُونَ سَيِّدِ كُتَّابِ أَمْرِيكَا الْمُحْدَثِينَ

بِقَلَمِ النَّقَّادَةِ الْأَدِيبِ الإِنْكِلِيزِيِّ الْكَبِيرِ

جِيمْسْ أَنْتُونِي فِرُودْ

الرد على ايمرسون

مِنْ سَانْتِ أَنْسِلْمِ إِلَى الْمِسْتِرْ إِيمِرْسُونَ ، أَوْ بِعِبَارَةٍ أُخْرَى مِنْ « اكْتَاسَانْتُورَمْ » رَأْيِ تَرَاجِمِ الْقِدِّيسِينَ وَالْأَوْلِيَاءِ الصَّالِحِينَ ، إِلَى كُتَّابِ الْعُظَمَاءِ الْمُمَثِّلِينَ لِأَنْوَاعِهِمْ ، رِحْلَةٌ طَوِيلَةٌ نَعْبُرُ بِهَا سَبْعَةَ قُرُونٍ سَوِيًّا[2] . وَبَيْنَ هَذَيْنِ الْعَهْدَيْنِ ، قَدِ انْقَرَضَ

(١) ضافية : مسهبة (٢) سانت انسلم فيلسوف مشهور من الفلاسفة الدينيين فى أوائل القرن الحادى عشر وقد اشترك فى تكملة مجموعة تراجم القديسين المسماة « اكتاسانتورم » بينما عاش ايمرسون فى القرن التاسع عشر فبينهما اذن ثمانية قرون لا سبعة كما قال فرود والعظماء الممثلون لانواعهم فى رسالة ايمرسون التى مرت بك .

النَّوْعُ الْقَدِيمُ مِنَ الْمُثُلِ الْعُلْيَا ، وَالنَّمَاذِجِ الصَّالِحَةِ لِلْعُظَمَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ ، كَمَا انْقَرَضَتِ الزَّوَاحِفُ الَّتِي كَانَتْ تَدِبُّ فِي هَذَا الْعَالَمِ قَبْلَ ظُهُورِ الإِنْسَانِ ، وَهَا نَحْنُ الْيَوْمَ أَمَامَ نَمَاذِجَ أُخْرَى، وَصُنُوفٍ مُغَايِرَةٍ ، وَأَنْوَاعٍ مُحْدَثَةٍ(١) ، نُرِيدُ أَنْ نَنْظُرَ فِيهَا ، وَنَسْتَمِدَّ مِنْهَا ، وَنَتَشَجَّعَ بِوُجُودِهَا .

فَالْفَيْلَسُوفُ ، وَالدِّينِيُّ ، وَالشَّاعِرُ ، وَالْمُتَشَكِّكُ ، وَالدُّنْيَوِيُّ ، وَالْكَاتِبُ ، هِيَ الْأَنْوَاعُ النُّمُوذَجِيَّةُ الْحَدِيثَةُ ، أَوِ الْأَمْثِلَةُ النَّوْعِيَّةُ ، الَّتِي رَتَّبَهَا الْمِسْتِرْ « إِيمِرْسُونَ » وَنَسَقَ(٢) فِهْرِسَهَا ، وَهُوَ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ نَظَرْتَ إِلَيْهِ « كَتَالُوجٌ » اسْتِثْنَائِيٌّ ، وَفِهْرِسٌ مُبْتَدَعٌ

(١) محدثة : جديدة (٢) نسق الكلام : رتبه .

جَدِيدٌ . وَأَوَّلُ مَا يبْدَهُكَ[١] مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ ، أَنَّهُمْ جَمِيعاً مُفَكِّرُونَ خَلَا وَاحِدًا ، وَلَيْسَ الْفِكْرُ بِالَّذِي يَسْتَوِي فِي الْمُوَازَنَةِ وَالْعَمَلِ . وَمَا اكْتَسَبَ الْقِدِّيسُونَ أَلْقَابَ قَدَاسَتِهِمْ بِسَبَبِ عَدَدِ كُتُبِهِمْ ، وَمُؤَلَّفَاتِهِمْ ، وَدَفَاتِرِهِمْ ، وَتَعْلِيقَاتِهِمْ[٢] .

وَإِذَا كَانَتْ ضَرُورَاتُ الْحَيَاةِ هِيَ الَّتِي اسْتَنْفَرَتْ أَفَاضِلَ النَّاسِ وَأَخْيَارَهُمْ ، مِنْ مَيَادِينِ الْعَمَلِ إِلَى دَائِرَةِ الْفَلْسَفَةِ وَالشِّعْرِ ، فَذَلِكَ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ ، وَلِلْعَالَمِ كُلِّهِ ،

* * *

نابليون بونابرت

وَلَيْسَ فِي مَجْمُوعَةِ الْعُظَمَاءِ الَّذِينَ تَحَدَّثَ «إِيمِرْسُونَ» عَنْهُمْ ، غَيْرُ رَجُلٍ عَمَلِيٍّ وَاحِدٍ وَهُوَ «نَابِلْيُونُ بُونَابَرْتَ»

(١) يبدهك . يبدؤك ويفاجئك (٢) مفردها تعليقة وهى الكراسات التى تدون فيها الافكار ، والمحصول العلمى وقد كان الغزالى يسميها كذلك وقد اقتبسناها هنا لمطابقتها المعنى المراد .

وَمَا أَحْسَبُهُ بِالشَّخْصِ الَّذِي يَصْلُحُ كَمَا يَشْعُرُ الْيَوْمَ أَكْثَرُنَا ، لِكَيْ يَكُونَ مِثَالاً يُحْتَذَى ، أَوْ نُمُوذَجًا يُتَرَسَّمُ ، أَوْ يُهْتَدَى بِهِ . وَلَقَدْ كَانَ خَيْرًا لِلْمِسْتِرْ « إِيمِرْسُونْ » أَنْ يَقْتَصِرَ فِي بَيَانِ عُظَمَائِهِ ، عَلَى جَانِبِهِ مِنَ الْمُحِيطِ الْأَطْلَسِيِّ ، فَإِنَّهُ لَعَمْرُ الْحَقِّ قَدْ غَضَّ مِنْ كَرَامَةِ بِلَادِهِ ، بِالْتِمَاسِ أَبْطَالِهِ وَعُظَمَائِهِ فِي أُورُوبَّا كُلِّيَّةً . وَلَقَدْ كَانَ مُؤَدِّيًا إِلَيْنَا فِي أُورُبَّا صَنِيعًا أَجْمَلَ ، وَجَمِيلًا أَحَقَّ وَأَصْدَقَ . لَوْ أَنَّهُ حَدَّثَنَا وَقَصَّ عَلَيْنَا طَرَفًا[1] مِنْ أَخْبَارِ رِجَالِ الْغَابَاتِ فِي وِلَايَةِ « أُوهَيُو » أَوْ حَطَّابِي الْأُجُمِ فِي وِلَايَةِ « كِنْتَاكِي » .

عَلَى أَنَّنَا نَدَعُ ذَلِكَ جَانِبًا ، إِذْ لَسْنَا نُرِيدُ هُنَا أَنْ نَشْتَجِرَ[2] مَعَهُ أَوْ مَعَ كِتَابِهِ . وَإِذَا كُنَّا قَدْ جَعَلْنَا

(١) طرفا : جزءا (٢) نشتجر : نختلف ونتنازع .

عُنْوَانَهُ فِى رَأْسِ مَقَالِنَا هذَا ، فَمَا ذَلِكَ إِلاَّ لِأَنَّ الْكِتَابَ يُبْرِزُ نَقْصًا مَلْحُوظًا لَمْ يَتَنَبَّهِ الْكَاتِبُ إِلَيْهِ ، أَوْ غَفَلَ عَنْهُ وَأَهْمَلَهُ إِهْمَالاً .

* * *

إِنَّ هَذِهِ الْأَوَلِيَّاتِ[1] السِّتَّ ، كَمَا قَدْ يُسَمِّيهَا الأولياتأَهْلُ الْمَنْطِقِ — مَا هِىَ وَمَا شَأْنُهَا ؟ ! هَلْ هِىَ تَقْسِيمٌ نِهَائِىٌّ لاَ يَقْبَلُ تَبْوِيباً آخَرَ ، وَلاَ يَتَّسِعُ لِاطِّرَادٍ وَمُتَابَعَةٍ ، أَمْ هُنَاكَ نَوْعٌ مِنَ الْعَظَمَةِ أَكْبَرُ مِنْ هذَا ، وَأَفْسَحُ نِطَاقًا ، يَصِحُّ أَنْ تُوضَعَ هَذِهِ الْأَوَلِيَّاتُ تَحْتَهُ ؟ !

إِنَّ الشَّاعِرَ وَالسَّفْسَطَائِىَّ[2] — أَوْ اللَّا أَدْرِىَّ[3] —

(١) الأوليات : البديهيات عند المناطقة (٢) والسفسطائى نسبة الى السفسطة وهو الذى يعتمد فى مقدماته على المغالطة والتمويه دون الحقيقة والعقل
(٣) اللا أدرى نسبة إلى قولك « لا أدرى » وهو الذى يعطل العقل من أحكامه ويتجاهل الحقائق

وَبَقِيَّةَ الْأَنْوَاعِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْمُؤَلِّفُ إِنَّمَا تَأْتِي جَمِيعاً فِي تَقْسِيمِ الْعُلَمَاءِ الطَّبِيعِيِّينَ تَحْتَ نَوْعٍ وَاحِدٍ وَهُوَ الْإِنْسَانُ بِاعْتِبَارِهِ وَحْدَةً قَائِمَةً بِذَاتِهَا ، فَهَلْ عِنْدَ الْمِسْتِرْ إِيمِرْسُون فِكْرَةٌ وَاضِحَةٌ كَهَذِهِ فِي مَعْنَى الْإِنْسَانِ الْعَظِيمِ ، أَوْ مَعْنَى الْإِنْسَانِ الْفَاضِلِ ؟ ! وَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ ، فَمَا هُوَ ، وَأَيْنَ هُوَ ؟ ؟ فَإِنَّنَا نُحِبُّ أَنْ نَعْرِفَ . لِأَنَّ النَّاسَ لَا يَصْعَدُونَ إِلَى السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى هَذَا الِاعْتِبَارِ الَّذِي ذَهَبَ إِلَيْهِ ، أَوْ بِهَذَا التَّقْسِيمِ الَّذِي قَسَّمَهُ ، بَلْ هُوَ ذَلِكَ النَّوْعُ الرَّفِيعُ السَّامِي مِنَ الْخُلُقِ ، الَّذِي هُوَ فِي ذَاتِهِ فَاضِلٌ وَعَظِيمٌ ، لَا تَبَايُنَ فِي أَمْرِهِ ، وَلَا خِلَافَ عَلَيْهِ ، وَلَا تَمْيِيزَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ

سِوَاهُ . وَهَلْ تَحْوِى الدُّنْيَا شَيْئًا كَهَذَا ، وَإِذَا حَدَثَ فَأَيْنَ الصِّفَةُ النَّوْعِيَّةُ فِيهِ ؟ ! أَوْ كَيْفَ يَكُونُ عَلَى حَدِّ تَقْسِيمِ إِيمِرْسُونْ مُمَثِّلاً لِنَوْعِهِ ، نَائِبًا عَنْ فَصِيلَتِهِ ؟ ! وَقَدْ يَصِحُّ أَنْ يُقَالَ إِنَّ الْإِنْسَانَ النَّوْعِىَّ لاَ وُجُودَ لَهُ فِى وَحْدَةِ الْكَمَالِ ، وَلَكِنَّ هَذَا لاَ يَمْنَعُ مِنْ أَنْ نَقَعَ عَلَى إِنْسَانٍ[1] كَهَذَا بَيْنَ عَدِيدِ صُنُوفِ النَّاسِ ، بِيضًا وَسُودًا ، وَأَنَاسِىَّ[2] وَمُتَوَحِّشِينَ .

* * *

حقيقة العظمة والنبوغ

وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَعْرِفَ مَعْنَى قَوْلِنَا رَجُلاً عَظِيمًا أَوْ رَجُلاً فَاضِلاً ، وَجَبَ أَنْ نَلْتَمِسَ

(١) أى يجوز أن يوجد جزئى واحد فى كثرة متعددة . أما النوع فلا

(٢) جمع إنسان ويريد به المدنى

صِفَةً مُعَيَّنَةً ، أَوْ مَجَالا مَحْدُودًا بِالذَّاتِ ، يَبْدُو فِيهِ عَظِيماً ، وَيَلُوحُ مِنْ نَاحِيَتِهِ فَاضِلاً ، وَمِنْ ثَمَّ نَضَعُ فِكْرَتَنَا الْعَامَّةَ ، وَمَقَايِيسَنَا عَنِ الْعَظَمَةِ وَالْفَضْلِ وَالنُّبُوغِ .

وَأَقُولُ هَذَا حَسَنٌ ، إِذَا نَحْنُ عَرَفْنَا حَقِيقَةَ مَا نُرِيدُ ، وَأَدْرَكْنَا فِعْلاً مَا نَقْصِدُ ، وَفَهِمْنَا فِي اسْتِخْلاَصِ الْأَنْوَاعِ الْمَنوَّعَةِ مِنَ الْعَظَمَةِ وَالْفَضْلِ ، كَيْفَ نَصِلُ إِلَى الْفِكْرَةِ الْجَوْهَرِيَّةِ ، وَنُقِيمُهَا وَاضِحَةً جَلِيَّةً ، أَمَامَ أَبْصَارِنَا ، دُونَ أَنْ نَشْتَبِكَ فِي الْأَعْرَاضِ[1] ، أَوْ نُخْطِىءَ فِي فَهْمِ الْحَوَادِثِ وَالظُّرُوفِ ، فَنَجْعَلَهَا هِيَ جَوْهَراً ؟

(١) الاعراض جمع عرض وهى الصفات التى تلحق الذات وليست من مقوماتها كالطول والعرض واللون وما الى ذلك ويقابله الجوهر .

إِنَّ الرِّفْعَةَ الإِنْسَانِيَّةَ – أَوِ الْعَظَمَةَ – بَعْدَ كُلِّ التَّعَالِيمِ الَّتِي لُقِّنَهَا النَّاسُ فِي ثَمَانِيَةَ عَشَرَ قَرْنًا الآنَ – كَانَ يَنْبَغِي أَلاَّ يَكُونَ عَلَى تَحْدِيدِهَا[1] خِلاَفٌ مُطْلَقًا ، بِمُضِيِّ هَذِهِ الْمُدَّةِ ، وَانْقِضَاءِ هَذَا الزَّمَنِ ، لِأَنَّهَا الْغَرَضُ الَّذِي عَلَّمُونَا أَنْ نَرْمِيَ إِلَيْهِ ، وَالْغَايَةُ الَّتِي قِيلَ لَنَا : إِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ نَلْتَمِسَهَا ، وَنَعْمَلَ لِبُلُوغِهَا ، دُونَ سَائِرِ الْأَغْرَاضِ ، وَكَافَّةِ الْغَايَاتِ .

* * *

الرجل العملي

وَإِذَا كَانَ فِي الْعُظَمَاءِ الْمُمَثَّلِينَ لِأَنْوَاعِهِمْ أَيُّ خَيْرٍ لَنَا أَوْ نَفْعٍ مَا ، فَلاَ يَكُونُ ذَلِكَ فِي تَمْثِيلِهِمْ مُجَرَّدَ مَجْمُوعَاتٍ غَرِيبَةٍ مِنَ الظَّاهِرَاتِ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ

(١) تحديدها : أى تعريفها بالحد .

ذَلِكَ فِى تَصْوِيرِنَا وَتَمْثِيلِنَا ، فِى أَشْكَالِنَا الْحَقِيقِيَّةِ ، وَكَمَا نَحْنُ يَنْبَغِى أَنْ نَكُونَ ، وَكَمَا يُرِيدُ كُلُّ فَرْدٍ مِنَّا أَنْ يَتَرَسَّمَ وَيَحْتَذِىَ ، إِذْ لَيْسَ يَعْنِينَا أَنْ نَعْرِفَ الرَّجُلَ الْعَظِيمَ فِى صُورَةِ الرَّجُلِ الْعِلْمِىِّ ، أَوْ رَجُلِ الدُّنْيَا كَمَا صَوَّرَ إِيمِرْسُونَ ، وَقَسَّمَ وَبَوَّبَ الْعَظَمَةَ وَالْعُظَمَاءَ ، وَلَكِنَّ الَّذِى نَعْنِيهِ وَنَحْفِلُ[1] بِهِ ، هُوَ أَنْ نَعْرِفَ « الرَّجُلَ الْعَمَلِىَّ » فِى صُورَةِ الرَّجُلِ الْعَظِيمِ .

وَهُوَ شَىْءٌ آخَرُ يَخْتَلِفُ عَنْ ذَلِكَ كُلَّ الِاخْتِلَافِ ، وَإِذَا كَانَ لاَ بُدَّ لَنَا مِنْ أَنْ نَحْيَا فِى هَذَا الْعَالَمِ ، وَنَعِيشَ فِى هَذِهِ الدُّنْيَا ، فَكَيْفَ نَحْيَا حَيَاةً عَظِيمَةً ، وَنَعِيشَ عِيشَةً فَاضِلَةً ؟ هَذَا هُوَ السُّؤَالُ الَّذِى يَجِبُ

(١) نحفل به : نبالى

أَنْ نَجِدَ الْجَوَابَ عَلَيْهِ ، وَلَسْنَا بِحَاجَةٍ إِلَى أَنْ نَعْرِفَ كَيْفَ يَكُونُ الْإِنْسَانُ عَظِيماً ، وَكَيْفَ نَصُبُّ[1] عَظَمَتَهُ فِي قَالَبٍ عَالَمِيٍّ ، وَنَجْعَلُ مِنْهُ فِي الْعَظَمَةِ نَوْعًا مِنَ الْأَنْوَاعِ ؟! فَقَدْ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْعَمَلِيِّينَ النَّاجِحِينَ ، الْمُوَفَّقِينَ الَّذِينَ لَا حَصْرَ لَهُمْ ، وَلَا عِدَادَ لِأَفْرَادِهِمْ ، قَوْمٌ صِغَارُ النُّفُوسِ ، ضِئَالُ الْأَقْدَارِ ، شِدَادٌ أَدْنِيَاءُ مَعَ فَرْطِ نَجَاحِهِمْ ، وَدُنْيَوِيَّةِ شَأْنِهِمْ ، وَمِنْ ثَمَّ تَخْلِطُ الْفِكْرَةُ الْإِيمْرْسُونِيَّةُ بَيْنَ النَّجَاحِ وَالْعَظَمَةِ . وَتُرِيدُ أَنْ تُحِيلَ[2] أَقْيِسَتَنَا الْأَخْلَاقِيَّةَ فَوْضَى وَاخْتِلَالاً . وَعَلَى هَذَا قِسْ كُلَّ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ

(١) نصب : نضع من صب الماء أفرغه . والكلام على المجاز

(٢) أن تحيل : أن تحول والمعنى أن رأى ايمرسون لا يفرق بين النجاح والعظمة ويفضى الى هدم الأقيسة الاخلاقية الاجماعية المتفق عليها .

الْإِنْسَانُ ، وَكُلَّ نَاحِيَةٍ مِنَ الْحَيَاةِ يَنْتَحِيهَا ، وَقَدْ نَمَتِ الْحَيَاةُ ، وَتَضَاعَفَتْ وَتَرَامَتْ حُدُودُهَا وَنَوَاحِيهَا ، حَتَّى قَامَ فِي مَوْضِعِ الْعَمَلِ الْوَاحِدِ قَدِيمًا مِائَةُ عَمَلٍ الْآنَ ، وَلَكِنَّهَا لَيْسَتْ هِيَ الْمَعَايِيرَ وَالْأَقْيِسَةَ . وَلَكِنْ نَحْنُ الَّذِينَ كَذَلِكَ ، فَنَحْنُ الْغَايَةُ ، وَهِيَ لَيْسَتْ سِوَى الْوَسِيلَةِ وَالْمَادَّةِ ، بَلِ الصَّلْصَالُ[1] أَوِ الْحَمَأُ الْمَسْنُونُ ، أَوِ الرَّخَامُ أَوِ الْبُرُنْزُ ، الَّذِي يَصْطَنِعُ الْمَثَّالُ مِنْهُ تِمْثَالَهُ ، وَيَنْحِتُ مِنْهُ دُمْيَتَهُ[2] ، وَالشَّكْلُ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ ، وَلَكِنْ مَا هُوَ الشَّكْلُ ، وَمَا حَقِيقَتُهُ ؟ !

(١) الصلصال : الطين والمراد به وبما بعده المادة الأولى والهيولى والرخام الذى يصنع منه مختلف الأنواع . والحمأ المسنون الطين فى قوام العجين أو أرق من ذلك (٢) الدمية : الصورة والتمثال تصنع من العاج أو الرخام أو غيرهما

* * *

النبل والفضيلة

مِنَ الْمَهْدِ إِلَى الْمِنْبَرِ ، وَفِى الْبَيْتِ وَالْمَدْرَسَةِ وَالْمَعْبَدِ ، يَضْرِبُ كُلُّ مُعَلِّمٍ وَمُرَبٍّ وَوَاعِظٍ وَإِمَامٍ عَلَى نَغْمَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَوَتِيرَةٍ[1] رَتِيبَةٍ . وَهِىَ : كُونُوا أَخْيَاراً ، كِبَارَ النُّفُوسِ ، أَوْ كُونُوا رِجَالاً . فَأَيْنَ إِذاً الْخَيْرُ ، وَمَا هُوَ إِذاً النُّبْلُ ، وَمَا هِىَ الْفَضِيلَةُ ؟؟؟ . وَأَيْنَ الْقُدْوَاتُ إِذَنْ وَالْأَمْثِلَةُ ؟

لَسْتُ — مَعَاذَ اللهِ — أَعْنِى أَنَّ الْعَالَمَ لاَ يَحْوِى مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً ، فَإِنَّ هَذَا أَبْعَدُ مَا يَكُونُ مِنْ مُرَادِى ، إِذْ لَوْ أَنَّ الدُّنْيَا كَفَّتْ عَنْ أَنْ تُخْرِجَ رِجَالاً يُرْضُونَ اللهَ لَتَلَاشَتْ مِنْ زَمَنٍ بَعِيدٍ ، كَمَا تَلَاشَتْ وَانْدَثَرَتِ الْمَدَائِنُ الْقَدِيمَةُ فِى التَّارِيخِ . وَإِنَّمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَ

(١) وتيرة : طريقة . ورتيبة : منظمة .

مَنْ هُمْ هؤُلاَءِ الأَخْيَارُ وَمَا شَأْنُهُمْ ، وَكَيْفَ نَتَوَصَّلُ إِلَى مَعْرِفَتِهِمْ ؟ ؟

إِنَّ هؤُلاَءِ هُمْ زُعَمَاؤُنَا وَهُدَاتُنَا ، وَقَادَتُنَا فِي مَعْرَكَةِ هَذِهِ الْحَيَاةِ وَحَرْبِهَا . وَلَوْ رَأَيْنَاهُمْ لَتَبِعْنَاهُمْ ، وَأَبْعَدْنَا عَنْ أَنْفُسِنَا الْعَثَرَاتِ الْكَثِيرَةَ ، وَالْمَهَاوِيَ السَّحِيقَةَ ، وَالْخُصُومَ وَالْأَعْدَاءَ ، الْعِدَادَ الْكُثْرَ فِي طَرِيقِنَا ، وَمَا نَتَعَرَّضُ لَهُ فِي حَيَاتِنَا .

وَلَا يَحْسَبَنَّ أَحَدٌ أَنَّ الاِهْتِدَاءَ إِلَى الْعُظَمَاءِ الْحَقِيقِيِّينَ أَمْرٌ هَيِّنٌ سَهْلٌ لَا مَشَقَّةَ فِيهِ ، وَلَا كَدَّ وَلَا مَجْهَدَةَ ، وَنَحْنُ نَجِدُ أَبَدًا أَسْمَاءَ الْمَشْهُورِينَ الَّذِينَ بَلَغُوا قِمَّةَ الشُّهْرَةِ ، يُهْتَفُ بِهِمْ ، وَنَرَى عَدِيدًا مِنَ الْمُزَيَّفِينَ يَزْدَحِمُ الْأَتْبَاعُ مِنْ حَوْلِهِمْ مُصَفِّقِينَ لَهُمْ ، سَائِرِينَ فِي

أَثَرِهِمْ ، مُقْبِلِينَ عَلَيْهِمْ ، مُتَرَسِّمِينَ خَطَوَاتِهِمْ . وَفِي الْفَنِّ وَالْعِلْمِ ، نَسْتَطِيعُ أَنْ نَكْتَشِفَ الْمُشَعْوِذَ[١] وَالدَّجَّالَ ، وَالدَّعِيَّ[٢] وَالْمُنْتَحِلَ ، وَلَكِنَّنَا فِي الْحَيَاةِ لَا نَجِدُ السُّهُولَةَ نَفْسَهَا فِي اكْتِشَافِ الدَّجَاجِلَةِ . بَلْ قَدْ يَتَشَابَهُ عَلَيْنَا الدَّجَّالُ ، وَالصَّادِقُ ، وَالْمُزَيَّفُ ، وَالصَّحِيحُ . وَلَوْ جَمَعْتَ خَمْسِينَ رَجُلًا مِنَّا ، وَكُلُّهُمْ مِنْ أَفَاضِلِ النَّاسِ وَأَكَابِرِهِمْ ، وَسَأَلْتَهُمْ آرَاءَهُمْ فِي أَلِيزَابِتْ « أَلْيَصَابَاتِ[٣] » أَوْ فِي « كَرُومْوِيلَ[٤] »

(١) الشعوذة : خفة فى اليد وأخذ كالسحر يرى الشىء فى رأى العين بغير ما عليه أصله قال فى اللسان هو مستعمل وليس من كلام أهل البادية. والدجل استعمال التمائم والرقى وضرب الرمل وما شاكل ذلك من كل ما يشتغل به الجهلاء (٢) الدعى : الذى يدخل نفسه فى القوم ليس منهم وينتسب الى غير منسب (٣) اليصابات: ملكة انجلترا وكان عصرها من أزهى العصور (٤) كروموبل : قائد من أشهر قواد هذه المملكة وأقسامهم .

جَاءُوكَ بِخَمْسِينَ رَأْيًا ، كُلٌّ رَأْيٍ يَخْتَلِفُ عَنْ سِوَاهُ فِي أَمْرِ تِلْكَ الْمَلِكَةِ ، وَشَأْنِ ذَلِكَ الْقَائِدِ .

وَلَكِنْ طُبِعَ النَّاسُ عَلَى أَنْ يَسْتَسْهِلُوا ذَلِكَ ، وَلاَ يَسْتَصْعِبُوهُ ، وَهُمْ قَائِلُونَ : إِنَّ الْأَخْلَاقَ الْحَسَنَةَ مَحْدُودَةُ الْمَعَالِمِ ، وَإِنَّ الْخَيْرَ وَالْفَضْلَ وَالطَّبِيعَةَ أَعْلَامٌ بَارِزَةٌ ، وَصِفَاتٌ وَاضِحَةٌ لاَ خِلَافَ عَلَيْهَا . وَلَيْسَ الْوَاقِعُ أَنَّ النَّاسَ لاَ يَعْرِفُونَ ، وَلَكِنَّ الْوَاقِعَ أَنَّهُمْ لاَ يَعْمَلُونَ بِمَا يَعْرِفُونَ . وَهَذَا مَا نَسْمَعُ كَثِيرًا مِنْ أَشْبَاهِهِ فِي الْعِظَاتِ ، وَخُطَبِ الْوُعَّاظِ فِي الْكَنَائِسِ وَالْمَحَارِيبِ ، وَفِي الْمُحَاضَرَاتِ وَغَيْرِ الْمُحَاضَرَاتِ . وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ فِي أَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يَعْرِفُ بِالتَّجْرِبَةِ سِرَّ قَوْلِهِمْ هَذَا ، وَبَاعِثَهُ وَحِكْمَتَهُ .

✡
✡ ✡

الواجب الايجابى والسلبى

وَلَكِنَّ هُنَاكَ نَوْعَيْنِ مِنَ الْوَاجِبِ : وَهُمَا الْوَاجِبُ الْإِيجَابِيُّ ، وَالْوَاجِبُ السَّلْبِيُّ ، أَوْ مَا يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَفْعَلَهُ ، وَمَا لَا يَنْبَغِي . وَإِنَّ الضَّمِيرَ لَأَكْثَرُ تَنْبِيهاً وَتَغْطِيَةً لِلْوَاجِبِ السَّلْبِيِّ[1] أَوِ النَّوَاحِي أَكْثَرَ مِنْهُ لِلْإِيجَابِيَّاتِ أَوِ الْأَوَامِرِ ، وَلَكِنَّهُ بِمَكْرِهِ وَدَهَائِهِ ، فِي تَرْكِيزِ كُلِّ انْتِبَاهِهِ ، وَاهْتِمَامِهِ فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ السَّلْبِيَّةِ مِنَ الْوَاجِبِ . قَدْ عَمِلَ عَلَى نِسْيَانِ النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى ، أَوْ لَمْ يَعُدْ يَذْكُرُ أَنَّ لَهَا وُجُودًا عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَإِنَّ إِتْيَانَ عَمَلٍ سَيِّءٍ ، هُوَ مُخَالَفَةُ أَمْرٍ

(١) المراد بالواجب السلبي عدم العمل . وبالواجب الايجابي العمل ، ولا شك أن عدم العمل . أخف من العمل . إذ هو ترك محض لا عناء فيه

يُحَرِّمُ عَلَيْنَا أَنْ نَأْتِيَ عَمَلاً مُعَيَّنًا . وَهَذَا هُوَ كُلُّ الاِعْتِقَادِ الَّذِي نَنْظُرُ بِهِ إِلَى الْفِكْرَةِ : لاَ تَقْتُلْ ، وَلاَ تَسْرِقْ ، وَلاَ تَكْذِبْ ، وَلاَ تَحْلِفْ ، وَلاَ تَزْنِ . . . هَذِهِ هِيَ الْوَصَايَا وَالتَّعَالِيمُ ، وَهِيَ بِلاَ شَكٍّ سَهْلَةٌ وَبَسِيطَةٌ ، وَلاَ مَشَقَّةَ فِي وَعْيِهَا ، وَتَذَكُّرِهَا وَمَعْرِفَتِهَا ، وَلَكِنْ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ مَا هِيَ وَمَا مُؤَدَّاهَا ؟ ؟ إِنْ هِيَ إِلاَّ الشُّرُوطُ الْأَوَّلِيَّةُ الاِبْتِدَائِيَّةُ لِمَعْنَى الطَّبِيعَةِ ، أَوِ الْخَيْرِ ، أَوِ الْفَضِيلَةِ ، وَأَنَّ إِطَاعَتَنَا لَيْسَتْ سِوَى جُزْءٍ يَسِيرٍ مِمَّا هُوَ مَطْلُوبٌ مِنَّا ، وَمُتَعَيِّنٌ عَلَيْنَا . بَلْ إِنْ هِيَ إِلاَّ الْأَسَاسُ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ نَبْنِيَ عَلَيْهِ الْخُلُقَ الرَّفِيعَ ، وَنُشَيِّدَ فَوْقَهُ صَرْحَ الشَّخْصِيَّةِ السَّامِيَةِ غَيْرِ الْمَأْلُوفَةِ ، وَالْفَذَّةِ الْعَالِيَةِ . وَإِنَّ الْمُضِيَّ فِي

مَنَاكِبِ[1] هَذِهِ الْحَيَاةِ، ثُمَّ الِاحْتِجَاجَ فِي النِّهَايَةِ بِأَنَّنَا لَمْ نُخَالِفْ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْوَصَايَا، وَلَمْ نَنْحَرِفْ[2] عَنْ تِلْكَ التَّعَالِيمِ. هُوَ كَمَثَلِ الْخَادِمِ الْبَلِيدِ الَّذِي أَبْقَى عَلَى مَقْدِرَتِهِ وَمَوَاهِبِهِ، فَلَمْ يَسْتَنْفِدْ مِنْهَا قَلِيلاً وَلَا كَثِيرًا، وَكَانَتْ نِهَايَتُهُ أَنْ طُرِدَ مِنَ الْخِدْمَةِ، وَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ[3] وَهُوَ ذَمِيمٌ، لِتَفَاهَتِهِ وَقِلَّةِ فَائِدَتِهِ.

لِنَفْرِضْ أَنَّنَا قَدْ أَطَعْنَا تِلْكَ الْوَصَايَا وَالتَّعَالِيمَ، فَمَاذَا بَعْدَ ذَلِكَ؟ إِنَّهُ لَيَقْتَضِي مِنَّا جُزْءًا مِنْ حَيَاتِنَا وَوَقْتِنَا، جُزْءًا يَسِيرًا نُكَافِحُ فِيهِ الْمُغْرِيَاتِ[4] الَّتِي تُوَسْوِسُ فِي صُدُورِنَا، وَتُرِيدُنَا عَلَى أَنْ نُخَالِفَهَا، وَنَتَمَرَّدَ عَلَيْهَا، وَنَنْحَرِفَ عَنْهَا، فَمَاذَا نَحْنُ صَانِعُونَ

(١) مناكب الحياة: نواحيها وطرقها العالية (٢) لم نتحرف: لم نمل
(٣) العراء: الخلاء (٤) المغريات: جمع مغرية: وهي الشهوات النفسية

بِبَقِيَّةِ الْحَيَاةِ ؟ وَالزَّمَنِ الَّذِى يَنْفَسِحُ أَمَامَنَا ؟ بَلْ لِنَفْرِضْ أَنَّ هَذِهِ التَّعَالِيمَ ، قَدْ بَثَّتْ فِى نُفُوسِنَا حُبَّ اللهِ وَحُبَّ جَارِنَا .

وَإِنْ كَانَ هَذَا فَرْضًا مُتَقَدِّمًا خُطُوَاتٍ فِى مُرَادِ هَذِهِ التَّعَالِيمِ وَمَرْمَاهَا ، وَلْنَفْرِضْ أَنَّنَا قَدْ عَرَفْنَا أَنَّ وَاجِبَنَا يَقْضِى بِأَنْ نُحِبَّ جَارَنَا كَحُبِّنَا لِأَنْفُسِنَا ، فَمَاذَا نَصْنَعُ إِذًا لِجَارِنَا بِجَانِبِ الِامْتِنَاعِ عَنْ إِيذَائِهِ ، وَالتَّحَامِى[1] عَنِ الْإِسَاءَةِ إِلَيْهِ ؟ ؟

لَقَدْ كَانَ الْأَوْلِيَاءُ وَالصَّالِحُونَ وَالقِدِّيسُونَ ، يَعْرِفُونَ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ مَاذَا يَنْبَغِى لَهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا ، وَمَاذَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْمَلُوا ؟ ؟ وَلَكِنِّى أَحْسَبُ

(١) التحامى : التباعد

وَاجِبَاتِنَا نَحْنُ تَتَّجِهُ اتِّجَاهاً مُخَالِفاً لِاتِّجَاهِهِمْ ، وَيَلُوحُ لِي أَنَّنَا لَمْ نَهْتَدِ إِلَى تِلْكَ الْوَاجِبَاتِ بَعْدُ ، وَلَمْ نَصِلْ إِلَيْهَا .

* * *

رأى باتلر

يَقُولُ الْأَسْقُفُ بَاتْلَرْ : إِنَّ عَلَيْنَا وَاجِبَاتٍ إِيجَابِيَّةً لِجَارِنَا ، مُحَتَّمَةً كُلَّ التَّحَتُّمِ ، بِحَيْثُ لَوْ صَرَفْنَا مِنْ وَقْتِنَا ، وَاهْتِمَامِنَا بِأَنْفُسِنَا ، وَعِنَايَتِنَا بِشُؤُونِنَا . أَكْثَرَ مِمَّا هُوَ ضَرُورِيٌّ ، وَحَقٌّ وَعَدْلٌ ، لَكُنَّا بِذَلِكَ قَدْ جُرْنَا عَلَى مَا لَيْسَ لَنَا ، وَأَخَذْنَا مَا لَا حَقَّ لَنَا فِيهِ ، وَلَكُنَّا آثِمِينَ مُخَادِعِينَ مُزَوِّرِينَ . فَمَاذَا يَعْنِي الْأَسْقُفُ « بَاتْلَرُ » بِهَذَا وَمَاذَا يَقْصِدُ بِهِ ؟ ؟ إِنَّ الْجَوَابَ الْعُمُومِيَّ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ هَيِّنٌ مَيْسُورٌ ، وَلَكِنَّهُ

مِنْ حَيْثُ الدَّقَائِقُ وَالتَّخْصِيصُ وَالتَّفْصِيلُ، لَيْسَ صَعْباً فَحَسْبُ، بَلْ هُوَ مُسْتَحِيلٌ إِطْلَاقاً .

فلسفة العصر الحديث

وَهَا هِيَ فَلْسَفَةُ الْعَصْرِ الْحَدِيثِ تَقُولُ: « لَا تَدْخُلُوا فِيمَا لَا يَعْنِيكُمْ، وَدَعُوا غَيْرَكُمْ يُعْنَوْا[1] بِأُمُورِهِمْ » وَكُلُّ مَنْ يَتَطَلَّعُ مِنَ النَّاسِ إِلَى أَكْثَرَ مِنْ مُجَرَّدِ الْوَاجِبِ السَّلْبِي، وَهُوَ الِامْتِنَاعُ عَنْ إِتْيَانِ السُّوءِ، يَجِدُ نَفْسَهُ خَلِيًّا مِنَ الْهَادِي وَالْمُرْشِدِ وَالدَّلِيلِ. فَلَا يُصِيبُ عَوْناً مِنْ أَحَدٍ، وَلَا يَظْفَرُ بِهِدَايَةٍ، وَلَا بِمُثُلٍ[2] عُلْيَا، وَمَبَادِئَ حَدِيثَةٍ تَكُونُ لَهُ، مَا كَانَ

(١) يعنوا : يهتموا . يقال عنى بالأمر على البناء للمجهول اذا اعتنى به واهتم
(٢) المثل : جمع مثل ، والعليا : جمع أعلى ، والمثل الأعلى : هو كمال فى غرض ما . يجعل نصب العين . ويعمل الانسان للوصول إليه

الْأَبْطَالُ قَدِيماً لِلشَّبَابِ فِى عُهُودِ الْإِغْرِيقِ وَالرُّومَانِ[١]. وَمَا كَانَ الشُّهَدَاءُ الْمَسِيحِيُّ الْعَادِيُّ فِى الْقُرُونِ الْوُسْطَى . بَلْ لَنْ يَجِدَ أَثَراً ، وَلاَ مَوَاقِعَ أَقْدَامٍ فِى الطَّرِيقِ الَّذِى يَسِيرُ فِيهِ ، وَالنَّجْدِ الَّذِى يَقْطَعُهُ ، وَإِنَّمَا يَجِدُ الْمُرْتَقَى[٢] الْوَعْـــرَ الَّذِى يَتَسَلَّقُهُ ، وَيُحَاوِلُ تَسَنُّمَهُ[٣] وَصُعُودَهُ ، كَمَا جَاءَ فِى الْأَقَاصِيصِ ، وَالْأَسَاطِيرِ[٤] ، مَفْرُوشاً بِالصُّخُورِ وَالْجَلاَمِيدِ ، وَهِىَ تَسْخَرُ مِنْهُ ، وَتَهْزَأُ بِهِ ، وَتَصَايَحُ مِنْ حَوْلِهِ بِأُلُوفِ الْأَصْوَاتِ ، عَابِثَةً مُزْدَرِيَةً مُتَهَانِفَةً[٥] ، وَالْوَاقِعُ أَنَّهُ

(١) أى أن الأبطال والفرسان فى عهود الأغريق والرومان القديمة كانت المثل العليا لشباب ذلك الزمان (٢) المرتقى الوعر: كناية عن الصعاب والشدائد التى تصادفه (٣) تسنم الشىء : ارتقاه (٤) أقاصيص : جمع أقصوصة وأساطير جمع أسطورة ويراد بها الخرافات القديمة « ميثيولوجيا » (٥) متهانفة : متلاعبة .

لَيْسَ لَدَيْنَا أَقْيِسَةٌ أَخْلاَقِيَّةٌ ، وَلاَ أَفْكَارٌ مُعَيَّنَةٌ ، وَلاَ آرَاءٌ وَاضِحَةٌ عَنِ الْكَمَالِ الإِنْسَانِيِّ ، وَكَرَائِمِ الْخُلُقِ ، وَهَذَا هُوَ بِلاَ شَكٍّ السَّبَبُ فِي إِخْفَاقِ[1] التَّعْلِيمِ وَالتَّرْبِيَةِ لَدَيْنَا ، لِأَنَّ التَّرْبِيَةَ الْوَحِيدَةَ الْخَلِيقَةَ بِالْعِنَايَةِ ، هِيَ تَرْبِيَةُ الْخُلُقِ ، وَتَكْوِينُ الشَّخْصِيَّةِ ، وَلَيْسَ فِي وُسْعِنَا أَنْ نُرَبِّيَ خُلُقاً ، مَا لَمْ تَكُنْ لَدَيْنَا فِكْرَةٌ مُعَيَّنَةٌ عَمَّا نُرِيدُ أَنْ يَكُونَ ، وَفِي أَيِّ قَالَبٍ يَجِبُ أَنْ نُفْرِغَهُ ، وَأَيَّةِ صُورَةٍ يَنْبَغِي أَنْ نَسْبِكَهَا وَنَصُوغَهَا ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الشَّبَابَ سَرِيعُو الإِنْقِيَادِ ، وَلَكِنَّهُمْ بِطَاءُ الدَّفْعِ ، أَوْ مِنَ الصَّعْبِ اسْتِيَاقُهُمْ إِلَى مَا لاَ يُحِبُّونَ ، وَمِنَ الْحِكْمَةِ الْمَأْلُوفَةِ الْمَعْرُوفَةِ ،

(١) اخفاق : فشل

أَنَّ أَحَبَّ شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مُنِعَ ، وَهَذَا هُوَ نَاحِيَةُ التَّنَاقُضِ وَالْغَرَابَةِ فِي طَبَائِعِنَا الْبَشَرِيَّةِ ، وَلَكِنْ ضَعْ أَمَامَ الْغُلَامِ الصَّغِيرِ صُورَةَ رَجُلٍ كَرِيمِ الْخُلُقِ ، وَدَعِ الظُّرُوفَ الَّتِي أَعَانَتْهُ عَلَى اكْتِسَابِ صِفَةِ كَرَمِ الْخُلُقِ ، تَظْهَرْ وَتَتَجَلَّ بِحَيْثُ يحس[1] الْغُلَامُ أَنَّهَا تُشْبِهُ الظُّرُوفَ الَّتِي حَوْلَهُ ، وَتُحِيطُ بِهِ ، وَدَعِ الصَّبِيَّ يَرَ هَذَا الرَّجُلَ مُتَغَلِّبًا عَلَى وَسَاوِسِ نَفْسِهِ ، مُنْتَصِرًا فِي الْحَيَاةِ ، فَوَّازًا فِي مَيَادِينِهَا غَلَّابًا ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْعَلْ تُشْعِلْ بِلَا أَدْنَى شَكٍّ فِي فُؤَادِهِ ، جَذْوَةً مُسْتَعِرَةً ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يُشْعَلَ مِثْلُهَا فِي حَنَايَا عَاطِفَةِ وَعْيِهِ بِعِقَابٍ ، أَوْ مَخَافَةٍ مِنْ قِصَاصٍ فِي هَذَا الْعَالَمِ ، أَوْ فِي سِوَاهُ .

(١) يحس : يدرك

* * *

الأولياء والقديسون

لَقَدْ رَأَيْنَا النَّاسَ يَشْكُونَ مِنْ وُجُودِ التَّشَابُهِ وَالتَّمَاثُلِ فِي حَيَاةِ الْأَوْلِيَاءِ وَتَرَاجِمِ الْقِدِّيسِينَ وَسِيَرِ الصَّالِحِينَ ، مَعَ أَنَّ هَذَا التَّمَاثُلَ هُوَ سِرُّ صَلَاحِهِمْ ، وَعِلَّةُ طِيبَتِهِمْ ، وَسُمُوِّ نُفُوسِهِمْ ، وَفَائِقِ فَضْلِهِمْ ، بَلْ هَذَا التَّشَابُهُ مَلْحُوظٌ كَذَلِكَ فِي جَمِيعِ أَبْطَالِ الْإِلْيَاذَةِ ، كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ بَارِزٌ وَاضِحٌ فِي أَبْطَالِ تَارِيخِ الْيُونَانِ وَالرُّومَانِ ، وَالرَّجُلُ يَكُونُ عَظِيماً عَلَى مَبْلَغِ مُحَارَبَتِهِ لِظُرُوفِ زَمَانِهِ ، وَالَّذِينَ يُحَارِبُونَ هَذِهِ الظُّرُوفَ ذَاتَهَا فِي عُصُورِهِمْ وَأَزْمِنَتِهِمْ ، يَرُوحُونَ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ أَشْبَاهًا ، وَيَظْهَرُونَ مُتَمَاثِلِينَ ، وَكَذَلِكَ هِيَ الْحَالُ فِي عَصْرِنَا نَحْنُ وَجِيلِنَا ، إِذْ لَوْ تَوَاتَى لَنَا

حقًّا أَنْ تُكْتَبَ تَرَاجِمُ أَخْيَارِنَا وَأَفَاضِلِنَا ، وَيُحْسِنَ الَّذِينَ يَتَصَدَّوْنَ لِكِتَابَتِهَا وَوَضْعِهَا وَتَنْسِيقِهَا ، وَيَحْذِقُونَ وَصْفَهَا وَإِعْدَادَهَا ، وَيَكُونَ هَؤُلَاءِ الْمُتَصَدُّونَ كُتَّابًا بَرَعَةً ، أَقْوِيَاءَ الْمُلَاحَظَةِ ، يَعْرِفُونَ مَاذَا يَنْبَغِي أَنْ يَبْرُزَ مِنَ الصِّفَاتِ وَمَاذَا يَنْبَغِي أَنْ يَقِفُوا عِنْدَهُ مَلِيًّا مِنَ الْمَزَايَا وَالسَّجَايَا ، وَالْأَدْوَارِ وَالْمَرَاحِلِ وَالْحَلَقَاتِ ؟ — لَوْ تَوَاتَى لَنَا هَذَا أَوْ نَحْوُهُ ، لَبَدَا أَخْيَارُنَا وَأَفَاضِلُنَا كَذَلِكَ مُتَشَابِهِينَ مُتَمَاثِلِينَ ، وَكَانَ نَفْعُهُمْ عَلَى هَذَا النَّحْوِ عَظِيمًا لَا حَدَّ لَهُ ، وَلَكِنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يُشْبِهُونَ الْمُثُلَ الْقَدِيمَةَ ، وَالصُّوَرَ الْمَاضِيَةَ لِلعَظَمَةِ وَالنُّبُوغِ ، فَقَدْ تَغَيَّرَ الزَّمَانُ وَتَبَدَّلَتِ الظُّرُوفُ ، وَحَالَتِ الْأَحْوَالُ ، وَقَدْ كَانَ أَهْلُ الزَّمَنِ

الْمَاضِي مَا كَانُوا ، وَنَحْنُ غَيْرُهُمْ ، وَجِيلُنَا غَيْرُ أَجْيَالِهِمْ ، وَخُصُومُنَا خِلَافُ خُصُومِهِمْ ، وَأَعْدَاؤُنَا لَيْسُوا كَمِثْلِ أَعْدَائِهِمْ ، وَكُلُّ تَغَيُّرٍ فِي الْعَصْرِ يَنْطَوِي عَلَى تَطَوُّرٍ فِي الْخُلُقِ ، وَتَحَوُّلٍ فِي أَقْيِسَةِ الْآدَابِ . وَالْأَرْجَحُ أَلَّا تَبْقَى كَذَلِكَ الْمَعَالِمُ وَالْأَشْكَالُ ، وَالصِّيَغُ وَالْأَسَالِيبُ وَاحِدَةً . وَإِنْ كَانَ مِنَ الْمُؤَكَّدِ وَالثَّابِتِ وَالْيَقِينِ ، أَنَّ هَذَا لَا يَعْنِي ، أَنَّ مَا مَطْلُوبٌ مِنَّا ، قَدْ أَصْبَحَ أَقَلَّ مِمَّا كَانَ مَطْلُوبًا مِنْهُمْ ، وَلَكِنَّهُ أَكْثَرُ ، كَمَا لَا يَفْتَأُ الْوُعَّاظُ يَقُولُونَ لَنَا مِنْ فَوْقِ ذُؤَابَةِ[1] الْمَنَابِرِ فِي عِظَاتِ أَيَّامِ الْآحَادِ ، لَوْ أَنَّهُمْ فَقَطْ اسْتَطَاعُوا أَنْ يُحَدِّثُونَا مَا مَعْنَى « أَكْثَرُ » هَذِهِ وَحُدُودِهَا وَمِنْ أَيِّ

(١) ذؤابة كل شيء : أعلاه .

شَيْءٍ تَتَأَلَّفُ ، وَفِيمَ تَنْطَوِي عَلَيْهِ ؟ وَإِنَّمَا أَسْمَى مَا يَبْلُغُ الْوَعْظُ ، وَيَصِلُ إِلَيْهِ التَّعْلِيمُ وَالْإِرْشَادُ ، هُوَ قَوْلُهُمْ : إِنَّهُ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَعْمَلَ بِرُوحِ الْحُبِّ ، وَلَكِنَّ هَذَا لَا يَزَالُ قَوْلًا مُنْحَصِراً فِي الْعُمُومِيَّاتِ ، عَلَى حِينِ يَقْتَضِي الْعَمَلُ التَّقْسِيمَ وَالْإِفْرَادَ ، وَالتَّفْصِيلَ وَالْإِسْهَابَ وَالْبَيَانَ ، بَلْ إِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ : كَمَا لَوْ قَالَتِ الْكَنِيسَةُ لِلرَّسَّامِ أَوِ الْمُوسِيقِيِّ الَّذِي تَتَوَلَّى تَعْلِيمَهُ وَتَدْرِيبَهُ ، يَجِبُ أَنْ تَعْمَلَ بِرُوحِ الْحُبِّ وَرُوحِ الْحَقِّ ، ثُمَّ تُرْدِفُ عَلَى ذَلِكَ قَوْلَهَا ، إِنَّ النَّقْشَ الْكَاثُولِيكِيَّ أَوِ الْمُوسِيقَى الْكَاثُولِيكِيَّةَ ، هِيَ مَا لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقَلَّدَ ، وَمَا لَا يَصِحُّ لَهُ أَنْ يُحْتَذَى ، فَمَاذَا يَكُونُ الْحَالُ إِذَا هِيَ أَخْرَجَتْهُ بَعْدَ هَذَا إِلَى الْعَالَمِ مُجَهَّزاً

مُدَرَّبًا كُلَّ التَّدْرِيبِ لِفَنِّهِ هَذَا وَصِنَاعَتِهِ ؟ ؟

نَعَمْ مَاذَا يَكُونُ الْحَالُ ، وَمَاذَا تَكُونُ النَّتِيجَةُ ؟ ؟ وَهَا هِيَ النَّظَرِيَّةُ الإِيمَرْسُونِيَّةُ ، قَدْ ظَهَرَتْ لَنَا كَمَا ظَهَرَ غَيْرُهَا مِنَ النَّظَرِيَّاتِ الْحَدِيثَةِ ، وَمِنْ قِصَصِ إِينْزُورَثَ وَرِوَايَاتِ بَالْوَارَلِيتُونَ وَمِئَاتٍ وَأُلُوفٍ مِنَ النَّزَعَاتِ غَيْرِ النَّظِيفَةِ ، وَالْأَرْوَاحِ غَيْرِ الطَّاهِرَةِ ، وَالِاتِّجَاهَاتِ الضَّالَّةِ الْمُغْرِيَةِ ، وَلَقَدْ أَخْرَجْنَا الشَّيْطَانَ الْكَاثُولِيكِيَّ مِنَ الْبَيْتِ ، وَجَاءَ الْمَذْهَبُ الْبِيُورِيتَانِيُّ فَكَنَسَ الْبَيْتَ بَعْدَ خُرُوجِهِ ، وَنَظَّفَهُ وَطَلَاهُ بِالدِّهَانِ وَالطِّلَاءِ ، وَلَكِنَّا بَعْدَ كُلِّ هَذَا لَمْ نَشْهَدْ إِلَى الْآنَ بَوَادِرَ تَدُلُّ عَلَى قُرْبِ قُدُومِ سَاكِنٍ نَظِيفٍ ،

بَلْ قَدْ يَكُونُ هُنَاكَ سُكَّانٌ هُمْ شَرٌّ مِنَ الْكَاثُولِيكِيَّةِ وَأَسْوَأُ وَأَبْلَغُ خُسْراً !

* * *

تراجم العصر الحديث

وَلَوْ أَرَدْنَا بُرْهَاناً عَلَى مَبْلَغِ مَا هَوَيْنَا إِلَيْهِ مِنَ الْفَوْضَى النَّفْسِيَّةِ الْمُطْلَقَةِ، وَمَا عَرَانَا مِنَ الِانْحِلَالِ الرُّوحِيِّ التَّامِّ لَكَانَ كَافِياً أَنْ نَنْظُرَ إِلَى خُلُوِّ أَدَبِنَا مِنَ التَّرَاجِمِ، وَسِيَرِ النَّوَابِغِ، وَقِصَصِ حَيَاةِ الْعُظَمَاءِ.

وَلَسْنَا نَعْنِي بِهَذَا أَنْ لَيْسَ لَدَيْنَا تَرَاجِمُ مَكْتُوبَةٌ لِبَنِي عَصْرِنَا، فَإِنَّ لَدَيْنَا فِي الْوَاقِعِ مِنْ ذَلِكَ الْكِفَايَةَ وَالْكَثِيرَ، بَلْ فَوْقَ الْكِفَايَةِ وَالْكَثِيرِ، وَلَكِنَّ[1] الَّذِي نَعْنِيهِ أَنْ لَيْسَ فِي هَذِهِ التَّرَاجِمِ

(١) يريد أن تراجم المعاصرين على كثرتها ووفرتها خلو من الكمال الخلق الذى يحال إليه الشباب ليترسموه ويحتذوه ويتخلقوا بما فيه .

جَمِيعاً ، وَاحِدَةٌ يُمْكِنُ أَنْ نَتَبَيَّنَ خِلاَلَهَا نُزُوعاً نَحْوَ الْكَمَالِ فِي مُعَاصِرِينَا ، أَوْ نَشْهَدَ فِيهَا السُّمُوَّ الْخُلُقِيَّ وَالرِّفْعَةَ النَّفْسِيَّةَ فِي ضِيَائِهَا السَّاطِعِ ، وَقَالَبِهَا الْحَقِيقِيِّ ، وَمَنْزِعِهَا الصَّحِيحِ ، إِي وَاللهِ لَيْسَ فِي هَذِهِ التَّرَاجِمِ الْعَدِيدَةِ كُلِّهَا مَا يَصِحُّ أَنْ نَضَعَهُ فِي يَدِ شَبَابِنَا ، وَنَحْنُ بِمِلْءِ الثِّقَةِ قَائِلُونَ لَهُمْ : خُذُوا هَذَا فَاقْرَءُوهُ ، فَإِنَّ فِيهِ حَيَاةَ رَجُلٍ بِمَعْنَى الْكَلِمَةِ ، رَجُلٍ نُرِيدُ أَنْ تَجْعَلُوا حَيَاتَكُمْ عَلَى غِرَارِهِ[1] ، وَتَسْلُكُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مَسَالِكَهُ ، هَاؤُمُ اقْرَءُوا الْكِتَابَ وَفَكِّرُوا مَلِيًّا[2] فِيهِ ، وَتَأَمَّلُوا كَيْفَ كَانَ الرَّجُلُ ، وَكَيْفَ

(١) على غراره : على نمطه وصورته (٢) مليا : طويلا

أَنْشَأَ نَفْسَهُ إِنْشَاءً ، وَأَقَامَ عِصَامِيَّتَهُ[1] خَيْرَ مَقَامٍ ، وَاجْتَهِدُوا أَنْ تَكُونُوا مِنْ أَمْثَالِهِ إِنْ كُنْتُمْ قَادِرِينَ » ؟؟

وَلَكِنْ هَذَا هُوَ مَا اسْتَطَاعَ الدِّينُ أَنْ يَقُومَ بِهِ ، فَقَدْ وَضَعَ قَالَبَهُ الْخَاصَّ لِلْكَمَالِ الإِنْسَانِيِّ وَأَقَامَ الْمِثَالَ عَلَيْهِ ، وَجَعَلَ هَذَا الْمِثَالَ يَتَعَدَّدُ بَيْنَ أُمَّتِهِ ، وَيُنْشِئُ قَوَالِبَ وَنَمَاذِجَ مِنْ غِرَارِهِ ، عَلَى مَرِّ الزَّمَنِ وَتَعَاقُبِ الأَجْيَالِ ، وَهُوَ مِثَالٌ مِنَ الْخُلُقِ الْكَامِلِ لاَ يَنْتَسِبُ إِلَى صِنَاعَةٍ بِذَاتِهَا ، وَلاَ هُوَ مَقْصُورٌ عَلَى حِرْفَةٍ مُعَيَّنَةٍ ، بَلْ مِثَالٌ يَتَسَاوَى فِي التَّطَلُّعِ إِلَيْهِ

(١) العصامى : الذى يخلق لنفسه المجد خلقا. نسبة إلى عصام وهو رجل فى الجاهلية. بلغ الرفعة بنفسه حتى صار من خواص النعمان بن المنذر وفيه يقول الشاعر :

نفس عصام سودت عصاما وعلمته الكر والاقداما
وسيرته سيدا هماما

ويقابل العصامى العظامى : وهو من يفخر بآبائه وأجداده

الْعَالِمُ ، وَالْجَاهِلُ ، وَالْحَضَرِيُّ ، وَالْبَدَوِيُّ ، وَالْمَلِكُ وَالسُّوقِيُّ عَلَى السَّوَاءِ . وَقَدْ تَطَلَّعَتْ إِلَيْهِ أَشْكَالٌ مُنَوَّعَةٌ مِنَ الْخَلْقِ ، وَعَمِلَ عَلَى بُلُوغِهِ رِجَالٌ مِنْ كُلِّ طَائِفَةٍ وَفِرْقَةٍ ، وَطَبَقَةٍ وَصِنْفٍ ، حَتَّى أَدْرَكُوا مُسْتَوَاهُ ، وَبَلَغُوا حُدُودَهُ ، وَأَوْفَوْا عَلَى غَايَتِهِ ، فَلَمْ يَكُنْ مِنَ الدِّينِ إِلاَّ أَنِ احْتَضَنَهُمْ ، وَرَفَعَهُمْ أَمَامَ عَيْنِ الْعَالَمِ وَازْدَهَى بِهِمْ ، وَنَصَبَهُمْ(١) عَنَاوِينَ(٢) نَصْرِهِ عَلَى الشَّيْطَانِ ، وَفَوْزِهِ الْبَاهِرِ عَلَى الْكُفْرِ وَالزَّيْغِ(٣) ، وَالتَّجَرُّدِ مِنَ الإِيمَانِ .

* * *

التربية والتعليم

وَلَمْ نَسْتَطِعْ نَحْنُ أَنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ أَوْ نَقُومَ بِبَعْضِهِ

(١) نصبهم : رفعهم ظاهرين (٢) عناوين : أدلة والمراد أن الدين أظهرهم أمام الأعين أمثلة بارزة يراها كل راء (٣) الزيغ : الضلال

وَلَنْ يُتَاحَ[1] لِلتَّعْلِيمِ وَلاَ لِلتَّرْبِيَةِ أَنْ يُصِيبَا نَصِيباً مِنَ النَّجَاحِ وَالتَّوْفِيقِ ، مَا لَمْ نَصِلْ إِلَى تَحْقِيقِ هَذَا الَّذِي عَجَزْنَا إِلَى الآنَ عَنْهُ ، فَإِنَّ الْكَمَالَ الْخُلُقِيَّ لَيْسَ هَيِّناً ، وَلاَ بُلُوغُهُ بِسَهْلٍ مَيْسُورٍ ، وَلَكِنَّهُ أَشَقُّ شَيْءٍ طَلَباً ، وَأَصْعَبُ شَيْءٍ تَحْقِيقاً ، وَلَيْسَ يَكْفِي أَنْ نَضَعَ قَوَاعِدَ لِلْحَيَاةِ وَنَسُنَّ تَعَالِيمَ ، بَلْ لَوْ أَنَّ تَحْلِيلَنَا لِلْحَيَاةِ فِي كُلِّ أَشْكَالِهَا الْمُمْكِنَةِ كَانَ تَامًّا ، وَهُوَ إِلَى الْيَوْمِ بِالْعَكْسِ ، لاَ يَزَالُ ابْتِدَائِيًّا لِلْغَايَةِ ، لَمَا كَانَ ذَلِكَ كَافِياً مَعَ هَذَا وَلاَ مُغْنِياً . وَقَدْ يَفْهَمُ الإِنْسَانُ فَلْسَفَةَ شَيْءٍ مَا ، وَنَظَرِيَّاتِهِ وَتَعَالِيمَهُ ، وَمَا يُقَالُ فِيهِ ، وَلَكِنَّ فَهْمَهَا لاَ يُذَلِّلُ تَنْفِيذَهَا ، وَتَطْبِيقَهَا كُلَّ

(١) يتاح : يتهيأ .

التَّذْلِيلِ ، وَفِي الْحَيَاةِ كَمَا فِي الْفُنُونِ وَكَمَا فِي الْعُلُومِ الرِّيَاضِيَّةِ ، لَيْسَ مِنْ أَنْوَاعِ التَّعْلِيمِ مَا هُوَ أَكْثَرُ إِجْدَاءً ، وَلاَ أَصْلَحُ وَلاَ أَقْوَمُ سَبِيلاً مِنَ التَّعْلِيمِ بِالْمَثَلِ وَالْقُدْوَةِ وَالشَّبَهِ وَالْأُسْوَةِ ، وَقَدْ يَسْتَطِيعُ الْعَالِمُ الرِّيَاضِيُّ أَنْ يُحَاضِرَكَ أَبْرَعَ[1] الْمُحَاضَرَةِ فِي مَوْضُوعِ الْقَاطِرَاتِ الْبُخَارِيَّةِ ، وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ أَعْجَزُ مَا يَكُونُ عَنْ صُنْعِ وَاحِدَةٍ مِنْهَا ، بَلْ هُوَ الْعَاجِزُ عَنْ أَنْ يَصْنَعَ وَلَوْ مِسْمَاراً فِيهَا ، بَيْنَمَا نَرَى الْعَامِلَ فِي غُرْفَةِ الْآلاَتِ لاَ يُعَلِّمُ صَبِيَّهُ نَظَرِيَّةَ التَّمَدُّدِ ، وَلاَ يُلَقِّنُهُ نَظَرِيَّةَ الضَّغْطِ الْجَوِّيِّ ، وَإِنَّمَا كُلُّ مَا يُعَلِّمُهُ : هُوَ تَدْرِيبُ يَدِهِ عَلَى الْمُحَرِّكِ ، وَعَيْنِهِ عَلَى تَتَبُّعِ مِيزَانِ الْحَرَارَةِ ،

(١) أبرع المحاضرة : أظهرها وأقواها

وَيَدَعُ الْعِلْمَ يَأْتِي بَعْدَ التَّمْرِينِ، وَالتَّوَسُّعَ فِي النَّظَرِيَّاتِ يَتْلُو التَّدَرُّبَ الْمِيكَانِيكِيَّ لِمَنْ شَاءَ .

وَكَذَلِكَ هُوَ الْحَالُ فِي كُلِّ مَا يَتَعَلَّمُهُ الْمَرْءُ وَيُلَقَّنُ عَمَلَهُ، وَلَكِنَّا مَعَ ذَلِكَ فِي الْحَيَاةِ وَهِيَ فَنُّ الْفُنُونِ، وَصِنَاعَةُ الصِّنَاعَاتِ، لِأَنَّهَا فَوْقَ كُلِّ فَنٍّ، وَأَدَقُّ مِنْ كُلِّ صِنَاعَةٍ، وَلَا نَزَالُ نَقْنَعُ فِي تَرْبِيَةِ أَطْفَالِنَا وَتَعْلِيمِهِمْ بِمُجَرَّدِ تَلْقِينِ الْأَوَامِرِ، وَالنَّوَاهِي، وَالْوَصَايَا، وَالتَّعَالِيمِ، وَنَحْنُ نَعِظُهُمْ فِي فَضْلِ الْخَيْرِ، وَخَيْرِ الْفَضِيلَةِ، وَقُبْحِ الشَّرِّ، وَضَرَرِ السُّوءِ، فَإِذَا مَا تَرَقَّيْنَا بِهِمْ فِي مَدَارِجِ التَّعْلِيمِ، لَقَّنَّاهُمْ نَظَرِيَّةَ[1] الْعَادَةِ

(١) نظرية العادة وحرية الارادة : من نظريات علم الأخلاق يشرحها ويبين كيف تثبت العادة، حتى تصير خلقا غريزيا أو كالغريزى، وكيف يتخلص منها إن كانت ضارة، ويبين الوسائل الفعالة فى كلتا الحالتين .

وَحُرِّيَّةَ الْإِرَادَةِ ، فَإِذَا مَا أَدْرَكْنَا الْخَيْبَةَ تِلْوَ الْخَيْبَةِ ، وَالْإِخْفَاقَ إِثْرَ الْإِخْفَاقِ ، رُحْنَا نُعَزِّي أَنْفُسَنَا بِإِقْنَاعِهَا أَنَّ الذَّنْبَ لَمْ يَكُنْ ذَنْبَنَا ، وَأَنَّنَا قَدْ فَعَلْنَا كُلَّ مَا كَانَ مُمْكِناً أَنْ يَفْعَلَهُ النَّاسُ . فَيَا لَلسُّخْرِيَةِ[1] ! وَيَا لَلْعَبَثِ ! وَوَافَرَحَنَا بِنَظَرِيَّةِ حُرِّيَّةِ الْإِرَادَةِ ! كَأَنَّمَا فِي وُسْعِ الْحَدَّادِ أَنْ يُعَلِّمَ صَبِيَّهُ كَيْفَ يَصْنَعُ حُدْوَةَ حِصَانٍ بِمُجَرَّدِ قَوْلِهِ لَهُ : إِنَّهُ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَصْنَعَهَا إِذَا هُوَ شَاءَ !

* *
*

كشافة الفضيلة

إِنَّمَا نَحْنُ فِي سَفَرِنَا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِغُرَبَاءَ مَضَوْا يَلْتَمِسُونَ طَرِيقَهُمْ ، وَسَطَ أَرْضٍ مَتَاهَةٍ

(١) تركيب يراد به التعجب مع الألم فيا للتنبيه لا للاستغاثة . والسخرية : الاستهزاء . والعبث : اللهو واللعب . كأنه يرى أن النظريات مجردة عن العمل ، لا قيمة لها ولا ارتباط بينها

وَفَضَاءٍ وَعْرٍ مُشْتَبِكِ الدُّرُوبِ[١] مُتَنَادِحِ[٢] الْمَسَالِكِ وَالشِّعَابِ[٣] . فَلَيْسَ يَكْفِينَا أَنْ نَعْرِفَ أَنَّ غَيْرَنَا ذَهَبُوا فِي هَذَا السَّفَرِ كَمَا نَحْنُ ذَاهِبُونَ ، وَأَنَّ سِوَانَا وَاجَهُوا الصِّعَابَ فِي طَرِيقِهِمْ ، فَتَغَلَّبُوا عَلَيْهَا وَبَلَغُوا آخِرَ الْمَسِيرِ الْغَايَةَ ، وَأَوْفَوْا عَلَى نِهَايَةِ الرِّحْلَةِ . لَيْسَ يَكْفِينَا أَنْ نَعْرِفَ هَذَا ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ مَا يُشَجِّعُنَا ، وَيَنْفُخُ فِي أَرْوَاحِنَا ، وَيَحْفِزُنَا[٤] إِلَى الْمَسِيرِ . وَلَكِنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ ، لَيْسَ سِوَى تَعْلِيمِنَا أَنَّ الْمَصَاعِبَ وَالْمَشَاقَّ لَيْسَتْ عَصِيَّةً عَلَى الْمُقْتَحِمِ[٥] ، وَلاَ مُسْتَحِيلَةً عَلَى مَنْ يَبْغِي عَلَيْهَا تَغَلُّبًا . وَلَكِنَّ اللُّغْزَ الْأَكْبَرَ ، هُوَ الْأَثَرُ ،

(١) الدروب : الطرق (٢) متنادح : متسع (٣) الشعاب : مستدق الطرق فى الجبال جمع شعب (٤) الحافز : الدافع الحثيث (٥) الذى يزج بنفسه فى الغمرة لا يبالى .

هُوَ الطَّرِيقُ الَّذِى شَقَّهُ أُولَئِكَ الآخَرُونَ كَشَّافَةُ الْفَضِيلَةِ ، وَطَلاَئِعُ[١] الْخَيْرِ وَالصَّلاَحِ . فَإِنَّ هَذَا هُوَ مَا نَتَلَهَّفُ عَلَى مَعْرِفَتِهِ ، وَنَتَصَايَحُ نَطْلُبُ مَنْ يُعَلِّمُنَا أَيْنَ هُوَ وَكَيْفَ نَهْتَدِى إِلَيْهِ ؟؟ وَلَسْنَا نُرِيدُ لَهُ وَصْفاً مِنَ الْخَيَالِ ، كَمَا رَأَيْنَا فِى كِتَابِ الطَّرِيقِ إِلَى الْحَجِّ[٢] ، وَلَكِنَّا نُرِيدُ طَرِيقاً حَقِيقِيًّا ، طَرَقَهُ رِجَالٌ حَقِيقِيُّونَ ، نُرِيدُ أَنْ نَعْرِفَ أَنَّ هُنَا هَضْبَةً[٣] صَخْرِيَّةً ، لَيْسَ عِنْدَهَا غَيْرُ مَوْضِعٍ وَاحِدٍ ، يَتَيَسَّرُ مِنْهُ التَّسَلُّقُ وَالارْتِفَاعُ ، وَأَنَّ هُنَاكَ وَادِياً ، أَوْ نَهْرًا ، أَوْ مُسْتَنْقَعاً ، وَأَنَّ فِى نَاحِيَةٍ مَعْبَرًا ، وَفِى أُخْرَى مُجْتَازًا[٤] ، وَفِى ثَالِثَةٍ مَخَاضَةً وَسَبِيلاً ،

(١) الطلائع : جمع طليعة : الكتيبة تتقدم الجيش (٢) لعله يشير إلى كتاب الرحلة الحجازية للاستاذ البتانونى (٣) الهضبة : الجبل المنبسط على وجه الأرض (٤) مجتازا : أى طريقا

وَأَنَّ فِي الْغَابَةِ الْفُلَانِيَّةِ لُصُوصًا ، وَفِي الْأُخْرَى وُحُوشًا وَسِبَاعًا ضَارِيَةً . وَأَنَّ السُّبُلَ تَتَشَابَكُ ثُمَّ تَتَفَرَّقُ ، وَتَتَنَاوَحُ ثُمَّ تَتَمَيَّزُ . وَأَنَّ الْمَتَاهَةَ لَا تَلْبَثُ مَعَ إِغْذَاذِ[1] الْمَسِيرِ ، وَالْحَذَرَ وَالْفِطْنَةَ أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى طَرِيقٍ وَاضِحٍ يُوفِي[2] عَلَى نِهَايَةِ الطَّرِيقِ .

* * *

طابع العصر الحاضر

إِنَّ عَصْرَ الْأَوْلِيَاءِ الصَّالِحِينَ قَدْ مَضَى وَانْقَضَى ، وَلَمْ يَعُدْ لَنَا مَا نَسْتَمِدُّهُ مِنْهُمْ ، وَإِنَّمَا كُلُّ مَا يَجِبُ عَلَيْنَا هُوَ أَنْ نَسِيرَ بِرُوحِهِمْ ذَاتِهَا الَّتِي سَارُوا بِهَا ، وَلَكِنْ لَيْسَ فِي طَرِيقِهِمُ الَّذِي سَارُوا فِيهِ ، وَلَا مِنْهَاجِهِمُ الَّذِي اتَّبَعُوهُ . وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَجْعَلُنَا نَقُولُ مَا قُلْنَاهُ : وَهُوَ أَنْ لَيْسَ لَدَيْنَا نَمَاذِجُ لِلْعَظَمَةِ ، وَلَا

(١) أغذ السير : أسرع فيه والاغذاذ نوع من السير كالخبب والعنق

(٢) يوفي : يشرف

قَوَالِبُ لِلْعُظَمَاءِ ، وَلَيْسَ عِنْدَنَا تَرَاجِمُ وَلاَ قَصَصُ حَيَاةٍ ، وَلاَ سِيَرٌ وَلاَ تَوَارِيخُ تُجْدِي عَلَيْنَا خَيْرَ جَدْوَى ، وَتَنْفَعُنَا أَصْدَقَ النَّفْعِ . بَلْ إِنَّ هَذَا الْفَقْرَ فِي نَمَاذِجِ الْعَظَمَةِ ، وَتَرَاجِمِ الْعُظَمَاءِ هُوَ طَابَعُ[1] عَصْرِنَا الْحَاضِرِ وَأَخَصُّ خَوَاصِّهِ ، وَهِيَ ظَاهِرَةٌ[2] جَدِيدَةٌ لَمْ يَبْدُ مِثْلُهَا مُنْذُ فَجْرِ التَّارِيخِ . بَلْ هُوَ بُرْهَانٌ جَدِيدٌ ، إِنْ كُنَّا بِحَاجَةٍ إِلَى الْبَرَاهِينِ ، عَلَى أَنَّنَا مُقْبِلُونَ عَلَى عَهْدٍ جَدِيدٍ وَعَصْرٍ آخَرَ ، إِذْ نَحْنُ فِي جُهُودِنَا الْحَالِيَّةِ ، وَمُحَاوَلاَتِنَا الْحَاضِرَةِ لِسَبِيلِ التَّعْلِيمِ أَشْبَهُ بِعُمَّالٍ ، قَدْ شَرَعُوا فِي صُنْعِ آلَةٍ يَعْرِفُونَ أَنَّهَا سَوْفَ تُرَكَّبُ مِنْ صَفَائِحَ وَأَلْوَاحٍ وَلِحَامَاتٍ وَعَجَلاَتٍ وَمَسَامِيرَ وَقَلاَوُوظَاتٍ

(١) طابع عصرنا : أى الخاصة والعلامة التى يمتاز بها هذا العصر عن غيره
(٢) ظاهرة : سمة وعلامة

وَزَنْبَرَكَاتٍ، فَيَمْضُونَ يُهَيِّئُونَ مَسَامِيرَهُمْ وَزَنْبَرَكَاتِهِمْ، وَيُنَعِّمُونَ وَيَصْقُلُونَ أَلْوَاحَهُمْ ، وَيُهَذِّبُونَ بِكُلِّ تَدْقِيقٍ وَعِنَايَةٍ عَجَلاَتِهِمْ وَمُفَصَّلاَتِهِمْ ، وَلَكِنَّهُمْ لِجَهْلِهِمْ فَنَّ تَرْكِيبِ الْآلَةِ فِي تَفَاصِيلِهِ وَدَقَائِقِهِ ، وَجُزَيْئَاتِهِ وَكُلِّيَّاتِهِ ، يَرُوحُونَ يُرَكِّبُونَهَا خَبْطَ[1] عَشْوَاءَ ، وَيُؤَلِّفُونَ مِنْهَا عَلَى غَيْرِ هُدًى هَيْكَلاً مِنْ أَدَاةٍ فَاسِدَةٍ ، مُخْتَلَّةِ النِّظَامِ غَيْرِ مُرْتَبِطَةِ الْأَجْزَاءِ ، مُتَّصِلَةِ اللِّحَامَاتِ وَالرَّوَابِطِ ، وَإِمَّا أَنْ يُرَكِّبُوا الْأَدَوَاتِ الضَّرُورِيَّةَ كَوْمَةً وَاحِدَةً ، وَيَتَوَكَّلُوا عَلَى عُضْوِيَّةٍ خَفِيَّةٍ فِي هَذِهِ الْأَدَوَاتِ ، قَدْ تُشَكِّلُهَا مِنْ تِلْقَاءِ ذَاتِهَا ، وَتَجْعَلُ مِنْهَا وَحْدَةً وَكُلِّيَّةً عَامِلَةً .

(١) خبط عشواء : أى من غير هداية . والعشواء : الناقة التى لا تبصر ليلا فهى تخبط فى سيرها

* * *

تربية الابناء

هَذَا هُوَ مَثَلُنَا فِي تَرْبِيَةِ أَوْلَادِنَا ، فَنَحْنُ لَا نَعْرِفُ مَاذَا نُرِيدُ بِهِمْ ، أَوْ نُرِيدُهُ مِنْهُمْ ؟ ؟ فَمِنْ قَائِلٍ نَخْلُقُ مِنْهُمْ رِجَالاً ، وَلَكِنْ لَيْتَ شِعْرِي ، أَيَّ نَوْعٍ مِنَ الرِّجَالِ نُنْشِئُ مِنْهُمْ ؟ ! لَقَدْ كَانَ الإِغْرِيقُ رِجَالاً ، وَكَذَلِكَ كَانَ الْيَهُودُ ، وَكَذَلِكَ كَانَ الرُّومَانُ ، وَالسَّكْسُونُ الْقُدَمَاءُ ، وَالنُّورْمَانُ ، وَالْأَسْبَانُ فِي عَهْدِ الدَّوْقِ أَلْفَا وَالْبُورْنْيَانِ فِي عَهْدِ كُرُومْوِيلْ . . . لَقَدْ كَانَ أُولَئِكَ جَمِيعاً رِجَالاً ، بَلْ رِجَالاً أَقْوِيَاءَ . وَلَكِنْ كَانَ كُلُّهُمْ مُخْتَلِفاً عَنِ الآخَرِ ، وَكَانَتْ تَرْبِيَتُهُ كَذَلِكَ مُخْتَلِفَةً عَنْ تَرْبِيَةِ سِوَاهُ ، وَمِنْ قَائِلٍ نُنْشِئُ مِنْهُمْ مَسِيحِيِّينَ ، وَلَكِنَّ الْقِدِّيسِينَ وَالْأَوْلِيَاءَ ، كَانُوا كَذَلِكَ

رِجَالاً مَسِيحِيِّينَ ، وَقَدْ عُرِضَتْ عَلَى الْمُعَاصِرِينَ تَرَاجِمُ أُولَئِكَ الْقِدِّيسِينَ ، وَنُشِرَتْ عَلَى أَهْلِ الْعَصْرِ الْحَدِيثِ سِيَرُ حَيَاتِهِمْ ، وَمَعَ ذَلِكَ أَعْرَضُوا عَنْهَا ، وَأَدْرَكُوا أَنَّهَا لَيْسَتِ النَّمَاذِجَ الصَّالِحَةَ الْمُلَائِمَةَ لِعَصْرِهِمْ ، الْمُوَافِقَةَ لِحَيَاتِهِمُ الْحَدِيثَةِ .

يَا لَلْأَسَفِ ! بَلْ إِنَّهُ لَأَسَفٌ يُذِيبُ[1] الْقَلَمَ ، فَفِي وَسَطِ هَذِهِ الْفَوْضَى ، وَالْحَيْرَةِ وَالِاخْتِلَاطِ ، لَا يَنْتَفِعُ غَيْرُ الشَّبَابِ ، الَّذِينَ أُوتُوا حِدَّةَ بَصَرٍ وَزَكَانَةٍ[2] وَدِقَّةَ إِحْسَاسٍ ، لِأَنَّ أَذْهَانَهُمْ لَا تَخْذُلُهُمْ[3] بِسُهُولَةٍ ، وَعُقُولَهُمْ لَا تَضْطَرِبُ وَشِيكًا[4] ، وَهُمْ فِي نَظْرَتِهِمُ الْمَادِّيَّةِ إِلَى الْحَيَاةِ ، يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الشَّخْصَ الْعَمَلِيَّ هُوَ

(١) يذيب القلم : أى أن الحسرة وخيبة الأمل تصهر القلم فتذيبه
(٢) الزكانة : الفطنة والحذق (٣) خذله : قعد عن نصرته أى أن أذهانهم حادة قوية (٤) وشيكا : سريعا

الَّذِى يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْشِىَ فِى مَنَاكِبِ هَذِهِ الدُّنْيَا ، وَأَنْ يَنْجَحَ وَأَنْ يَجْمَعَ الْمَالَ وَيَظْفَرَ بِالثَّرَاءِ[١] ، وَهَؤُلَاءِ بِأَدْوَارِهِمْ سَيُلَقِّنُونَ أَوْلَادَهُمْ ، وَيُعَلِّمُونَ صِغَارَهُمْ وَفْقَ قَانُونِ[٢] الْعَرْضِ وَالطَّلَبِ أَنْ يَأْتُوا بِأَسْعَارِهِمْ فِى السُّوقِ ، وَهَذَا طَرِيقٌ وَاضِحٌ ، وَمَسْلَكٌ بَيِّنٌ ، مُعَيَّنُ الْمَعَالِمِ ، قَوِيمُ الْمَحَجَّةِ ، وَهُوَ لِهَذَا مُؤَدٍّ إِلَى النَّجَاحِ ، وَهَذَا الْمَبْدَأُ سَيَجْرِى وَيَعُمُّ وَيَشِيعُ ، وَلَكِنْ إِلَى حِينٍ . . . نَعَمْ إِلَى حِينٍ ، وَلَكِنْ لَنْ يَدُومَ ، مَا لَمْ تَكُنِ الْأَدْيَانُ حُلُماً مِنَ الْأَحْلَامِ ، وَوَهْماً مِنَ الْأَوْهَامِ ، وَمَا لَمْ تَكُنْ أَفْكَارُنَا الْخَيَالِيَّةُ ، وَتَصَوُّرَاتُنَا السَّامِيَةُ ،

(١) الثراء : الغنى (٢) أى يوجهونهم إلى الناحية التى يصيبون منها الثراء والمادة

عَنْ أَنْفُسِنَا سِوَى مُجَرَّدِ رُؤًى[1] وَأَخْيِلَةٍ ، وَأَطْيَافِ مَنَامٍ ، لاَ يَلْبَثُ الْعَصْرُ أَنْ يَسْتَيْقِظَ مِنْهَا الْيَقْظَةَ الْمُنْتَظَرَةَ مِنْ عَهْدٍ بَعِيدٍ .

وَمِنَ الصَّعْبِ الْعَسِيرِ الشَاقِّ مُتَابَعَةُ جَمِيعِ الْعِلَلِ وَالأَسْبَابِ ، الَّتِي اجْتَمَعَتْ فَأَدَّتْ بِنَا إِلَى هَذِهِ الْحَالَةِ ، فَإِنَّ كَثِيراً مِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ مُتَأَصِّلٌ[2] غَائِبٌ فِي جُذُورِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَمِنْهَا كَثِيرٌ مُتَّصِلَةٌ بِأَدْوَارِ التَّطَوُّرَاتِ الْمُسْتَطِيلَةِ الْمُتَعَاقِبَةِ ، الَّتِي تَطَوَّرَتْهَا الْجَمَاعَاتُ وَالْجَمَاهِيرُ ، وَالْعَوَامِلُ الَّتِي تَطْبَعُ الْأَجْيَالَ فِي تَعَاقُبِهَا وَتَلاَحُقِهَا بِطَوَابِعِهَا الْخَاصَّةِ ، غَيْرَ تَارِكَةٍ لِلْأَفْرَادِ غَيْرَ

(١) رؤًى : جمع رؤيا : وهى ما يراه النائم فى حلمه . والأخيلة جمع خيال : ما يتخيله الوهم . والأطياف جمع طيف : وهو الصورة المنامية . وكل هذا يغاير الحقائق المحسوسة (٢) متأصل الخ : أى متوارث من العصور السحيقة

هامِشٍ ضَيِّقٍ مَحْدُودٍ ، يَسْتَطِيعُونَ فِيهِ أَنْ يُقَرِّرُوا مَصَائِرَهُمْ ، وَيَخْتَطُّوا فِي الْحَيَاةِ طَرِيقَهُمْ .

* * *

تماثيل العظماء

بَيْدَ أَنَّ هُنَاكَ سَبَباً وَاحِداً يَصِحُّ أَنْ نُشِيرَ إِلَيْهِ ، لِأَنَّهُ قَرِيبٌ مِنَ السَّطْحِ ، وَمِنَ الْخَيْرِ أَنْ نَبْحَثَ الْأَمْرَ مِنْ نَاحِيَتِهِ ، وَقَدْ يَبْدُو هَذَا الْقَلِيلُ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ سَطْحِيًّا ، وَعُرْضَةً لِكَثِيرٍ مِنَ الِانْتِقَادِ ، وَلَكِنَّهُ إِذَا بُحِثَ مَرَّةً أَوْ نُظِرَ إِلَيْهِ أَكْثَرَ مِنْ نَظْرَةٍ عَارِضَةٍ ، بَدَا غَيْرَ ذَلِكَ ، وَأَعْنِي بِهِ زَوَالَ سُلْطَانِ الدِّينِ ، فَإِنَّ الْجُنْدِيَّ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُقِيمَ تِمْثَالاً لِقَائِدِهِ ، وَقَاعَاتُ الْقَضَاءِ مُزْدَانَةُ الْجُدْرَانِ بِصُوَرِ كِبَارِ الْقُضَاةِ وَأَعْلَامِ الْقَانُونِ ، وَالْأَسَاطِينِ وَالْمَدَارِيهِ[1] الْمَشْهُورِينَ ،

(١) المداريه : جمع مدره : البارع البيان فصيح اللسان « المحامى »

وَلِلْعَالِمِ « نُيُوتِنْ » تِمْثَالُهُ ، وَكَذَلِكَ « لِهَارْفِي » ، وَكَذَلِكَ لِجِيمْسَ وَاتْ فِي مَجَامِعِ الْعُلُومِ ، وَكُلُّ فَتًى مُتَطَلِّعٍ إِلَى الشُّهْرَةِ ، صَبَّاءٍ[1] إِلَى الْمَجْدِ وَحُسْنِ الْأُحْدُوثَةِ ، يَرَى وَهُوَ مُقْبِلٌ لِأَوَّلَ مَرَّةٍ عَلَى الصِّنَاعَةِ الَّتِي اخْتَارَهَا لِنَفْسِهِ ، أَنَّ الْإِجَادَةَ لَا تَمْضِي بِغَيْرِ نَصَبٍ مِنَ الْجَزَاءِ ، وَأَنَّ الْإِتْقَانَ ظَافِرٌ بِالشَّرَفِ وَالْإِكْبَارِ وَالتَّكْرِيمِ ، وَبِشَقِّ الطَّرِيقِ وَاضِحًا أَمَامَهُ ، وَالْغَايَةِ بَيِّنَةً جَلِيَّةً ، كُلُّ خُطْوَةٍ مِنْهَا مُعَلَّمَةٌ بِحُرُوفٍ مِنْ ذَهَبٍ ، أَوْ أَحْرُفٍ مِنْ نُورٍ .

وَلَكِنَّ بَاحَاتِ[2] الْمَعَابِدِ ، وَمَحَارِيبَ الْكَنَائِسِ ، وَصُحُونَ الْجَوَامِعِ ، قَدْ أَصْبَحَتْ مَهْجُورَةً مُوحِشَةً

(١) صبّاء : ميال (٢) باحات : ساحات

خَالِيَةً مِنَ الْعَابِدِينَ ، وَسَتَظَلُّ كَذَلِكَ عَلَى وَحْشَتِهَا ، وَقِلَّةِ رُوَّادِهَا[١] ، وَضَآلَةِ عَدَدِ الْمُخْتَلِفِينَ إِلَيْهَا ، وَالْمُتَرَدِّدِينَ عَلَيْهَا ، وَلَمْ نَعُدْ نُقِيمُ تِمْثَالاً لِلْمُتَدَيِّنِ الْمُؤْمِنِ ، وَلاَ لِلتَّقِيِّ الْوَرِعِ . وَكُلُّ الْأَخْيَارِ وَالْأَتْقِيَاءِ يَعِيشُونَ فِي الْعِبَادَةِ وَيَمُوتُونَ فِيهَا ، وَيَحْيَوْنَ فِي الدِّينِ وَيَتَفَانَوْنَ فِيهِ ، وَإِنَّ دُورَهَا لَعَارِيَةٌ ، وَمَعَابِدَهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ، فَإِذَا ذَكَرَهَا الْأَغْنِيَاءُ بِإِحْسَانٍ فَنِعْمَةُ[٢] عَيْنٍ ، وَإِلاَّ فَلاَ تَجِدُ أَحَدًا يَنْبَعِثُ إِلَى مُسَاعَدَةٍ أَوْ مَعُونَةٍ أَوْ بِرٍّ بِهَا ، وَلَيْسَتْ حَفَلاَتُ الْجَنَائِزِ . لِلْمَوْتَى تُقَامُ عَلَى مَبَالِغِ إِفْضَالِهِمْ[٣]

(١) روادها : جمع رائد . يريد المختلفين إليها (٢) فنعمة عين : أى فبها ونعمت . تقول : أفعل لك الأمر ونعمة عين (٣) إفضالهم : إحسانهم

وَفَضَائِلِهِمْ[1] ، وَإِنَّمَا عَلَى مَبَالِغِ تَرِكَاتِهِمْ وَمَقَادِيرِ مَا تَرَكُوا مِنْ مَالٍ وَنَشَبٍ ، وَثَرَاءٍ مَوْرُوثٍ .

* * *

ظهور إيمرسون

عَلَى أَنَّ هُنَاكَ أَسْبَابًا أُخْرَى وَعَوَامِلَ مُتَعَدِّدَةً ، تَعْمَلُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ الرَّاهِنَةِ ، غَيْرَ إِهْمَالِ شَأْنِ الدِّينِ ، وَتُحْدِثُ أَثَرَهَا فِي إِنْجِلْتِرَا ، وَفِي غَيْرِ إِنْجِلْتِرَا عَلَى السَّوَاءِ . وَمِنْ هُنَا كَانَ ظُهُورُ « إِيمِرْسُونَ » الْأَمْرِيكِيِّ وَنَظْرَتُهُ فِي النَّوَابِغِ وَالْعُظَمَاءِ ، وَلَيْسَ الذَّنْبُ فِي ذَلِكَ عَلَى الدِّينِ ، وَلَكِنَّهُ ذَنْبُ الْعَصْرِ ، وَخَطَأُ الْجِيلِ . فَنَحْنُ مُنْتَقِلُونَ مُتَحَوِّلُونَ مِنْ نَوَاحِي النَّشَاطِ وَالْعَمَلِ بِتَعَالِيمِ الْقَدِيمِ ، إِلَى نَوَاحٍ أُخْرَى جَدِيدَةٍ ، لَمْ تُمْتَحَنْ بَعْدُ وَلَمْ تُخْتَبَرْ . وَالْمُشْكِلَةُ الْكُبْرَى الْيَوْمَ : هِيَ كَيْفَ نُحْسِنُ الْعَمَلَ فِيهَا . وَلَا نُسِيءُ اسْتِخْدَامَهَا ؟ وَهِيَ أَنَّ سَبِيلَنَا

(١) فضائلهم : مزاياهم .

الْيَوْمَ لَا يَنْبَغِى أَنْ يَكُونَ إِلَى كُوخِ النُّسَّاكِ[١] وَالزُّهَّادِ، وَلَا إِلَى الْمَوَائِدِ الْحَافِلَةِ بِالْأَطَايِبِ وَشَهِىِّ أَلْوَانِ الطَّعَامِ. بَلْ إِنَّ عَلَيْنَا الْآنَ أَنْ نَنْزِعَ إِلَى صِنَاعَاتٍ وَحِرَفٍ هَادِئَةٍ سَلْمِيَّةٍ وَدِيعَةٍ، كَانَتْ تُعَدُّ فِى عُصُورِ الْبُطُولَةِ، وَعُهُودِ الشَّجَاعَةِ، غَيْرَ خَلِيقَةٍ بِشُرَفَاءِ النُّفُوسِ، وَنُبَلَاءِ الْأَرْوَاحِ. وَفِى تِلْكَ الْعُصُورِ كَانَ الْعَبِيدُ وَالْمَوَالِى وَالْأَصَاغِرُ، هُمُ الَّذِينَ يَزْرَعُونَ وَيَحْرُثُونَ وَيَحُوكُونَ وَيَنْسِجُونَ.

لَقَدْ كَانَ الْوُضَعَاءُ لَمْ يَنْبُتُوا فِى مَنَابِتِ النَّبَاهَةِ وَالذِّكْرِ، وَالشَّرَفِ وَالْخَطَرِ[٢]، هُمُ الَّذِينَ يَطُوفُونَ الْبِحَارَ عَلَى ظُهُورِ السَّفِينِ، وَكَانُوا هُمُ الَّذِينَ يُنْشِئُونَ الْمَصَانِعَ،

(١) النساك: العباد جمع ناسك (٢) والخطر: أى النبل والشرف

وَيَسْتَحْدِثُونَ[١] الصَّنَائِعَ ، وَيَسُدُّونَ حَاجَ[٢] الْحَيَاةِ ، وَيُقِيمُونَ أَوَدَ الدُّنْيَا . فَلَمْ يَخْطُرْ لِأَحَدٍ أَنْ يَبْحَثَ يَوْمَئِذٍ إِلَى أَيِّ حَدٍّ تَتَأَثَّرُ الشَّخْصِيَّةُ بِتِلْكَ الصِّنَاعَاتِ ؟ وَكَيْفَ يَتَسَنَّى الِانْتِفَاعُ بِهَا فِي تَهْذِيبِ الْمَشَاعِرِ ، وَالسُّمُوِّ بِالنُّفُوسِ ؟ . وَمَا مَبْلَغُ مَرَدِّهَا[٣] عَلَى أَخْلَاقِ الْمُشْتَغِلِينَ بِهَا ؟ وَأَشْخَاصِ مُحْتَرِفِيهَا وَالسَّالِكِي مَسَالِكَهَا ؟ . إِي وَاللهِ مَا فَكَّرَ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ ، وَلَا أَلْقَى أَحَدٌ إِلَيْهِ بَالَهُ ، فَقَدْ كَانَ الْعَصْرُ كُلُّهُ فِي شُغْلٍ بِالْبُطُولَةِ . وَكَانَ الْمُعْتَقَدُ يَوْمَئِذٍ أَنَّ تِلْكَ الصِّنَاعَاتِ دُنْيَا[٤] لَا تَلِيقُ بِالْأُفُقِ الَّذِي تَعِيشُ فِيهِ ، وَأَنَّ تِلْكَ الْحِرَفَ وَالْمِهَنَ عَلَى الْعَصْرِ غَرَائِبُ لَيْسَتْ خُلَقَاءَ بِهِ .

(١) يستحدثون : أى يبتكرون (٢) حاج : جمع حاجة
(٣) مردها : فعلها وتأثيرها (٤) دنيا : أى حقيرة

* * *

مصير عبادة البطولة

وَلَكِنَّ الدُّنْيَا تَغَيَّرَتْ، وَالزَّمَنَ تَحَوَّلَ، وَالْعُصُورَ تَبَدَّلَتْ، وَقَدْ تَوَارَتْ عِبَادَةُ الْبُطُولَةِ وَالْأَبْطَالِ وَتَلَاشَتْ، إِذْ لَمْ تَبْقَ مِنْ حَاجَةٍ إِلَيْهَا، وَلَمْ يَعُدْ لَهَا طَلَبٌ. نَعَمْ تَغَيَّرَتِ الدُّنْيَا وَحَالَتْ، وَذَهَبَتْ عِبَادَةُ الْبُطُولَةِ، وَاخْتَفَتْ، ثُمَّ لَمْ تَقُمْ عِبَادَةٌ أُخْرَى مَقَامَهَا، وَلَمْ يَحُلَّ غَيْرُهَا إِلَى الْآنَ مَحَلَّهَا، وَنَحْنُ لِذَلِكَ نَتَخَبَّطُ فِي الظَّلَامِ، وَنَهِيمُ شُرَّدًا[1] عُمْيًا ضَالِّينَ فِي الْحَلَكَةِ[2] الْحَالِكَةِ، وَالْمَتَاهَةِ[3] الْمُتَرَامِيَةِ.

وَإِنَّمَا نَحْنُ لَا نَزَالُ نَسْمَعُ، أَوْ نَتَحَدَّثُ عَنِ الْفَضَائِلِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْوَصَايَا السَّلْبِيَّةِ، أَوِ النَّوَاحِي

(١) الشرد : جمع شريد وهو الضال (٢) والحلكة الحالكة : الظلام الدامس (٣) والمتاهة : المفازة لا أعلام فيها

وَالتَّعْرِيفَاتِ الْعَامَّةِ لِلطِّيبَةِ وَالْخَيْرِ ، ثُمَّ لاَ يَدْرِى السَّامِعُ وَلاَ الْمُتَحَدِّثُ فِى الْحَقِّ مَا هِىَ الطَّبِيعَةُ ، وَمَا هُوَ الْخَيْرُ ؟؟ عَلَى حِينِ لَمْ يَبْقَ لَنَا غَيْرُ هَذِهِ وَحْدَهَا . وَقَدْ أُلْقِىَ بِنَا فِى وَسَطِ حَيَاةٍ أَكْثَرَ تَعْقِيدًا وَاشْتِبَاكًا ، وَأَشَدَّ تَكَالِيفَ وَمُقْتَضَيَاتٍ مِمَّا شَهِدَتِ الْأَرْضُ يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ ، أَوْ عَصْرًا مِنَ الْعُصُورِ ، أَوْ جِيلاً مِنَ الْأَجْيَالِ ، فَكَأَنَّمَا قَدْ أَصْبَحْنَا مَتْرُوكِينَ لِأَنْفُسِنَا حَيَارَى هُيَّمًا ، نَضْرِبُ فِى هَذِهِ الْمَضَلَّةِ الْبَعِيدَةِ ، وَلاَ هَادِىَ لَنَا غَيْرُ غَرَائِزِنَا وَمَحْدُودِ عِلْمِنَا وَرَغَبَاتِنَا وَآمَالِنَا وَهَوَاجِسِ نُفُوسِنَا الشَّرَّدِ الْحَائِرَةِ .

وَلَسْتُ أُرِيدُ أَنْ أَجْعَلَ الْقَوْلَ هَكَذَا جَارِيًا عَلَى وَجْهٍ مِنَ الْعُمُومِيَّاتِ ، وَنَحْنُ نَشْكُو ذَلِكَ وَنَتَبَرَّمُ بِهِ ،

فَلْأُخَصِّصْ إِذَنْ بَعْضَ التَّخْصِيصِ، وَلْأُفَضِّلْ بَعْضَ التَّفْضِيلِ، وَلْأُشِرْ إِلَى قَلِيلٍ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْثِلَةِ، وَالشَّوَاهِدِ عَلَى مَا نَحْنُ فِيهِ بِحَاجَةٍ إِلَى الْهِدَايَةِ، وَمَا نَلْتَمِسُ فِيهِ الْإِرْشَادَ، وَنَعْتَقِدُ لَهُ الدَّلِيلَ، فَلَا نَجِدُ ثَمَّ هَادِيًا وَلَا مُرْشِدًا وَلَا دَلِيلًا، بَلْ هِيَ أَمْثِلَةٌ وَأَحْوَالٌ وَنَوَاحٍ مِنَ الْحَيَاةِ. كَانَ حَرِيًّا بِالَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَ أَمْرَ تَعْلِيمِنَا وَتَرْبِيَتِنَا، أَنْ يَكُونُوا عُلَمَاءَ بِمَا نَحْنُ أَحْوَجُ إِلَيْهِ مِنْ سِوَاهُ، وَكَانَ أَوْلَى بِهِمْ أَنْ يَضَعُوا لَهُ الْقَوَاعِدَ وَيُقَرِّرُوا فِيهِ الرَّأْيَ جَزْمًا وَبَتًّا وَتَقْرِيرًا:

* * *

أوامر الدين

لَا تَزَالُ لَدَيْنَا أَوَامِرُ الدِّينِ وَفَرَائِضُهُ، فَنَحْنُ نَتَحَدَّثُ مِنَ الصِّيَامِ وَالتَّعَفُّفِ، وَالْحَمْلِ عَلَى النَّفْسِ بِزَجْرِ الشَّهَوَاتِ، وَحَبْسِ الرَّغَبَاتِ، وَالصُّرُوفِ عَنِ

اللَّذَاذَاتِ وَالْهَوَى، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ ذَلِكَ تَافِهٌ أَوْ قَلِيلُ الْجَدْوَى، وَلَكِنَّا لَا يَسَعُنَا إِلَّا أَنْ نَبْتَسِمَ سُخْرِيَةً مِنْ دَعْوَى رِجَالِ الدِّينِ أَنَّهُمْ وَحْدَهُمْ بِتَعَالِيمِهِمْ وَكُتُبِهِمُ الدِّينِيَّةِ، الْقَادِرُونَ عَلَى شِفَاءِ النُّفُوسِ، وَعِلَاجِ الْأَرْوَاحِ، بَلْ دَعُونَا نَسْأَلُ عُلَمَاءَ الدِّينِ الْيَوْمَ مَا سَبِيلُ ذَلِكَ وَمَا مُؤَدَّاهُ ؟؟ فَإِنَّا غَيْرُ مُصِيبِينَ جَوَابًا يُحْمَدُ وَيُقْنِعُ، أَوْ غَيْرُ مُتَلَقِّينَ جَوَابًا مَا، أَوْ أَجْوِبَةً مُتَعَارِضَةً مُتَنَاقِضَةً مُتَبَايِنَةً فِي وَسَطِ جَدَلٍ وَلَدَدٍ[1] وَمُنَاقَشَةٍ وَمُنَافَرَةٍ وَإِذَا صَحَّ ذَلِكَ فَكَيْفَ يَتَسَنَّى لِلشَّابِ الْمُقْبِلِ عَلَى الْحَيَاةِ أَنْ يَهْتَدِيَ إِلَى الْحَقِيقَةِ ؟ أَوْ مَاذَا هُوَ مُسْتَنْتِجٌ مِنْ بَيْنِ هَذِهِ الْأَصْوَاتِ الْمُتَعَارِضَةِ، وَالْآرَاءِ الْمُتَبَايِنَةِ الْقَائِمَةِ مِنْ حَوْلِهِ ؟! إِنَّهُ

(١) اللدد : الخصومة

بِطَبِيعَةِ الْحَالِ مُسْتَنْتِجٌ مَا يُوَافِقُ نُزُوعَهُ ، وَيُطَابِقُ مُيُولَهُ ، وَيُسَايِرُ هَوَاهُ ، وَأَكْبَرُ الظَّنِّ أَنَّ اخْتِيَارَهُ مَهْمَا صَدَقَ وَصَحَّ ، سَوْفَ يُخْطِئُ الْحَقَّ ، وَسَوْفَ يَقُومُ عَلَى ضَالِّ الدَّوَافِعِ ، وَأَبْعَدِ الْبَوَاعِثِ مِنَ الصَّوَابِ .

* * *

الشجاعة

وَنَحْنُ قَدْ رَأَيْنَا[1] الشَّجَاعَةَ مَعْدُودَةً بِالإِجْمَاعِ ، كَإِحْدَى اللَّوَازِمِ الْجَوْهَرِيَّةِ لِلْخُلُقِ الرَّفِيعِ ، وَبِنَاءِ الشَّخْصِيَّةِ الْعَالِيَةِ . وَفِي كُلِّ نُظُمِ التَّرْبِيَةِ وَالتَّهْذِيبِ عِنْدَ الْجَمَاعَاتِ الرَّاقِيَةِ ، وَالأُمَمِ السَّامِيَةِ قَدِيماً وَحَدِيثاً ، نَجِدُ بِالْبَحْثِ وَالتَّقَصِّي أَنَّ الشَّجَاعَةَ أَخَصُّ مَا يُعْنَى

(١) رأينا الشجاعة : فى حدها الأوسط ، الذى إذا انحطت عنه ، كانت خبرا ، وإن زادت عليه كانت تهورا على المقياس الاخلاقى الذى يحدد لكل فضيلة وسطا هو المحمود ، وطرفاه مذمومان — « كلا طرفى قصد الأمور ذميم »

بِهِ وَيُحْرَصُ عَلَيْهِ ، وَيُوَجَّهُ أَكْبَرُ الِاهْتِمَامِ اِلَيْهِ ، فَإِنَّ الإِغْرِيقَ ، وَالرُّومَانَ ، وَالْفُرْسَ الْقُدَمَاءَ ، وَالْأُمَّةَ الإِنْكِلِيزِيَّةَ إِلَى الْقَرْنَيْنِ الْمَاضِيَيْنِ ، وَسَائِرَ الْجَمَاعَاتِ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي صَلُحَتْ لِمَعْنًى مَّا ، وَأَدَّتْ فِي الدُّنْيَا نَوْعًا مِنَ الْخَيْرِ ، وَأَحْسَنَتْ فِي وَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ ، قَدْ أَدْرَكَتْ جَمِيعًا أَنَّ مُطَالَبَةَ الشَّابِّ بِالشَّجَاعَةِ قَبْلَ الدُّرْبَةِ[1] عَلَيْهَا ، وَدُونَ رِيَاضَةٍ عَلَى مَطَالِبِهَا ، هُوَ أَشْبَهُ بِحَمْلِ الْمُهْرِ الصَّغِيرِ الْمُتَوَثِّبِ الطَّفَّارِ[2] الْقَفَّازِ عَلَى الْخُضُوعِ إِلَى اللِّجَامِ ، وَالْإِذْعَانِ لِوَطْأَةِ السَّرْجِ ، وَشَكْمَةِ الْأَعِنَّةِ دُونَ التَّمْرِينِ عَلَيْهَا ، وَقَبْلَ أَنْ يُسَاسَ وَيُرَاضَ عَلَى قَبُولِهَا وَاحْتِمَالِهَا ، بَلْ لَقَدْ

(١) الدربة : المران والتعويد (٢) الطفار : الوثاب

جَعَلَتْ تِلْكَ الْجَمَاعَاتُ بَالَهَا إِلَى التَّدَرُّجِ فِي رِيَاضَةِ الشَّبَابِ عَلَى الشَّجَاعَةِ، وَدُرْبَتِهِمْ عَلَى إِيلَافِهَا رُوَيْدًا، فَكَانَ كُلُّ غُلَامٍ إِذَا مَا خَطَا شَيْئًا فَشَيْئًا إِلَى سَاحَةِ الْأَخْطَارِ عَلَى مَبْلَغِ احْتِمَالِهِ، وَدَرَجَةِ تَغَلُّبِهِ عَلَى الْخَوْفِ، تُرِكَ يُوغِلُ[1] وَيُمْعِنُ فِي مُلَاقَاةِ الْخَطَرِ، حَتَّى يَكُفَّ[2] نَبْضُهُ عَنِ الْخَفَقَانِ إِذَا مَا أَحَاطَ بِهِ، وَيَتَلَقَّاهُ فِي سُكُونٍ، كُلَّمَا عَرَضَ لَهُ، وَهَكَذَا يُرَاضُ عَلَيْهِ حَتَّى يُصْبِحَ إِيلَافُهُ طَبِيعَةً فِيهِ، وَعُنْصُرًا جَوْهَرِيًّا فِي خَلِيقَتِهِ، وَكَذَلِكَ كَانَتِ الشَّجَاعَةُ عِنْدَهُمْ فَضِيلَةً فَتَوَاتِي[3] بِالْمِرَانَةِ الدَّائِمَةِ، وَكَانَتْ مَسْأَلَةً مَتْرُوكَةً

(١) يوغل : أوغل فى الشىء وأمعن فيه وصل إلى صميمه وتغلغل فى داخله (٢) يكف نبضه : أى لا تهوله المخاوف ولا يتزعج لها .
(٣) تواتى : توافق .

لِلْعِنَايَةِ الْبَالِغَةِ بِهَا، كَنَوْعٍ مِنَ التَّعْلِيمِ، وَضَرْبٍ خَاصٍّ مِنَ التَّرْبِيَةِ. أَمَّا الشَّجَاعَةُ الْيَوْمَ، فَلَيْسَتْ فَضِيلَةً[1] مُرْبِحَةً، وَلَا صِفَةً تَجْلِبُ كَسْبًا، وَلَا تُغْنِي غَنَاءً، وَلَا تَأْتِي بِمَالٍ، وَلِذَلِكَ كَفَفْنَا عَنِ الِاهْتِمَامِ بِهَا، وَأَعْرَضْنَا عَنْهَا إِعْرَاضًا، وَتَرَكْنَا الْأَوْلَادَ يُعَلِّمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا مَا هُوَ مِنَ الشَّجَاعَةِ ظَاهِرًا بِالْمُنَاجَزَةِ[2] وَالْمُشَادَّةِ وَالْعِرَاكِ، مُعْتَمِدِينَ فِي ذَلِكَ عَلَى مَحْضِ غَرَائِزِهِمْ، وَالْوَحْشِيَّةِ الْمُرَكَّبَةِ فِيهِمْ، وَاقْتَصَرَتِ الْمَدَارِسُ عَلَى تَعْلِيمِ الْأَحْدَاثِ وَالْغِلْمَانِ دُرُوسًا فِي اللُّغَاتِ الْقَدِيمَةِ كَاللَّاتِينِيَّةِ وَالْإِغْرِيقِيَّةِ، حَتَّى الْأَلْعَابُ الرِّيَاضِيَّةُ ذَاتُهَا لَمْ تَبْلُغْ

(١) بل لقد تكون الشجاعة اليوم فى بعض المواطن عاملا من عوامل شقاء صاحبها، وتعرضه للمتالف وضياع رزقه، ولاسيما إذا كان المتسلط ناقص المروءة (٢) من ذلك الملاكمة ولعبة شد الحبل، ورفع الأثقال، وما إلى ذلك مما لا تتجاوز الشجاعة فيه الأعمال الجسمانية.

فِي الْمَدَارِسِ حَدًّا بَعِيدًا ، أَوْ حَدًّا يَرُوضُ النُّفُوسَ عَلَى الشَّجَاعَةِ وَالشَّهَامَةِ وَالْبَأْسِ .

* * *

الحياة العملية

وَإِذَا انْتَقَلْنَا مِنْ دَوْرِ التَّعْلِيمِ إِلَى دَوْرِ الْحَيَاةِ الْعَمَلِيَّةِ ، فَمَاذَا نَجِدُ ؟ نَجِدُ الشَّابَّ قَدِ انْتَهَى مِنَ الْمَدْرَسَةِ أَوِ الْكُلِّيَّةِ ، وَأَصْبَحَ رَجُلًا وَوَجَبَ أَنْ يُخْتَارَ لَهُ الصِّنَاعَةُ الَّتِي تَرُوقُهُ ، وَتِلْكَ هِيَ الْخُطْوَةُ الْأُولَى . بَلْ أَخْطَرُ الْخُطُوَاتِ فِي شَوْطِ[1] حَيَاتِهِ ، وَمَنْ يَخْطُهَا لَمْ يَسْتَطِعِ التَّرَاجُعَ عَنْهَا ، بَلْ لَا يَكَادُ الشَّابُّ يَذْكُرُ كَيْفَ خَطَاهَا ؟ ، أَوْ يَشْعُرُ كَيْفَ تَهَيَّأَ لَهُ قَطْعُهَا ؟ ، إِذْ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَمُرُّ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ إِلَى الْأَبَدِيَّةِ ، وَأَنَّ جَزَاءَهُ الْحُسْنَ فِي الْآخِرَةِ وَقْفٌ عَلَى مَبْلَغِ

(١) شوط حياته : أى فى مرحلة حياته

انْتِفَاعِهِ فِي هَذِهِ الْعَاجِلَةِ بِوَقْتِهِ ، وَمِقْدَارِ اسْتِفَادَتِهِ بِعُمُرِهِ وَأَيَّامِهِ وَأَعْوَامِهِ ، وَإِنَّهُ لَيَدْعُو اللهَ فِي كُلِّ يَوْمٍ أَنْ يُنَجِّيَهُ مِنْ نَزْغِ الشَّيْطَانِ ، وَوَسْوَاسِ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ ، لِأَنَّ كُلَّ مَا يَعْنِيهِ أَلَّا يَذْهَبَ فَيَقَعَ فِي الشَّهَوَاتِ بِقَدَمَيْهِ ، وَيَنْقَادَ إِلَى مُغْرِيَاتِهَا فِي غَيْرِ مُحَارَبَةٍ لَهَا ، وَمُغَالَبَةٍ لِوَسْوَاسِهَا ، وَقَدْ أَصْبَحَ لِكُلِّ صِنَاعَةٍ فِي عَصْرِنَا الْحَاضِرِ ، صِفَاتٌ وَشَخْصِيَّةٌ وَطَبَائِعُ خَاصَّةٌ بِهَا ، مُلْزِمَةٌ لِمَنْ يَسْلُكُ نَفْسَهُ فِيهَا أَنْ يَتَلَبَّسَ بِهَا ، وَيَكْتَسِبَ مَعَانِيَهَا ، وَيُسَايِرَ اتِّجَاهَهَا إِلَّا مَا نَدَرَ مِنَ الصِّنَاعَاتِ ، وَإِلَّا مَا قَلَّ مِنَ الْحِرَفِ وَالْأَعْمَالِ ، فَلَا تَجْرِي عَلَيْهِ هَذِهِ الْقَاعِدَةُ ، وَلَا تُلَابِسُهُ هَذِهِ الصِّفَةُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهَا هُوَ

كَذَلِكَ ، يَسْتَحْوِذُ عَلَى شَخْصِيَّةِ صَاحِبِهِ ، وَيَقْتَضِي مِنْ سَالِكِهِ الِانْدِمَاجَ بِكُلِّيَّتِهِ فِيهِ ، سَوَاءٌ التَّاجِرُ ، وَالصَّانِعُ ، وَالْمُحَامِي ، وَالطَّبِيبُ ، وَالْكَاتِبُ ، وَالْجُنْدِيُّ ، وَالْعَامِلُ فِي الْبَحْرِيَّةِ ، وَإِنَّ طَبِيعَةَ الْإِنْسَانِ لَأَشْبَهُ شَيْءٍ بِكَفِّ الصَّابِغِ ، تَصْطَبِغُ بِالصِّبْغَةِ الَّتِي يَعْمَلُ فِيهَا وَتَتَشَكَّلُ بِاللَّوْنِ الَّذِي يَغْمِسُهَا فِي آنِيَتِهِ ، حَتَّى لَا يَصْعُبَ عَلَيْنَا أَنْ نَعْرِفَ مِنْ مُجَرَّدِ الْحَدِيثِ صِنَاعَةَ مُحَدِّثِنَا ، وَنُدْرِكَ مِنَ الْجُلُوسِ إِلَيْهِ قَلِيلًا الْعَمَلَ الَّذِي يُؤَدِّيهِ ، وَالْمُحْتَرَفَ[1] الَّذِي يَحْتَرِفُهُ . فَإِنَّ ذَلِكَ لَيَبْدُو فِي نَظَرَاتِهِ وَكَلِمَاتِهِ وَمَجْرَى تَفْكِيرِهِ ، وَمُنْطَلَقِ شُعُورِهِ — كَمَا يَظْهَرُ فِي مَخَارِجِ

(١) المحترف : أي الحرفة

صَوْتِهِ ، وَحَرَكَاتِهِ ، وَإِشَارَاتِهِ ، بَلْ إِنَّهُ لَيَظْهَرُ كَذَلِكَ حَتَّى فِي خَطِّهِ وَكُلِّ مَا يَفْعَلُهُ . وَأَكْثَرِ مَا يُبَاشِرُهُ .

* * *

خواص الأعمال

إِنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ فِي الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ خَوَاصَّهُ الْخُلُقِيَّةَ الْمُنْقَطِعَةَ لَهُ الْعَالِقَةَ أَبَدًا بِهِ ، الْمَوْقُوفَةَ عَلَيْهِ ، بَلْ إِنَّ لَهُ إِغْرَاءَاتِهِ ، وَمُؤَثِّرَاتِهِ ، وَأَفَاعِيلَهُ ، وَأَحَاسِيسَ أَصْحَابِهِ وَالسَّالِكِيهِ ، وَإِنَّ هَذِهِ الْمُؤَثِّرَاتِ الْخَاصَّةَ وَالْأَفَاعِيلَ ، خَفِيَّةٌ غَيْرُ ظَاهِرَةٍ ، سَارِيَةٌ غَيْرُ بَادِيَةٍ ، حَتَّى لَا تُشَاهَدَ فِي فِعْلِهَا ، وَلَا تُرَى فِي إِحْدَاثِ أَثَرِهَا ، وَإِنَّمَا تَتَكَشَّفُ فِي النَّتَائِجِ ، وَتَبْدُو فِي الْغَايَةِ وَالْخَاتِمَةِ .

وَهُنَا خَاصَّةً ، نَعَمْ هُنَا فَقَطْ ، إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي غَيْرِ ذَلِكَ ، نَحْتَاجُ إِلَى إِيمْرْسُونَ ، وَتَحْدِيدَاتِهِ لِلْعَظَمَةِ

وَالْعُظَمَاءِ ، كَمَثَلَيْنِ لِأَنْوَاعِهِمْ ، بَلْ هُنَا فَقَطْ نُرِيدُ مِنَ الدِّينِ وَرِجَالِهِ أَنْ يَدُلُّونَا عَلَى الطَّرِيقِ ، وَيُسْدُوا إِلَيْنَا النَّصِيحَةَ وَالرَّأْيَ ، وَالزَّجْرَ وَالنَّهْيَ ، وَالتَّنْبِيهَ وَالْوَعِيدَ وَالتَّحْذِيرَ ، هُنَا نَلْتَمِسُ مِنْ إِيمِرْسُونَ وَأَشْبَاهِهِ الْهِدَايَةَ وَالْإِرْشَادَ ، وَالْمَحَجَّةَ وَالطَّرِيقَ .

وَلَكِنْ أَيْنَ الَّذِي يُبَصِّرُنَا فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ وَيَهْدِينَا إِلَى الْحَقِّ ، أَيْنَ الَّذِي يُعَلِّمُ الشَّبَابَ عِنْدَ دُخُولِهِمْ مُعْتَرَكَ الْحَيَاةِ مَاذَا هُمْ مُرْتَقِبُونَ فِيهِ ؟ ، وَمَاذَا هُمْ مُلَاقُونَ عِنْدَهُ ؟ وَمَاذَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَجْتَنِبُوا ؟ ، وَمَاذَا يَجِبُ أَنْ يَتَحَاشَوْا ؟ ، وَأَيْنَ السَّبِيلُ إِلَى مَا يَلْتَمِسُونَ ؟ وَمَا وَجْهُ الْتِمَاسِهِمْ ؟ وَفِي أَيِّ النَّوَاحِي يَصِحُّ الْمَسِيرُ ؟ ! وَأَيْنَ الْأَمْثِلَةُ الْعُلْيَا لِلْمُحَامِي ؟ ،

وَالتَّاجِرِ وَالْمُلَاحِظِ فِي الْحَوَانِيتِ ؟ ! وَأَيْنَ الْمُمَثِّلُونَ لِأَنْوَاعِهِمْ فِي هَذِهِ الصِّنَاعَاتِ ، وَالنُّوَّابُ عَنْ طَبَقَاتِهِمْ ؟ ! وَهَلْ كُلُّهُمْ قَدْ أُوتُوا اسْتِعْدَادًا مُتَسَاوِيًا لِلتَّفَوُّقِ فِي نَاحِيَتِهِمْ ، وَالنُّبُوغِ فِي صِنَاعَتِهِمْ ، وَالسُّمُوِّ فِي خُلُقِهِمْ ؟ وَهَلْ كُلُّ الفُرَصِ عِنْدَهُمْ مُتَنَاسِبَةٌ ؟ أَمْ بَعْضُهَا أَصْلَحُ مِنْ بَعْضٍ ؟ وَمَا أَفْضَلُهَا فِي هَذِهِ النَّاحِيَةِ ؟ وَأَتَمُّهَا لِتِلْكَ النَّاحِيَةِ ؟ وَمَا هُوَ الْمُوَافِقُ مِنْهَا وَغَيْرُ الْمُوَافِقِ ؟ وَالصَّالِحُ مِنْهَا وَمَا لَا صَلَاحَ لَهُ ؟ !

لِلْأَسَفِ[1] لَا يَكَادُ الْخُلُقُ يُعْنَى بِأَمْرِهِ عِنْدَ الِاخْتِيَارِ ، وَلِلْأَسَفِ يُوشِكُ الِاسْتِعْدَادُ أَنْ يُهْمَلَ فِي ذَلِكَ كُلَّ الْإِهْمَالِ ، فَلَا يَكُونُ سُؤَالُ الشَّابِّ

(١) للأسف : على تقدير ياهؤلاء للأسف : أى أنظروا مقدار أسفى على كذا ومثله ما بعده

عَنْ هٰذَا أَوْ نَحْوِهِ وَلٰكِنْ كُلُّ سُؤَالِهِ وَاهْتِمَامِهِ وَعِنَايَتِهِ ، مُنْصَرِفٌ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا ذَا يُجْدِي عَلَيْهِ ، وَمَا أَجْمَعُهَا لِمَطَالِبِ نَجَاحِهِ ؟ وَأَكْبَرُهَا أَنْصِبَةً فِي الرِّبْحِ وَالْجِدْوَى وَالِاكْتِسَابِ ؟ ! وَفِي أَيِّ الصِّنَاعَاتِ هُوَ مُصِيبٌ أَحْسَنَ الْأَجْرِ ، بَالِغٌ أَوْفَى الْمَرَاتِبِ ، ظَافِرٌ بِخَيْرِ الْجَزَاءِ ؟ ؟

* * *

الغد تَصَوَّرُوا غُلَامًا ثَائِرَ الْقَلَقِ مِنْ أَمْرِ غَدِهِ ، قَدْ ذَهَبَ إِلَى أُمِّهِ يَلْتَمِسُ عِنْدَهَا النَّصِيحَةَ ، وَيَفْتَقِدُ[1] الْهِدَايَةَ وَالْإِرْشَادَ ، مُسَائِلًا إِيَّاهَا هَلْ يَكُونُ ضَابِطًا ؟ فَمَاذَا عَسَى أَنْ يَكُونَ الْجَوَابُ عِنْدَهَا عَلَى هٰذَا السُّؤَالِ ، لَعَلَّهَا قَائِلَةٌ : لِيَكُنْ ذٰلِكَ ، عَلَى أَلَّا تَقَعَ فِي

(١) يفتقد : افتقد الشيء بحث عنه

الْخَطِيئَةِ وَلاَ تَقْتَرِفَ[١] إِثْمًا ، بَلْ هِيَ قَائِلَةٌ لَهُ ذَلِكَ ، إِذَا هُوَ سَأَلَهَا : هَلْ يُصْبِحُ مُحَامِيًا ؟ أَوْ تَاجِرًا ؟ أَوْ صَانِعًا ؟ أَوْ مُهَنْدِسًا ؟ وَلَكِنَّهُ سَائِلُهَا مَعَ ذَلِكَ قَائِلاً : وَلَكِنْ أَيُّهَا أَفْضَلُ وَأَحْسَنُ مَرَدًّا[٢] ؟ ! فَمَاذَا عِنْدَهَا مِنْ جَوَابٍ غَيْرِ قَوْلِهَا : اللهُ أَعْلَمُ ، اللهُ أَعْلَمُ . . . لاَ بَأْسَ مِنْهَا جَمِيعًا ، وَلاَ خَيْرَ فِيهَا ، وَلَكَ أَنْ تَسْلُكَ نَفْسَكَ مِنْهَا فِيمَا تُحِبُّ وَتَرْضَى ، عَلَى شَرْطِ أَنْ تَظَلَّ تَقِيًّا صَالِحًا مُسْتَقِيمًا ، بَعِيدًا مِنَ الشَّرِّ وَالْهَوَى[٣] نَزَّاعًا إِلَى الطِّيبَةِ وَالْخَيْرِ ، فَإِذَا أَبْعَدَ فِي الأَسْئِلَةِ ، فَقَالَ وَمَا حُدُودُ الْخَيْرِ وَالطِّيبَةِ فِي هَذِهِ الصِّنَاعَةِ ، أَوْ تِلْكَ الَّتِي اخْتَارَهَا ، فَسَوْفَ يَكُونُ الْجَوَابُ وَاحِدًا لاَ تَبْدِيلَ لَهُ :

(١) تقترف : اقترف الحسنة أو السيئة ارتكبها (٢) مرداً : أى عاقبة ومغبة (٣) الهوى : نزعات النفس وميلانها إلى ما تستلذ .

وَهُوَ أَنْ تُعْطِيَ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، وَعَلَيْهِ هُوَ أَنْ يَبْحَثَ إِلَى أَيِّ حَدٍّ يَرُوحُ هَذَا الْحَقُّ لِلْغَيْرِ عِنْدَهُ فَيُؤَدِّيَهُ ، وَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ وَاللهِ كَمَثَلِ رَسَّامٍ يُعَلِّمُ تِلْمِيذَهُ ، كَيْفَ يَضَعُ التَّلْوِينَ وَالظِّلَالَ فِي مَوَاضِعِهَا الْمُنَاسِبَةِ مِنَ الصُّورَةِ ، تَارِكاً لَهُ الِاخْتِيَارَ الْمَحْضَ فِي هَذَا الْعَمَلِ الدَّقِيقِ ، دُونَ تَوْجِيهٍ وَلاَ هِدَايَةٍ دَقِيقَةٍ صَالِحَةٍ .

* * *

مشكلة العمل والعمال

وَثَمَّ نَاحِيَةٌ أُخْرَى تَسْتَوْجِبُ الْإِشَارَةَ إِلَيْهَا : وَهِيَ نَاحِيَةٌ عَمَلِيَّةٌ مَلْمُوسَةٌ جَلِيَّةٌ لِلْأَبْصَارِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَلَّ مَنْ يُنْكِرُ أَنَّ السَّادَةَ وَأَصْحَابَ الْأَعْمَالِ ، مَدِينُونَ بِوَاجِبَاتٍ مُعَيَّنَةٍ لِعُمَّالِهِمْ ، فَوْقَ أُجُورِهِمُ الْمَحْدُودَةِ عَلَى قَدْرِ تَنَافُسِهِمْ فِي الْجُهْدِ ، وَنِسْبَةِ كَدِّهِمْ فِي الْعَمَلِ ، كَمَا

أَنَّ عَلَى الْعُمَّالِ وَاجِبَاتٍ فَوْقَ بَذْلِ قُصَارَى[١] الْجُهْدِ، وَالْإِحْسَانِ فِي الْعَمَلِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْأَدَبَ مَطْلُوبٌ مِنَ الْعَامِلِ لِصَاحِبِ عَمَلِهِ، كَمَا أَنَّ الِاحْتِرَامَ مُقْتَضًى[٢] مِنْهُ لِعَامِلِهِ، وَكُلَّمَا اتَّصَلَ النَّاسُ وَتَحَاكُّوا[٣] وَتَرَابَطُوا، نَشَأَتِ الْتِزَامَاتٌ مُتَبَادَلَةٌ، وَوَاجِبَاتٌ مُتَقَارِضَةٌ، وَحُقُوقٌ مُتَقَاسَمَةٌ، بِالنِّسْبَةِ لِلْمَرَاكِزِ، وَوَفْقَ الْمَوَاضِعِ، وَبِحَسَبِ الْمَحَلِّ وَالْمَرْتَبَةِ.

وَهَذَا[٤] الْمَوْضُوعُ: هُوَ الَّذِي يَشْغَلُ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ جَانِبًا عَظِيمًا مِنَ الْحَيَاةِ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ، بَلْ هُوَ الْمُشْكِلَةُ الَّتِي هَزَّتْ أَوْرُبَّا هِزَّةَ الزِّلْزَالِ

(١) قصارى: قصارى الشيء غايته. والجهد: الطاقة

(٢) مقتضى: مطلوب (٣) التحاكّ: اصطدام جرم بآخر — والمراد كلما امتزجوا (٤) أي مسألة العمال وأصحاب الأعمال أو الرأسمالية والعمال

الشَّدِيدِ ، وَلَـكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ ، كُلَّمَا فُـكِّرَ فِيهِ وَعُنِيَ بِهِ ، لَاحَ كَأَنَّمَا يَأْبَى الرُّضُوخَ لِلتَّشْرِيعِ ، وَيَرْفُضُ النُّزُولَ عَلَى التَّقْنِينِ[1] وَالِاسْتِنَانِ ، حَتَّى لَيَبْدُوَ كَأَنَّهُ مَوْضُوعٌ ، لَيْسَ لِلْقَانُونِ أَنْ يُبَاشِرَهُ وَيَضْبِطَهُ ، وَيَتَنَاوَلَ أَمْرَهُ .

وَإِنَّمَا مِنْ وَاجِبِ الدِّينِ أَنْ يُعْنَى بِهِ ، لِأَنَّ وَاجِبَاتِهِ هِيَ مِنْ شَأْنِ الْـكَنِيسَةِ ، لَا مِنْ شَأْنِ الدَّوْلَةِ أَنْ تَتَوَلَّاهُ ، فَلِمَاذَا نَرَى الْـكَنِيسَةَ صَامِتَـةً جَامِدَةً لَا تَتَحَرَّكُ لَهُ ، وَلَا تُلْقِي بَالًا إِلَيْهِ ؟ عَلَى حِينِ أَنَّ هُنَاكَ وَاجِبَاتٍ وَفَرَائِضَ تَقْتَضِي مِنْهَا الْفَحْصَ وَالْغَرْبَلَةَ ، وَالْبَحْثَ وَالِاسْتِقْصَاءَ ، فَلِمَاذَا تُقَصِّرُ فِي

(١) التقنين : قنن لكذا : وضع له قانونا واستن لكذا : وضع له سنة . أى أن مشكلة العمل والعمال ، استعصت ولم يستطع العالم حتى الآن من وضع قانون نهائى يحل هذه المشكلة ، حلا حاسما .

هذَا وَتُهْمِلُ ؟ وَلِمَاذَا تَقْعُدُ عَنْهُ وَلاَ تَتَقَدَّمُ إِلَيْهِ ؟ ! وَا أَسَفَاهُ ! إِنَّهَا لاَ تَجْرُؤُ وَلاَ تَقْدِرُ ، وَتَخْشَى أَنْ تُؤْلِمَ فَرِيقاً أَوْ تُغْضِبَ آخَرِينَ . وَهِيَ مِنْ ثَمَّ تَتَحَامَى التَّدَخُّلَ وَتَرْبَأُ[1] عَنِ الاِسْتِهْدَافِ لِلْغَضَبِ ، وَتُهْمَةِ التَّحَيُّزِ ، وَمَنْقَصَةِ الْجَوْرِ فِي الْحُكْمِ ، وَتَحَيُّفِ[2] جَانِبٍ لِحِسَابِ جَانِبٍ سِوَاهُ .

* * *

تقسيم الأعمال

وَإِنِّي لاَخْشَى أَنْ يَكُونَ أَمَامَنَا مَدًى طَوِيلٌ ، وَتَجْرِبَةٌ قَاسِيَةٌ نَخُوضُهَا قَبْلَ انْ نَهْتَدِيَ إِلَى طَرِيقِنَا ، وَنُدْرِكَ ارْتِبَاطَاتِنَا ، وَنَفْقَهَ حُقُوقَنَا وَوَاجِبَاتِنَا الْمُخْتَلِفَةَ ، وَلَكِنَّا مَعَ ذَلِكَ لاَ نَزَالُ نَسْتَشْرِفُ[3] مِنْ بَعِيدٍ جِيلاً قَادِماً عَلَى طَرِيقِ الْحَيَاةِ ، جِيلاً تَرُوحُ فِيهِ

(١) تربأ الخ : تصون نفسها عن التعرض للسخط عليها ، وأن تتهم بالتعصب لفريق دون فريق (٢) التحيف : الظلم (٣) نستشرف : نتطلع إليه

حَيَاةُ الْعُظَمَاءِ حَقًّا ، وَأَعْمَالُ الصَّالِحِينَ الْكِبَارِ النُّفُوسِ فِي الْوَاقِعِ مُقَسَّمَةً تَقْسِيماً جَدِيداً ، غَيْرَ تَقْسِيمِ إِيمِرْسُونَ وَأَمْثَالِهِ ، فَنَشْهَدَ السَّادَةَ الْأَخْيَارَ . وَالْعُظَمَاءَ الْأَمَاثِلَ ، فِي كُلِّ صِنَاعَةٍ مِنَ الصِّنَاعَاتِ ، وَمَرْكَزٍ مِنَ الْمَرَاكِزِ فِي الْحَيَاةِ الْعَامَّةِ ، سَوَاءٌ أَكَانُوا أَرْبَابَ عَمَلٍ ، أَوْ أَصْحَابَ أَرْضٍ ، أَوْ عُمَّالاً وَصُنَّاعاً وَأُجَرَاءَ ، بَلْ تَرُوحُ مُقَسَّمَةً مُوَزَّعَةً مُبَيَّنَةً بِاسْمِ الدِّينِ وَفِي حُدُودِ تَعَالِيمِهِ وَأَوَامِرِهِ وَوَصَايَاهُ ، كَمَا كَانَتْ حَيَاةُ الْأَوْلِيَاءِ فِيهِ ، وَالصَّالِحِينَ وَالْأَبْرَارِ ، وَيَوْمَئِذٍ تَدْوِي فِي الْمَصَانِعِ وَالْمَتَاجِرِ وَدُورِ الْعَمَلِ تِلْكَ الْأَصْوَاتُ ذَاتُهَا ، الَّتِي تَتَرَدَّدُ فِي جَوَانِبِ الْمَعَابِدِ وَالْمَسَاجِدِ وَالْمَحَارِبِ مُنَادِيَةً : انْظُرُوا إِلَى هَؤُلَاءِ الْعُظَمَاءِ . . .

هَؤُلاَءِ هُمُ الْاخْيَارُ حَقًّا ، فَالْحَمْـــدُ لِلّٰهِ عَلَى أَنْ هَيَّأَهُمْ لَنَا فِى هَذِهِ الْحَيَاةِ ، فَلْنَسِرْ سَيْرَهُمْ ، وَلْنَحْذُ حَذْوَهُمْ ، وَلْنَقِفْ عَلَى آثَارِهِمْ ، نَفُزْ بِالرَّغَدِ وَالْعَيْشِ الصَّالِحِ وَالْهَنَاءِ .

* * *

حياة الافراد

وَلَا يَتَصَوَّرَنَّ أَحَدٌ أَوْ يَخْشَيَنَّ امْرُؤٌ مِنْ أَنَّ عَصْراً كَهَذَا الَّذِى نَرْتَقِبُهُ ، سَيَرُوحُ[1] إِذَا هُوَ جَاءَ مُمِلاً مُسْئِماً ، تَضِيقُ النُّفُوسُ بِمَظْهَرِ التَّمَاثُلِ فِيهِ ، وَالتَّشَابُهِ الْعَامِّ بَيْنَ أَفْرَادِهِ وَأَنَاسِيِّهِ ، أَوْ أَنْ تَتَلَاشَى مِنْهُ مَظَاهِرُ التَّنَوُّعِ وَالْفُرُوقِ الْجَمِيلَةِ فِى حَيَاةِ الْأَفْرَادِ ، وَكَثْرَةِ الْأَمْثِلَةِ وَالنَّمَاذِجِ الْمُخْتَلِفَةِ فِى الْمُجْتَمَعِ ، فَيَغْمُرَ

(١) سيروح : سيصير

النَّاسَ تَشَابُهٌ مُطْلَقٌ ، لَا يَخْتَلِفُ فِيهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ سِوَاهُ .

لَا يَحْسَبَنَّ أَحَدٌ ذَلِكَ وَاقِعاً يَوْمَئِذٍ أَوْ يَخَافَنَّ حُدُوثَهُ ، بَلْ لَوْ أَنَّهُ حَدَثَ فِعْلاً وَوَقَعَ ، لَمَا جَعَلَ الْحَيَاةَ أَسْوَأَ مِمَّا هِيَ الْيَوْمَ ، وَلَا شَرًّا مِمَّا تَلُوحُ الْآنَ ، إِذْ لَيْسَ النَّاسُ فِي الْحَقِّ بِمَطْلُوبٍ إِلَيْهِمْ أَنْ يَسْتَأْثِرُوا بِفَرْدِيَّتِهِمْ ، وَلَكِنَّ الْمَطْلُوبَ مِنْهُمْ : هُوَ أَنْ يُثْمِرُوا وَيُنْتِجُوا وَيَسْتَحْدِثُوا ، وَيَعْمَلُوا عَمَلاً صَالِحًا ، وَأَنَّ الْفَتَى الشَّرِيدَ الْهَائِمَ عَلَى وَجْهِهِ ، الْمُسْتَمْتِعَ بِكُلِّ مَزَايَا فَرْدِيَّتِهِ ، إِذَا مَا قَضَى الْحَظُّ عَلَيْهِ أَنْ يَقَعَ فِي يَدِ الشُّرَطِ ، الَّذِينَ يَتَعَقَّبُونَهُ لِيَسْلُكُوهُ فِي الْجُنْدِيَّةِ ، وَهُوَ مِنْهَا الْمُتَهَرِّبُ الطَّرِيدُ ، الْمُلْتَمِسُ النَّجَاةَ ،

فَسَوْف يَجِدُ نَفْسَهُ بَعْدَ عَامٍ فِى لِبَاسِهِ الْجُنْدِىِّ الْأَحْمَرِ ، وَبَعْدَ التَّدَرُّبِ الْعَسْكَرِىِّ طِيلَةَ الْعَامِ خَيْراً مِمَّا كَانَ ، وَأَفْضَلَ حَالاً وَأَحْسَنَ مُنْقَلَباً ، وَإِنْ كَانَ قَدْ فَقَدَ مُتَعَ تِلْكَ الْفَرْدِيَّةَ ، وَمَزَايَاهَا الْكَثِيرَةَ الْمُخْتَلِفَةَ .

* * *

نظرة فى التعليم

وَلَكِنَّ هَذَا النَّوْعَ مِنَ التَّعْلِيمِ الْمُشَاهَدِ فِى مَعَاهِدِنَا وَدُورِ تَرْبِيَتِنَا ، هُوَ الَّذِى يُخْرِجُ لَنَا فَرْدِيَّاتٍ خَسِيسَةً مُنْحَطَّةَ الْمَرْتَبَةِ ، لَا صَلَاحَ لَهَا ، وَلَا خَيْرَ يُرْتَجَى مِنْهَا . بَلْ إِنَّنَا الْيَوْمَ وَحَالُنَا كَمَا نَرَى ، وَاجِدُونَ النَّاسَ قَدْ غَشِيَتْهُمْ أَغْشِيَةُ التَّشَابُهِ وَالتَّمَاثُلِ ، فَهُمْ جَمِيعاً سَوَاسِيَةٌ(١) فِى تَمَاثُلٍ سَيِّئٍ ، وَتَحَاكٍّ ضَارٍّ ، وَتَشَابُهٍ جَامِدٍ بَلِيدٍ عَقِيمٍ ، بَلْ تَشَابُهٍ يُؤْذِى

(١) سواسية : أى مستوون

الطَّبَائِعَ الرَّفِيعَةَ، وَيُحَطِّمُ النَّزَعَاتِ السَّامِيَةَ، وَيَقْضِي عَلَى الْأَحَاسِيسِ الْعَالِيَةِ، وَيَجْعَلُ الْمَرْءَ خَاضِعاً لِصِنَاعَتِهِ، بَلْ ضَحِيَّةً لَهَا، وَعَبْدًا رِقًّا ذَلِيلاً لِسُلْطَانِهَا، وَأَسِيراً لِظُرُوفِ عَيْشِهِ، وَحَبِيسَ[1] الْإِرَادَةِ إِزَاءَ مَطَالِبِ حَيَاتِهِ، وَمُسْتَلْزَمَاتِ فَرْدِيَّتِهِ، وَهُوَ صَرِيعُ حِيَالِهَا، مُنْهَزِمٌ مُنْدَحِرٌ[2] فِي مَعْرَكَتِهَا، وَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْغَالِبَ الْمُنْتَصِرَ عَلَيْهَا، الْخَارِجَ عَنْ طُغْيَانِهَا، الْمُحْتَقِرَ لِسُلْطَانِهَا.

* * *

اختيار المرء

أَلَا إِنَّ أَمَامَ الْمَرْءِ أَنْ يَخْتَارَ بَيْنَ أَحَدِ أَمْرَيْنِ، إِمَّا الثَّوْبُ الَّذِي يُرِيدُهُ اللهُ لَهُ، وَإِمَّا الثَّوْبُ الَّذِي

(١) حبيس الارادة: أي مفقود الحرية إزاء مطالب حياته، ومستلزمات فرديته (٢) مندحر: مطرود مبتعد.

تُرِيدُهُ لَهُ الدُّنْيَا ، وَتَنْسِجُهُ لَهُ الْحِيَاةُ ، وَإِنَّ ثَوْبَ اللهِ لَأَفْضَلُ وَأَلْيَقُ ، وَأَوْأَمُ وَأَجْمَلُ رِدَاءِيْهِ ، وَأَرْوَعُ مَظْهَراً ، لِأَنَّهُ يُكْسِبُهُ الْحُرِّيَّةَ . وَالْآخَرَ يَسْلُبُهَا مِنْهُ ، وَيُحِيلُهُ مِنْ كُلِّ مَعَانِي الْحَيَاةِ الْحَقِيقِيَّةِ مُتَجَرِّدًا عَارِياً .

وَمِنْ ثَمَّ : يَنْبَغِي أَنْ نَعْرِفَ طَبِيعَةَ الْعُنْصُرِ الَّذِي نَعْمَلُ فِيهِ ، وَنَفْقَهَ أَسْرَارَ الْعَمَلِ الَّذِي نَتَنَاوَلُهُ ، وَقَوَانِينَهُ وَأُصُولَهُ الَّتِي يَجْرِي عَلَيْهَا ، بَلْ يَنْبَغِي لَنَا : أَنْ نَشُقَّ[1] عَصَا الطَّاعَةِ عَلَى غَرَائِزِنَا السُّفْلَى ، وَنَطْرَحَ عَنَّا سُلْطَانَ الصِّنَاعَةِ وَمُؤَثِّرَاتِ الْمِهْنَةِ ، وَطُغْيَانَ الْأَثَرَةِ[2] ، لِنُطِيعَ الْغَرَائِزَ الْعُلْيَا ، وَنَسْتَجِيبَ لِلْحُبِّ ، وَالْحَقِّ وَالصِّدْقِ وَالرُّجُولَةِ ، إِي وَاللهِ تِلْكَ هِيَ الَّتِي أَحَقُّ بِالطَّاعَةِ وَأَوْلَى ، بَلْ تِلْكَ

(١) نشق عصا الطاعة : أى نخالف ونخرج على غرائزنا
(٢) الأثرة : حب الذات «الأنانية»

هِيَ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ نَجْعَلَ الصِّنَاعَةَ تَسِيرُ تَبَعًا لَهَا ، وَتَقُومُ فِي خِدْمَتِهَا ، وَنَنْزِلُ عَلَى حُكْمِهَا ، فَهَذِهِ هِيَ لَعَمْرُ الْحَقِّ « الْحُرِّيَّةُ » فَلَيْسَ لِلْمَرْءِ فِي هَذَا الْعَالَمِ مِنْ شَيْءٍ مُمْكِنٍ غَيْرُهَا ، وَمَهْمَا يَفْقِدِ الْمَرْءُ مِنْ فَرْدِيَّتِهِ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ وَمُجَاهَدَتِهِ ، فَلْنَثِقْ وَلْنَطْمَئِنَّ بِأَنَّ وَسَاوِسَ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ ، هِيَ الَّتِي تُحَاوِلُ أَبَدًا أَنْ تَجْعَلَنَا أَسْرَى سُلْطَانِهَا ، وَعَبِيدَ إِغْرَائِهَا ، وَنُزُولًا عَلَى أَحْكَامِهَا الطَّاغِيَةِ.

* * *

الرأى العام

وَلَكِنْ عَسَيْتَ[1] تَسْأَلُ : وَمَا سَبِيلُ ذَلِكَ ، وَمَا الْوَسِيلَةُ إِلَى بُلُوغِهِ ؟ ؟ وَالْجَوَابُ سَهْلٌ لِلْغَايَةِ ، هَاؤُمُ : ارْفَعُوا مُسْتَوَى الرَّأْيِ الْعَامِّ ، هَذَا مَا قَدْ

(١) عسيت تسأل : لعلك سائل .

يُقَالُ، وَهَذَا مَا قَدْ يُوحَى بِهِ، أَوْ قُلِ اطْلُبُوا مُسْتَوًى أَرْفَعَ مِنَ الْمُسْتَوَى الْحَاضِرِ لِأَدَبِ الْعَصْرِ وَأَخْلَاقِهِ، أَوْ فِي لُغَةِ الِاقْتِصَادِيِّينَ، لِنَزِدْ مِنْ طَلَبِ الْخَيْرِ يَكْثُرِ الْعَرْضُ، أَوْ عَلَى كُلِّ حَالٍ يَبْذُلِ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ أَقْصَى جُهْدِهِمْ فِي إِتْيَانِ الْخَيْرِ، وَالتَّنَزُّعِ إِلَيْهِ. وَمَا لَمْ نَسْتَوْجِبْ مِنْ بَعْضِنَا الْبَعْضَ أَكْثَرَ، لَنْ يَتَوَاتَى[1] لَنَا أَكْثَرُ، إِذْ عَلَى قَدْرِ مَا نَطْلُبُ نَجِدُ، وَعَلَى مَبْلَغِ مَا نَعْمَلُ لَهُ نُصِيبُهُ.

* * *

الرجل العظيم

وَهَذَا يَقْتَضِينَا[2] أَنْ نَعُودَ إِلَى شَرْحِ الْأَمْرِ فِي تَعْبِيرٍ آخَرَ، وَهُوَ: كَيْفَ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَنْفُذَ إِلَى الْقَلْبِ؟

(١) يتواتى: يتوفر (٢) يقتضينا: أى يطالبنا

وَكَيْفَ يَتَأَتَّى لَنَا أَنْ نُوقِظَ الرَّغْبَةَ ، وَنُثِيرَ الْحَافِزَ ؟ إِنَّا لَنَعْتَقِدُ أَنَّ الرَّجُلَ أَخَا الطِّيبَةِ وَالْخَيْرِ ، الرَّجُلَ الْعَظِيمَ ، مَهْمَا يَكُنْ أَمِيراً أَوْ صَغِيراً ، سَيِّدًا غِطْرِيفاً[1] ، أَوْ فَتًى مِنْ عُرْضِ الْعَامَّةِ ، هُوَ الْمَحَبَّبُ الْجَمِيلُ النَّافِذُ إِلَى الْعَاطِفَةِ ، وَأَنَّنَا لَوْ أَتِيحَ لَنَا أَنْ نَهْتَدِيَ إِلَيْهِ ، وَقُيِّضَ لَنَا أَنْ نُبْصِرَهُ وَنَلْتَقِيَ بِهِ ، لَكَانَ هُوَ الْمُحَرِّكَ لِنُفُوسِنَا ، أَكْثَرَ مِنْ سِوَاهُ . بَلْ إِنَّهُ لَيَحِقُّ لَنَا عَلَى الْأَقَلِّ ، أَنْ نُطَالِبَ بِزَوَالِ كَافَّةِ الْعَقَبَاتِ وَالْحَوَائِلِ الْمَصْنُوعَةِ ، الَّتِي كَانَتْ تَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ رَفْعِهِ فَوْقَ مُسْتَوَى الْجَمَاهِيرِ ، وَتَمْنَعُنَا مِنْ أَنْ نَنْتَشِلَهُ[2] مِنْ وَهْدَتِهِ[3] ، فَنَضَعَهُ فِي الْمَكَانِ الْخَلِيقِ

(١) الغطريف : السيد العظيم (٢) انتشله : خلصه وأخرجه
(٣) الوهدة : المكان المنخفض والمراد رفع شأنه

بِهِ ، وَنَسْمُوَ بِهِ عَنِ الْمَحَلِّ الْمَهِينِ ، وَالدَّرْكِ الْأَسْفَلِ الَّذِي هُوَ فِيهِ ، وَلَكِنْ أَيْنَ هُوَ أَوَّلًا قَبْلَ أَنْ نُزِيلَ تِلْكَ الْحَوَائِلَ مِنْ طَرِيقِنَا ، وَفِي أَيِّ مَكَانٍ نَجِدُهُ ، وَلَيْتَنَا نَهْتَدِي إِلَيْهِ ؟؟ إِنَّهُ وَاللهِ لَأَلْفُ مَرَّةٍ خَيْرٌ مِنْ أَكْبَرِ عَالِمٍ ، وَأَفْضَلُ أَلْفَ مَرَّةٍ مِنْ أَوْعَظِ الْوُعَّاظِ عَلَى الْمَنَابِرِ ، كَأَحَدِ شُهُورِ اللهِ ، فِي حَيَاتِهِ الْجَمِيلَةِ ، وَأَسْمَى الدِّلَالَاتِ عَلَيْهِ ، وَإِنَّ نُورَهُ السَّمَاوِيَّ الْمُشْرِقَ الْخَاطِفَ لِلْأَبْصَارِ ، يَنْبَغِي أَلَّا يَحْتَجِبَ بَعْدَ الْيَوْمِ عَنَّا ، أَوْ يَتَوَارَى بَعْدَ الْآنِ عَنْ أَعْيُنِنَا ، أَوْ يَخْفَى عَنَّا فِي الْغُمَارِ[1] وَزَاخِرِ الْمُحِيطِ الْبَشَرِيِّ ، وَزَحْمَةِ الْحَيَاةِ الصَّاخِبَةِ[2] .

(١) غمار الناس : عامتهم ودهماؤهم (٢) الصاخبة : المختلطة الأسواط

* * *

النظرية الدينية

وَلَعَمْرُ اللهِ مَا مَنَعَنَا عَنْ تَمْيِيزِ الْعُظَمَاءِ فِي الدُّنْيَا. وَإِدْرَاكِ حَقِيقَةِ أَقْدَارِهِمْ، وَتَقْدِيسِ مَقَامِهِمْ، إِلَّا النَّظَرِيَّةُ الدِّينِيَّةُ فِي الْخَيْرِ وَأَهْلِهِ، وَالصَّلَاحِ وَرِجَالِهِ، وَمَا نَسِينَا مَعْنَاهَا وَتَأْوِيلَهَا مُنْذُ سَمِعْنَا بِهَا، وَمُنْذُ أُلْقِيَتْ عَلَى النَّاسِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ... لَقَدْ كَانَتْ صَرْخَةً مِنْ مِحْرَابِ الْقَلْبِ، وَصَيْحَةً مُنْبَعِثَةً مِنْ مَعْبَدِ الْفُؤَادِ، صَيْحَةً دَاوِيَةً تُنَادِي بِقَتْلِ نَظَرِيَّةِ الثَّوَابِ وَالِاسْتِحْقَاقَاتِ، بَلْ لَقَدْ كَانَتِ الْعَرْضَ الدِّينِيَّ الْمُؤْلِمَ، الْمُنَفِّرَ لِفَضَائِلِ الْأَوْلِيَاءِ، وَمَزَايَا الصَّالِحِينَ، وَأَخْلَاقِ الْأَتْقِيَاءِ، وَجُمْلَةِ جَدْوَلِ الصِّفَاتِ وَقَوَائِمِ النُّعُوتِ، الَّتِي اتَّخَذَتِ الْكَنِيسَةُ، أَوْ بِعِبَارَةٍ أُخْرَى عُلَمَاءُ الدِّينِ

وَفُقَهَاؤُهُ سِلَعًا وَبِضَاعَةً مُخْتَزَنَةً ، تُوَزِّعُ مِنْهَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَتُفَرِّقُ مِنْهَا عَلَى الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ عَلَى السَّوَاءِ .

وَمَا كَانَتِ الْكَنِيسَةُ — عَلِمَ اللهُ — بِالْمَحَلِّ الَّذِي نَعُبُّ مِنْهُ جَمِيعَ سُخْفِنَا ، وَغَثَاثَةَ[1] تَعَالِيمِنَا ، فَنَجْعَلَ مِنْهُ هَذِهِ الْمَهْزَلَةَ الصَّغِيرَةَ ، الْمُحْتَقَرَةَ الْبَغِيضَةَ إِلَى النُّفُوسِ ، وَلَكِنَّ الْمُشَاهَدَ أَبَدًا فِي كُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ بِشُئُونِ الْبَشَرِ ، أَلَّا تَكَادَ الْحَقَائِقُ الرُّوحِيَّةُ تَسْتَحِيلُ إِلَى تَعَالِيمَ ، وَتَتَحَجَّرُ ، فَتَكُونُ مِذَاهِبَ وَنَظَرِيَّاتٍ ، حَتَّى يُصْبِحَ ذَلِكَ إِيذَانًا[2] بِمَوْتِهَا ، وَالْقَضَاءِ عَلَيْهَا ، وَإِنَّهَا لَتَمُوتُ وَتَعْفُنُ وَيَبْلَى رُفَاتُهَا ، وَتَنْشُرُ رَوَائِحَ السُّوءِ ، وَشَذَى الشَّرِّ وَالْبَلَاءِ ، وَالْفَسَادِ وَالطَّلَاحِ[3] ، وَالْأَذَى الْبَالِغِ .

(١) يريد التعاليم الحقيرة (٢) إعلاماً (٣) ضد الصلاح

* * *

الأعمال الحسنة

إِنَّ نَظَرِيَّةَ الْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ ، أَوْ تَعَالِيمِ الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَالْفِعَالِ الطَّيِّبَةِ الْمَحْمُودَةِ ، الَّتِي كَانَتِ الْأَدْيَانُ تُنَادِي بِهَا ، قَدْ طَغَتْ عَلَيْهَا غَرِيزَةُ إِحْسَاسٍ كَرِيمٍ ، وَشُعُورٍ نَبِيلٍ ، وَلَكِنَّ هَذَا الشُّعُورَ ذَاتَهُ ، عَادَ هُوَ كَذَلِكَ فَمَاتَ وَانْدَثَرَ ، وَقَامَ مِنْ بَعْدِهِ مَرَضٌ آخَرُ ، وَانْتَشَرَتْ فِي أَثَرِهِ عِلَّةٌ جَدِيدَةٌ . وَلَيْسَ فِي النَّاسِ الْيَوْمَ أَحَدٌ يَصْلُحُ لِشَيْءٍ ، ثُمَّ يُطَالِبُ بِاسْتِحْقَاقِهِ عَنْ هَذَا الْعَمَلِ الْحَسَنِ ، أَوْ ذَاكَ مِمَّا أَدَّاهُ أَوْ قَامَ بِهِ . وَكَذَلِكَ عَلَى قَدْرِ طِيبَةِ الْمَرْءِ وَنَصِيبِهِ مِنَ النُّزُوعِ الصَّادِقِ إِلَى الْخَيْرِ ، تَكُونُ دَرَجَةُ انْبِعَاثِهِ إِلَى رَفْضِ أَيِّ جَزَاءٍ عَنْهُ ، أَوْ قَبُولِ أَيِّ ثَوَابٍ .

وَإِنَّهُ لَيَصِيحُ بِكُلِّ قُوَى نَفْسِهِ مُحْتَجًّا ، مُتَأَبِّيًا[1] قَائِلاً : إِنَّهُ لاَ يَبْغِي عَلَى مَا يَفْعَلُ شُكُوراً ، وَلاَ ثَوَاباً وَلاَ جَزَاءً .

* * *

الفوارق الخلقية

وَمَعَ ذَلِكَ : نَحْنُ نَعْرِفُ جَمِيعاً وَنَشْعُرُ عَامَّةً ، أَنَّ بَيْنَ كُلِّ إِنْسَانٍ وَالآخَرِ فَارِقاً خُلُقِيًّا ، مُسْتَحِيلَ التَّحْدِيدِ ، مُتَعَذِّرَ التَّعْيِينِ ، فَمِنَّا مَنْ هُوَ صَالِحٌ ، وَمِنَّا مَنْ هُوَ طَالِحٌ ، وَمِنَّا مَنْ هُوَ طَيِّبٌ ، وَمِنَّا مَنْ هُوَ رَدِيءٌ ، وَمِنَّا مَنْ هُوَ مُتَرَاوِحٌ بَيْنَ ذَلِكَ . وَكُلٌّ مَسْلَكِنَا نَحْوَ بَعْضِنَا الْبَعْضِ ، خَاضِعٌ بِالضَّرُورَةِ لِإِقْرَارِنَا بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ ، وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا مِنْ مَسْأَلَةِ

(١) ممتنعا

الْإِرَادَةِ وَالتَّخْيِيرِ وَالتَّيْسِيرِ ، إِذْ نَحْنُ فِي الْوَاقِعِ لَسْنَا مِنْ صُنْعِ أَنْفُسِنَا ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّنَا كَمَا أَرَادَ اللهُ أَنْ نَكُونَ ، لَيْسَ لَنَا فِي أَمْرِ حَيَاتِنَا وَنُفُوسِنَا شَيْءٌ ، وَلَسْنَا نَحْنُ الَّذِينَ أُوجِدْنَا فِي هَـذَا الْعَالَمِ أَوْ عَمِلْنَا عَلَى أَنْ نَحْتَجِزَ[1] فِيهِ . وَإِنَّمَا نَحْنُ : كَمَا أَرَادَتِ الْعِنَايَةُ الْإِلٰهِيَّةُ أَنْ تَذْرَأَنَا[2] وَتَبْرَأَنَا ، كَذَلِكَ نَحْنُ كَمَا فُطِرْنَا ، وَلَا شَيْءَ غَيْرُ ذَلِكَ مُطْلَقًا ، ثُمَّ مَعَ هَذَا كُلِّهِ لَا نَزَالُ يُعَامِلُ بَعْضُنَا بَعْضًا عَلَى اعْتِبَارِ أَنَّنَا مَسْئُولُونَ ، وَلَـكِنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ لَا حِيلَةَ لَنَا فِيهِ ، وَلَا رَادَّ لَنَا عَنْهُ ، بَلْ إِنَّ أَشَدَّ الْغُلَاةِ[3] فِي أَخْذِ نَفْسِهِ بِالرِّيَاضَةِ ، وَكَبْحِ شَكِيمَتِهَا بِالتَّشَدُّدِ فِي الدِّينِ وَأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ ،

(١) تهيم فيه (٢) ذرأه وبرأه : خلقه وفطره (٣) الغلاة : المتشددون

لاَ يَزَالُ الْعَاجِزَ عَنْ اسْتِئْصَالِ غَرَائِزِهِ[1]، بَلْ كُلَّمَا أَوْحَتْ إِلَيْهِ عَقِيدَتُهُ الدِّينِيَّةُ، أَنْ يُحَارِبَ مُيُولَهُ إِلَى الْأَشْيَاءِ أَوْ كَرَاهِيَاتِهِ نَحْوَهَا، اعْتِقَاداً مِنْهُ بِأَنَّهَا مَعَايِبُ يَنْبَغِي التَّطَهُّرُ مِنْهَا، وَتَنَاقُصٌ يَجِبُ الْبُرْءُ مِنْ وُجُودِهَا، رَاحَتْ مُيُولُهُ وَنَوَازِعُهُ، وَأَهْوَاؤُهُ تَسْتَعْمِقُ فِي نَفْسِهِ، وَتَتَغَلْغَلُ وَتَشْتَدُّ ظُهُوراً، وَتَعْمُقُ تَلْوِيناً.

* * *

الأسرار السماوية

غَيْرُ مُجْدٍ إِذَنْ وَلاَ مَيْسُورٍ وَلاَ مُسْتَطَاعٍ أَنْ نَهْتِكَ الْحُجُبَ عَنْ تِلْكَ الْأَسْرَارِ السَّمَاوِيَّةِ الْمَحْجُوبَةِ عَنَّا، لِنَهْتَدِيَ بِهَا، وَنَلْتَمِسَ طَرِيقَنَا فِي مَنَاكِبِ هَذِهِ الْأَرْضِ عَلَى ضَوْئِهَا وَمَنَارِهَا، أَوْ نُحَدِّدَ مَشَاعِرَنَا وَخَوَالِجَ نُفُوسِنَا بِإِرْشَادِهَا، بَلْ إِنَّ النَّاسَ لَأَخْيَارٌ أَوْ

(١) غرائزه جمع غريزة: وهى الصفة النفسية

أَشْرَارٌ بِالنِّسْبَةِ لَنَا، أَوْ لِمِدَارِكِنَا إِنْ شِئْتَ، وَلَكِنْ هَكَذَا نَحْنُ فِي الْخَلْقِ، وَهَكَذَا شَأْنُنَا، وَمِنْ ثَمَّ يَنْبَغِي أَنْ نُعَامَلَ عَلَى هَذَا التَّحْدِيدِ، وَيُنْظَرُ إِلَيْنَا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.

وَلَيْسَ شَيْءٌ هُوَ أَبْعَدَ مِنَ الْخَلْقِ، وَأَنْأَى عَنِ الصَّوَابِ، مِنْ إِلْحَاحِنَا عَلَى السُّخْرِيَةِ بِالطَّبَائِعِ الْبَشَرِيَّةِ، وَالْعَبَثِ وَالتَّهَانُفِ[1] بِهَا، وَالنَّظَرِ إِلَيْهَا، كَأَنَّهَا شَيْءٌ فَاسِدٌ جُمْلَةً، وَشَرٌّ كُلُّهُ بِلَا تَفَاوُتٍ مَا، أَوَ كَأَنَّ أَفْضَلَ مَا يَنْبَعِثُ مِنْهَا، أَوْ أَسْوَأَ مَا يَكُونُ مِنْ نَتَائِجِهَا، هُوَ عِنْدَ اللهِ سَوَاءٌ فِي الْقِيمَةِ وَالِاعْتِبَارِ. وَإِنَّمَا هَذَا الَّذِي نَظُنُّهُ فِي الطَّبِيعَةِ الْبَشَرِيَّةِ، هُوَ الَّذِي

(١) التهانف: الضحك باستهزاء.

يُفْسِدُهَا فِي الْخَلْقِ، وَيُودِي[١] بِهَا وَيُحَطِّمُهَا تَحْطِيماً. قُلْ لِرَجُلٍ مَا إِنْ لَيْسَ لِأَيِّ عَمَلٍ حَسَنٍ يَعْمَلُهُ قِيمَةٌ، وَلاَ خَطَرٌ وَلاَ قَدْرٌ، يُصَدِّقْكَ فِي الْحَالِ وَيَعْتَقِدْ صِحَّةَ مَا قُلْتَ، وَأَبْرَزُ مَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي الْأَغْنِيَاءِ وَالْمُتْرَفِينَ[٢]. أَوْ قُلْ فِي الرَّجُلِ الْقَدِيرِ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرِ، وَأَمْلَكِ النَّاسِ لِوَسَائِلِ أَدَائِهِ، أَوْ مَنْ هُوَ أَحَقُّ بِالْحَثِّ عَلَيْهِ، وَأَخْلَقُ بِالتَّوْجِيهِ إِلَيْهِ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ لاَ يَنْبَغِي بِلاَ رَيْبٍ أَنْ تُخِيفَنَا، فَإِنَّ الْغَرَائِزَ الَّتِي وَضَعَهَا اللهُ فِي قُلُوبِنَا، هِيَ مِنْ قُوَّةِ الِاسْتِقْرَارِ، وَشِدَّةِ الْأَحَاسِيسِ، وَمَبْلَغِ الِاسْتِمْكَانِ

(١) يودى بها : يهلكها ويفنيها (٢) المترفين : المتنعمين

بِحَيْثُ لاَ تَسْتَطِيعُ سَفْسَطَاءُ[1] النَّظَرِيَّاتِ أَنْ تَسْتَأْصِلَهَا، أَوْ تَقْتَلِعَهَا اقْتِلاَعًا .

* * *

فكرة منحولة

نَحْنُ نُحِبُّ الرَّجُلَ الطَّيِّبَ وَنَمْدَحُهُ وَنُعْجَبُ بِهِ، وَلَيْسَ لَنَا حِيلَةٌ فِي ذَلِكَ وَلاَ طَوَاعِيَةٌ، وَلاَ اخْتِيَارٌ، وَمِنَ الْجُبْنِ وَالنَّذَالَةِ بِلاَ رَيْبٍ أَلاَّ يُقْبِلَ الْمَرْءُ عَلَى الاِعْتِرَافِ بِذَلِكَ جِهَارًا، وَالإِقْرَارِ بِهِ عَلَى رُؤُوسِ الأَشْهَادِ، بَلِ الاِعْتِرَافِ بِهِ، وَشُكْرِ اللهِ عَلَيْهِ، وَالْحَمْدِ لَهُ بِسَبِيلِهِ[2]. فَلَيْسَ فِي الْعَالَمِ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ، وَلاَ فِي السَّمَاءِ حَقِيقَةٌ، هِيَ أَخْطَرُ شَأْنًا مِنْ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ، وَلاَ أَكْبَرُ خَطَرًا، وَلاَ أَعْظَمُ مَكَانًا، وَإِنَّ الأَدْيَانَ

(١) السفسطاء والسفسطة : يونانية ، معناها قياس مركب من الوهميات

(٢) سبيله : أى واجبه وطريقه

لَتَفْقِدُ رُوحَهَا الْكَرِيمَةَ ، وَجَوْهَرَهَا السَّامِيَ الْعَظِيمَ ، إِذَا هِيَ أَصَرَّتْ عَلَى أَنْ تَفْرِضَ نَظَرِيَّةً مِنْ عِنْدِ نَفْسِهَا عَلَى قُلُوبِنَا ، وَتُمْلِيَ فِكْرَةً مَنْحُولَةً[1] مِنْ لَدُنْهَا عَلَى أَفْئِدَتِنَا ، فَإِنَّ مَسَّةً مِنْ هَذِهِ النَّظَرِيَّةِ لَقَاتِلَةٌ مُدَمِّرَةٌ مُحَطِّمَةٌ ، كَمَسَّةِ الطُّورْبِيدِ أَوْ الْمُفْرَقِعِ الشَّدِيدِ ، بَلْ إِنَّ هَذِهِ النَّظَرِيَّةَ لَتُدَمِّرُ إِذَا هِيَ مَسَّتْ كُلَّ انْبِعَاثٍ رَفِيعٍ ، وَكُلَّ اسْتِجَابَةٍ سَامِيَةٍ كَرِيمَةٍ ، نَحْوَ طَلَبِ الْكَمَالِ وَالتَّطَلُّعِ إِلَيْهِ .

* * *

مطاردة الطبيعة

وَلَقَدْ قِيلَ مِنْ قَبْلُ إِنَّكَ لَوْ نَفَيْتَ الطَّبِيعَةَ وَطَارَدْتَهَا وَتَتَبَّعْتَهَا لِتُزِيلَهَا مِنْ مَوْضِعِهَا ، عَادَتْ إِلَى مَحَلِّهَا وَشِيكًا ، وَاسْتَرْجَعَتْ مَوْضِعَهَا عَادِيَةً[2] وَاثِبَةً

(١) منحولة : مختلقة (٢) عادية : من العدو وهو سرعة السير

مُبَادِرَةً ، وَنَحْنُ إِذَا أَغْفَلْنَا الْحَقِيقَةَ وَلَمْ نَحْفِلْهَا ، فَإِنَّمَا نَمْلَأُ الْفَرَاغَ بِمَا نَصْطَنِعُهُ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِنَا ، وَنَسُدُّهُ بِمَا نَخْتَرِعُهُ مِنَ الْأَكَاذِيبِ ، وَنُلَفِّقُهُ مِنْ مُخْتَرَعَاتِ الزَّيْفِ وَالتَّصَوُّرِ ، وَإِنَّا لَنَشْهَدُ الْقِصَصَ النَّاجِحَةَ ، هِيَ وَحْدَهَا الَّتِي تُصَوِّرُ لَنَا انْتِصَارَاتِ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ فِي مَعَارِكِ الْحَيَاةِ الْحَدِيثَةِ ، وَتُمَثِّلُ لَنَا فَوْزَهُمْ فِي النِّزَاعِ عَلَى الْعَيْشِ ، وَالتَّقَاتُلِ عَلَى مَطَالِبِهِ ، وَالتَّفَوُّقِ فِيهِ ، وَإِنَّ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ وَالْأُقَاصِيصَ ، أَحَبُّ مَا تَكُونُ إِلَى نُفُوسِ الْجَمَاهِيرِ ، وَأَفْتَنُ مَا تَكُونُ لِخَوَاطِرِ الشَّبَابِ ، وَلَكِنَّهَا مَعَ ذَلِكَ لَيْسَتِ الْحَقِيقَةَ ، وَمَا هِيَ مِنَ الْوَاقِعِ فِي قَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ ، بَلْ لَيْسَتْ فِي الْحَقِّ سِوَى ظِلَالٍ وَصُوَرٍ عَارِيَةٍ ، وَنَمَاذِجَ نَاقِصَةٍ مِنْ تِلْكَ

الْمَعَارِكِ الْحَقِيقِيَّةِ ، الَّتِي شَهِدَهَا كُلُّ قَارِىءٍ فِى صُورَةٍ مَا ، أَوْ نَاحِيَةٍ مِنْ نَوَاحِى الْحَيَاةِ ، أَوْ تَاقَ[1] إِلَى مُشَاهَدَتِهَا فِى دَائِرَةِ عَيْشِهِ وَأُفُقِهِ[2] الصَّغِيرِ الْمَحْدُودِ .

إِنَّ هَذِهِ الْقِصَصَ وَالرِّوَايَاتِ الْمَوْضُوعَةَ ، تَدُلُّ عَلَى مَبْلَغِ الْحَنِينِ الَّذِى فِى نُفُوسِنَا إِلَى مَعْرِفَةِ أَيْنَ يَكْمُنُ[3] الْخَيْرُ؟ وَأَيْنَ تَقُومُ النَّبَالَةُ وَالْعَظَمَةُ وَالْفَضِيلَةُ ؟ ؟ لَوْ أَنْ لَدَيْنَا الشَّجَاعَةَ الْكَافِيَةَ لِمُوَاجَهَتِهَا ، وَالذِّهَابَ قُدُمًا إِلَى لِقَائِهَا ، بَلْ لَيْتَ شِعْرِى مَا حَاجَتُنَا إِلَى الِالْتِجَاءِ إِلَى الْخَيَالِ ، لِنُنْشِىءَ مَا أَنْشَأَهُ اللهُ لَنَا جَاهِزًا مُفَصَّلاً حَاضِراً مِنْ أَجْلِنَا ؟ !

(١) تاق مال وأحب (٢) وأفقه : دائرته التى يعيش فيها
(٣) يكمن : يختفى .

* * *

أفضل الأفراد

إن فِي كُلِّ فَرْعٍ مِنْ فُرُوعِ الحَيَاةِ الإِنْسَانِيَّةِ فَرْدًا عَلَى أَقَلِّ تَقْدِيرٍ، هُوَ أَفْضَلُ النَّاسِ فِيهِ، وَنَوْعًا مِنَ النَّاسِ هُوَ أَرْفَعُ مِنْ كَافَّةِ أَنْوَاعِهِمْ، فَرْداً يَعْمَلُ فِي صَمْتٍ، وَيَشُقُّ طَرِيقَهُ فِي سُكُونٍ إِلَى الجَنَّةِ، وَالسَّمَوَاتِ العُلاَ، وَيَعِيشُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا، وَيَتَقَلَّبُ بَيْنَنَا، وَيَحْيَا فِي أُفُقِنَا وَمَجَالِنَا، فَلْنَذْهَبْ إِذَنْ نَلْتَمِسْ هَذَا النَّوْعَ مِنَ الرِّجَالِ، وَلْنَمْضِ نُفَتِّشْ عَنْهُ، وَنَبْحَثْ فِيمَا يُكَوِّنُهُ وَعَمَّا يُنْشِئُهُ، وَمِنْ أَيِّ مُرَكَّبٍ مِنَ الصِّفَاتِ يَتَرَكَّبُ؟ فَإِذَا مَا عَرَفْنَا ذَلِكَ وَأَدْرَكْنَاهُ، أَقَمْنَا تَفَوُّقَهُ وَمَزَايَاهُ وَنُعُوتَهُ وَصِفَاتِهِ مِقْيَاسًا مُعْتَرَفًا بِهِ، وَمُسْتَوًى مُقَرَّرًا مُصَدَّقًا عَلَيْهِ، وَجَعَلْنَاهُمْ هُمْ أَنْفُسَهُمْ،

الشُّهُودَ عَلَى حَقِيقَةِ هَذَا الْمِقْيَاسِ، وَالْأَدِلَّةَ الْمَحْسُوسَةَ الْمَلْمُوسَةَ عَلَى وُجُودِ ذَلِكَ الْمُسْتَوَى الرَّفِيعِ .

نَبِّئُونَا : هَلْ مِنْ غَنِيٍّ صَاحِبِ مَالٍ؟ هُوَ مُنْفِقٌ مَالَهُ وَثَرَاءَهُ فِي إِنْشَاءِ الْمَدَارِسِ، لَا فِي تَعَهُّدِ الْجَنَّاتِ فِي دَارِهِ وَالْمَنَابِتِ وَالْبَسَاتِينَ ، وَبَاذِلٌ مِنْ ثَرْوَتِهِ وَيَسَارِهِ فِي سَبِيلِ إِقَامَةِ الْمَلَاجِئِ وَالْمَغَاسِلِ وَالْمَصَارِفِ لَا فِي تَنْسِيقِ الْحَدَائِقِ الْغُلْبِ[1]، وَالْجِنَانِ الْأَلْفَافِ ، وَالرِّيَاضِ الْأُنُفِ[2]؟؟ . بَلْ هَلْ فِي الْأَغْنِيَاءِ وَالْمُثْرِينَ مَنْ هُوَ مُعْرِضٌ عَنْ زِينَةِ دَارِهِ وَتَجْمِيلِ قَصْرِهِ وَمَغْنَاهُ[3]؟؟ مُقْبِلٌ عَلَى إِنْشَاءِ الْأَكْوَاخِ الصِّحِّيَّةِ لِأُجَرَائِهِ[4] ، وَإِقَامَةِ

(١) الغلب : الملتفة الأشجار ، الوارفة الظلال (٢) الرياض الأنف : التى لم ترع بعد (٣) المغنى : المنزل الآهل بأهله (٤) جمع أجير : وهو الذى يعمل عند غيره بالأجر

الدُّورِ الصِّغَارِ، النَّظِيفَةِ لِلعَامِلِينَ فِي حُقُولِهِ، وَالْفَالِحِينَ[١] فِي أَرَاضِيهِ ؟ ؟

إِذَا لَقِيتُمْ رَجُلًا كَهَذَا: فَلَا تَمُرُّوا بِهِ فِي عَجَبٍ مِنْهُ، وَلَا يَأْخُذْكُمُ الْفَرَحُ بِهِ لَحْظَةً، ثُمَّ يَتَلَاشَى مِنْ قُلُوبِكُمْ. وَلَكِنْ هَلُمُّوا نُمْسِكْ بِهِ، وَهَيَّا نَرْفَعْهُ فَوْقَ مِنَصَّةٍ عَالِيَةٍ حَتَّى يَشْهَدَهُ أَمْثَالُهُ مِنْ عِرَاضِ[٢] الْمَالِ وَالْمُكْثِرِينَ وَالدَّهَاقِينَ[٣]، لَعَلَّ قُلُوبَهُمْ تَخْزُهُمْ[٤]، وَضَمَائِرَهُمْ تُرْجِعُهُمْ، وَحَتَّى تَعْلَمَ الدُّنْيَا مِمَّا أَدَّاهُ فَرْدٌ وَاحِدٌ، مَا قَدْ يَسْتَطِيعُ آخَرُونَ أَنْ يُؤَدُّوهُ، وَحَتَّى تُدْرِكَ الْإِنْسَانِيَّةُ مَبْلَغَ الْأُسْوَةِ الْحَسَنَةِ، وَالْقُدْوَةِ الْمَاثِلَةِ[٥].

(١) فلح الأرض: شقها ومنه الفلاح (٢) عراض المال: أى واسعى الثراء (٣) الدهاقين: جمع دهقان وهو الرجل الواسع النعمة من أهل فارس (٤) من وخزه بالابرة أو بالرمح أثرفيه (٥) الماثلة: المشاهدة المرئية

كَذَلِكَ قِسْ سَائِرَ فُرُوعِ الْحَيَاةِ وَنَوَاحِيهَا الْمُتَعَدِّدَةِ، وَلَنْ يَكُونَ ذَلِكَ شَاقًّا كَمَا نَتَصَوَّرُ، وَلَا عَصِيًّا كَمَا نَظُنُّ، فَإِنَّ الْأَدَاةَ مَيْسُورَةٌ، الْأَدَاةَ الَّتِي نَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى الِاهْتِدَاءِ إِلَى الْعُظَمَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَنَعْرِفُ بِهَا كَيْفَ نَسْتَخْدِمُهُمْ وَنَنْتَفِعُ بِهِمْ، وَقَدْ نَجْهَلُ تَطَوُّرَاتِ الظُّرُوفِ وَتَقَلُّبَاتِ الْأَحْوَالِ، وَصَامِتَ التَّغَيُّرَاتِ، وَفُجَائِيَّةَ الْحَادِثَاتِ، وَلَكِنْ مَا ظَلَّ النِّظَامُ الْحَاضِرُ قَائِمًا، فَلَا خَيْرَ وَلَا جَدْوَى مِنْ حَمْلِ الدِّينِ عَلَى الْعَمَلِ، وَسَوْقِهِ إِلَى التَّغْيِيرِ وَالتَّهْذِيبِ، وَلَوْ تَوَانَى لَنَا أَنْ نَجْعَلَ مُعَلِّمِي الشَّعْبِ وَوَعَظَتِهِ، وَالْمُتَصَدِّينَ لِهِدَايَتِهِ، أَفْضَلَ النَّاسِ وَأَحْكَمَهُمْ وَأَنْبَلَهُمْ نُفُوسًا، لَأَصَبْنَا مِنْ ذَلِكَ أَكْبَرَ الْخَيْرِ، وَأَعْظَمَ الْحَسَنَاتِ،

وَلَكِنْ مَا دَامَ هَذَا غَيْرَ مَيْسُورٍ إِلَى الْآنَ، فَلْنَقْنَعْ إِذاً بِالْعَمَلِ، وَلْنَمُدَّ أَيْدِينَا إِلَى الْعَجَلَةِ، لِنُمْسِكَ بِهَا مِنْ أَيَّةِ نَاحِيَةٍ نَسْتَطِيعُ بِهَا الْإِمْسَاكَ، وَحَسْبُنَا أَنْ تَكُونَ كَنِيسَتُنَا الْعَامَّةُ، هِيَ رُوحَ الشَّعْبِ عَامَّةً، وَضَمِيرَ الْمَجْمُوعِ، وَلَكِنَّا لِلْأَسَفِ لَمْ نَعْتَدْ بَعْدُ أَنْ نَنْظُرَ إِلَى الْفَرْدِ الَّذِي يَجْعَلُ عَمَلَهُ أَبَداً وَفْقَ وَحْيِ ضَمِيرِهِ نَظْرَةً صَالِحَةً، وَإِنَّمَا نَعُدُّهُ الْبَائِسَ الْمُعَذِّبَ نَفْسَهُ، وَلَا نَرَى شَأْنَهُ مِنَ الْأَحْوَالِ الْخُلُقِيَّةِ، الَّتِي يُرْجَى مِنْهَا الْخَيْرُ وَالْبَرَكَةُ، وَالْإِصْلَاحُ وَالْإِحْسَانُ ؟

*
* *

الخاتمة إِلَى هُنَا قَدِ انْتَهَيْنَا مِنْ كُتُبِنَا الْخَمْسَةِ مُنْتَقِلِينَ بِكَ إِلَى تَمَامِ السِّلْسِلَةِ الْأُولَى مِنْ هَذِهِ الْمَكْتَبَةِ ، رَاجِينَ أَنْ نُلِمَّ بِهَا سَوِيًّا وَمَا سَيَلِيهَا مِنْ كُتُبِ الْمَجَازَاتِ وَالْأَمْثَالِ وَفِقْهِ اللُّغَةِ وَالْمُتَرَادِفَاتِ وَالْمَنْثُورِ وَالْمَنْظُومِ وَالْمُعَلَّقَاتِ ، إِلْمَامَةً مُوجَزَةً مُتَوَاضِعَةً فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ ، وَمُخْتَلِفِ النَّوَاحِي فِي دَرْسِ لُغَةِ الْعَرَبِ ، وَنَرْجُو أَنْ يُتَاحَ لِغَيْرِنَا الْمَزِيدُ — وَكَمْ نَرْجُو أَنْ نَكُونَ فِي سِمْطِ[1] ذَلِكَ الْغَيْرِ ؟ — فَيُفْرِدَ لَنَا كُتُبًا فِي النَّقْدِ وَالْأَخْلَاقِ ، وَالْقِصَّةِ وَالْجَدَلِ ، وَالتَّفْسِيرِ ، وَالْحَدِيثِ ، وَالْمَنْطِقِ ، وَفِي الِاخْتِرَاعِ ، وَالِاجْتِمَاعِ ،

(١) السمط بالكسر : خيط النظم ما دام فيه الخرز واللؤلؤ — والمعنى فى سلكه .

وَإِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ عُصَارَةِ[١] الْأَذْهَانِ ، وَبَنَاتِ أَفْكَارِ الْعَصْرِ . وَكَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ نُفَكِّرَ جَدِّيًّا فِي وَضْعِ الْأُسُسِ الْأُولَى فِي مَشْرُوعِ الْمَوْسُوعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ . وَلَعَلَّ ذَلِكَ يَتَحَقَّقُ فِي يُسْرٍ وَطُمَأْنِينَةٍ إِذَا مَا تَوَفَّرْنَا عَلَى إِعَادَةِ طَبْعِ مَا وَضَعَهُ السَّلَفُ الصَّالِحُ فِي هَذَا الْبَابِ عَنْ جَهَابِذَةِ[٢] اللِّسَانِ وَمَشْيَخَةِ اللُّغَةِ ، وَأَئِمَّةِ الْأَدَبِ ، وَنَاظُورَةِ[٣] الْبَيَانِ ، وَرِجَالَاتِ[٤] الْعِلْمِ ، لِتَكُونَ تُكَأَةً وَعَتَادًا لَنَا ، أَوْ لِمَنْ يَأْتِي بَعْدَنَا فِي هَذَا السَّبِيلِ ، كَمَا نَرْجُو أَنْ نَعْمَلَ عَلَى بَعْثِ[٥] آثَارِ جَمَاعَةٍ صَالِحَةٍ مِنْ أَئِمَّةِ

(١) عصارة : خلاصة (٢) الجهبذ : الناقد العارف بتمييز الجيد من الردى . (٣) ناظورة البيان : أئمته ومن يشار إليه بالبنان .
(٤) رجالات : جمع لرجال جمع تكسير لرجل (٥) البعث : الاحياء

الْبَيَانِ الْعَرَبِيِّ وَالْفِكْرِ الْعَرَبِيِّ أَمْثَالِ : عَبْدِ الْحَمِيدِ الْكَاتِبِ ، وَابْنِ الْمُقَفَّعِ ، وَالْجَاحِظِ ، وَالْغَزَالِيِّ ، وَابْنِ ظُفَرَ ، وَيَاقُوتٍ ، وَابْنِ مَسْكَوَيْهِ ، وَابْنِ عَبْدِ رَبِّهِ ، وَابْنِ قُتَيْبَةَ ، وَالْقَالِيِّ ، وَالْمَقَّرِيِّ ، وَالْمُبَرِّدِ ، وَابْنِ بَسَّامٍ ، وَالثَّعَالِبِيِّ ، وَالطَّبَرِيِّ ، وَالْيَعْقُوبِيِّ ، وَالْمَسْعُودِيِّ ، وَالصَّابِيِّ ، وَالْجَهْشِيَارِيِّ ، وَغَيْرِهِمْ فِي ثَوْبٍ مِنَ الْحَيَاةِ قَشِيبٍ[1] . وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ أَوَّلاً وَآخِرًا .

(١) القشيب : الجديد .

فهرست

كتاب الهامش على المقدمة

الصحيفة		الموضوع
من	الى	
١	٨	المقدمة
٨	١٢	كلمة يحيى بن خالد
١٢	١٥	النوابغ والعظماء
١٥	١٨	أمانى الشباب
١٨	١٩	العظماء فى أجيالهم
١٩	٢٢	الدين والعظماء
٢٢	٢٦	مدارج الثقافة
٢٦	٣٢	مهمة العظيم
٣٢	٣٦	نظرنا الى العظماء
٣٦	٣٨	المخترعون والطبيعة
٣٨	٤٠	الانسان والطبيعة
٤٠	٤٣	المنافع الأولية

الصحيفة		الموضـــوع
من	الى	
٤٣	٤٦	النواحى الروحية للمادة
٤٦	٥٢	أصل الأنسان
٥٢	٥٦	تأثر الفكر والعاطفة
٥٦	٥٩	حكمة التراجم
٥٩	٦٢	اكبار العظماء
٦٢	٦٤	كاشفو المادة
٦٤	٦٦	كيف نختار العظماء
٦٦	٦٨	الادراكات التصورية
٦٨	٧١	سلطان العظيم وخطره
٧١	٧٣	أثر المرشد العظيم
٧٣	٧٤	تطلع النفس الى الطريف
٧٤	٧٧	تعدد مظاهر النبوغ
٧٧	٨٠	الهداة الأوائل
٨٠	٨٢	العظماء والانسانية
٨٢	٨٦	فضل الفكر على العالم
٨٦	٨٧	التناحر على الحياة
٨٧	٨٩	مثار الاعجاب من العظماء
٨٩	٩٠	عنصر الايثار روح العظمة

الصحيفة		الموضـــوع
من	الى	
٩٠	٩٧	مزايا العـامة
٩٧	١٠٠	تراث الجيل فى الفرد
١٠٠	١٠١	أثر الخلطاء
١٠١	١٠٣	أثر العظماء فى حماية العامة
١٠٣	١٠٥	أخطار العظمة
١٠٥	١٠٨	حصانة العبقرية
١٠٨	١١٠	حماية الطبيعة للفرد
١١٠	١١٣	لا مهانة فى خدمة العظيم
١١٣	١١٦	العظماء والشباب
١١٦	١٢٠	مدرسة المجتمع
١٢٠	١٢٢	رجال الساعة
١٢٢	١٢٤	السمو الحقيقى
١٢٤	١٢٥	تاريخ العظماء
١٢٥	١٢٩	عظمة الانسانية
١٢٩	١٣١	أثر النبوغ
١٣١	١٣٣	محاربة الفوضى
١٣٣	١٣٥	الرد على ايمرسون
١٣٥	١٣٧	نابليون بونابرت

الصحيفة		الموضوع
من	الى	
١٣٧	١٣٩	الأوليات
١٣٩	١٤١	حقيقة العظمة والنبوغ
١٤١	١٤٥	الرجل العملى
١٤٥	١٤٩	النبل والفضيلة
١٤٩	١٥٣	الواجب الايجابى والسلبى
١٥٣	١٥٤	رأى باتلر
١٥٤	١٥٨	فلسفة العصر الحديث
١٥٨	١٦٣	الأولياء والقديسيون
١٦٣	١٦٦	تراجم العصر الحديث
١٦٦	١٧٠	التربية والتعليم
١٧٠	١٧٣	كشافة الفضيلة
١٧٣	١٧٦	طابع العصر الحاضر
١٧٦	١٨٠	تربية الابناء
١٨٠	١٨٣	تماثيل العظماء
١٨٣	١٨٦	ظهور ايمرسون
١٨٦	١٨٨	مصير عبادة البطولة
١٨٨	١٩٠	أوامر الدين
١٩٠	١٩٤	الشجاعة

الصحيفة		الموضـــوع
من	الى	
١٩٤	١٩٧	الحياة العملية
١٩٧	٢٠٠	خواص الأعمال
٢٠٠	٢٠٢	الغـــد
٢٠٢	٢٠٥	مشكلة العمل والعمال
٢٠٥	٢٠٧	تقسيم الأعمال
٢٠٧	٢٠٩	حياة الأفراد
٢٠٩	٢١٠	نظرة فى التعليم
٢١٠	٢١٢	اختيار المرء
٢١٢	٢١٣	الرأى العام
٢١٣	٢١٦	الرجل العظيم
٢١٦	٢١٨	النظرية الدينية
٢١٨	٢١٩	الأعمال الحسنة
٢١٩	٢٢١	الفوارق الخلقية
٢٢١	٢٢٤	الأسرار السماوية
٢٢٤	٢٢٥	فكرة منحولة
٢٢٥	٢٢٨	مطاردة الطبيعة
٢٢٨	٢٣٣	أفضل الأفراد
٢٣٣	٢٣٥	الخاتمـة

١٩٣٦/٧/٥١٠٠/١

892.708:R56mA:v.5:c.1
رفاعي ،احمد فريد
مكتبة القراءة والثقافة الادبية للجيب
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01032586

American University of Beirut

892.708
R56mA
v.5
General Library

892.708
R56mA
v.5